
بثينة العيسى
باطن هيكل القارب الورقي
ظاهر هيكل القارب الورقي
كبرت ونسيت
أن أنسى



ISBN 978-614-02-0865-0

الطبعة الأولى

1434هـ - 2013 م



الدار العربية للعلوم ناشرون

Arab Scientific Publishers, Inc.

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم

هاتف: 786233 - 785108 - 785107 1 00961

ص.ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 – لبنان

فاكس: 786230 1 00961 – البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

لا يجوز لك أبدًا أن تظل هنا أكثر مما ينبغي؛ كن من البعد بحيث لا يكون بمستطاعهم أن يجدوك، أن يمسكوا بك ليشكِّلوك، ليُقَوْلبوك. كن بعيدًا جدًّا ، كالجبال، كالهواء غير الملوث؛ كن من البعد بحيث لا يكون لك أهل، ولا علاقات، ولا أسرة، ولا وطن؛ كن من البعد بحيث لا تعرف حتى أين أنت. إياك أن تدعهم يعثرون عليك؛ إياك أن تحتك بهم احتكاكًا ألصق مما ينبغي. ابْقَ بعيدًا جدًّا حيث حتى أنت لا تقدر أن تجد نفسك.

- كريشنامورتي

يقولون لا تبعد وهم يدفنونني

وأين مكان البعد إلا مكانيا؟

مالك بن الرّيب -

كبرتُ..

قالوا لي دائماً: تكبرين وتنسين.

عندما سقطتُ وشجّ حاجبي،

عندما أجبرتني معلمة الرياضيات على الوقوف ووجهي للحائط

لأنني نسيت أن 7 × 6 = 42

عندما انكسرت درّاجتي ولم يشتروا لي أخرى

لكي لا أكسرها.

عندما انكسرت زجاجةُ روحي

عندما مات والداي

عندما لم أمت أنا

عندما كان العالم كثيراً وأنا وحدي

عندما نحر أخي دميتي لأن «الباربي» حرام

وشطب قناة «سبيس تون» لأن «البوكيمون» حرام.

عندما خلع صورة أمي وأبي من البرواز ودفنها في الدرج المكسور

..كي لا تطرد الملائكة

عندما امتلأت شقوق الجدران بالشياطين

،عندما أجبرتُ على دخول كلية البنات

.حفاظاً على عفافي

،عندما عرضني على صديقه للزوا ج

.حفاظاً على عفافي

.عندما مزّقتُ أغلفة كتبي لأحميها من الحرق

عندما كتبتُ قصيدتي الأولى أسفل علبة الكلينيكس

وأنا أرتجفُ من الخوف

..عندما شدّني من حجاب رأسي في أصبوحتي الشعرية الأولى

عندما صفعني أخيراً

.قالوا لي جميعاً: تكبرين وتنسين

،المشكلة هي أنني كبرتُ ولم أنسَ

..كبرتُ ونسيتُ أن أنسى

آكلة التفاح

.مرآتي، يا مرآتي -

من أشنع سيدةٍ في البلاد كلها؟

،أنتِ يا آكلة التفاح -

.أنتِ.. يا دودة الكتب السيئة

..أنتِ

.لم أستيقظ. لقد تم قذفي في اليقظة

.المرآة من أمامي والرّعب في مسامي

من أنا؟

لقد لفظني الحلم، ورغم أنه لم يكن حلماً جميلًا، إلا أنني كنتُ أفضل المضيّ فيه على مجابهةِ المكان. لوهلةٍ تساءلتُ: ما هذا المكان؟ أين أنا؟ ثم انتبهتُ، أقصد تذكّرتُ: إنهُ المكان الذي أختبئ فيه. أنا في الفندق. لقد هربتُ.الساعة لم تتجاوز الثالثة والنصف فجراً. ماذا سأفعل بي وأنا مستيقظة؟ طويتُ ركبتيَّ وضممتُهما إلى بطني، احتضنتني. أنا كرةٌ على شكل امرأة، قريبة إلى الكُرة، وبعيدة عن المرأة. مثل تاء مربوطة في .معصميها

غطّيتُ رأسي تحت اللحافِ وأغمضتُ عيني: نامي يا فاطمة. غداً سوف نرتب أفكاركِ. غداً سوف تكوين قميصكِ وتمشطين شعركِ وترتّبين أفكارك. هذه هي الخطة، وكل ما عليكِ فعله الآن هو أن تنامي. الليل ليس في

.صفك يا فاطمة، تعرفين ذلك ومع ذلك تستيقظين بهذا الشكل السيّئ

ألتفّ على بعضي، مثل حلزونٍ يعرف ما يفعله، يلا تنام، يلا تنام.. أغني لي وكأنني أمي، وكأنني طفلتي، وكأنني الشخص الوحيد المتبقي لي، لأنني الشخص الوحيد المتبقي لي. أطرافي تنتفضُ، جسدي انتفاضة، حقيقتي الفادحة تتنزل عليّ كالرعب الأزلي الذي ينتابُ الروح أمام خفة .السؤال. لقد هربتُ فعلا. لقد هربتِ يا فاطمة

وجهي في المرآة يسخرُ مني: اهتفي أكثر يا أرخميدس على اكتشافكِ العبقري. أيقظي العالم! أقول نامي يا فاطمة، نامي بسرعة، نامي قبل أن تستيقظ أطرافُ الفكرةِ القصية، قبل أن تري فجورها وعهرها وسلطانها عليكِ، قبل أن تمتصّكِ الفكرة وتشرب عصيركِ وتلفظكِ جافة .وعاجزة

لا أستطيع ألا أفكر. يجب أن أطفئ هذه الآلة المجنونة التي يسمونها الدماغ. أقفز من السرير، أصابعي ترتعش وهي تفتحُ حقائبي، أصابعي مجنونة مثلي، هزيلة ومتعرّقة ومجروحة مثلي. أفتح الحقائب واحدة بعد أخرى، أنكشُ باطنها، أرمي بالأشياء بعيداً وأنا أواصل النبش، والنكش، والنهشَ، أدس أصابعي عميقاً، عميقاً في الجيوبِ والثقوبِ وزوايا الحقائبِ، أغوص باحثةً عن خلاصي، عن العلبة اللعينة التي تستلّني من حقيقتي. ألبرازولام، المنوّم السحري، قاهر الصرع والقلق والاكتئاب. أفضل أصدقائي وأسوأ أعدائي، والماضي قدماً في مشروع تدميري، بمباركة .شخصية مني

أين أنت أيها الشيطان؟ تعال يا حبيبي، تعال أيها الصغير، تعال قبل أن أخرج ركضاً وأسلّم نفسي لأول شرطي أو بائع مناديل أراه في الشارع. أعثرُ على العلبة تحت البيجامات القطنية. أفتحُها بأصابع مرتعشة، أبتلع القرص وأنا أطمئنُ الكائن المجنون في داخلي بأن الأمور قيد السيطرة: اهدئي يا فاطمة، لقد أخذتِ .الدواء

أنا ملقاةٌ على السرير، السرير حُفرة وأنا أسقط، الحفرة بلا انتهاء. كالدم المراق، كالجياع، كالموتى، كقصائد السياب، هداياك ربي مقبولةٌ هاتها، هاتها، يا واهب المحار والردى(1). هل أهذي؟ إنني أرتعش وليس في الأمر .عشقٌ أو وجدٌ أو وحي. ألبرازولام يعربدُ بي. جفافٌ شاسعٌ في فمي، أنا بئر معطلة

أغمضُ عيني وأرى فارس. يبحث عني في الشوارع الكثيرة، يجوب الأرصفة ويتلفّت، يبحثُ عني خلف الأشجار وتحت الحصى، أبتسمُ له في قلبي، أتمتمُ بلسانٍ ثقيل كأنه كيس الرّمل: نم يا حبيبي. نم. الخدرُ يزحفُ إليّ من أصابعي، ينقصني من أطرافي، أنا أتآكل وأتضاءل على مهلي.. لقد صار بوسعي أن أكون بليدة، وأن أنظر إلى فارس بعين قلبي. أحنو عليه. وبحنجرتي الرديئة، وصوتي الهزيل، غنيتُ له، غنيتُ له كي ينام.

1

صلاة

أحتضنُ دماري لأكتب.

أنا مكسورةٌ في داخلي،

اجبرني يا جبّار.

علّمني كيف أصلّي،

صلاةً تخصني وحدي،

آتني لغتي.

آتني لغتي يا رب اللغة،

آتني لغتي كي أبتهل لك

لك السبحانُ والمجد.

آتني لغتي جميعها،

آتنيها كي أفكّر، كي أكون.

كي أعرفني، كي أعرفك.

ربّ البيانِ وخالق الإنسان، كن معي في وحدتي، فأنا أستوحشُ في السراديب، وأريدُ كلمة أشعلها وتشعلني، أحييها وتحييني، أستدفئ بها وأضيء بها باطني.

الكلمة التي كانت في البدء، الكلمة التي حوّلت نطفة العدمِ إلى كرة العالم، التي أتت بي إلى هنا، في مكاني هذا، أتحسس ابتهالاتي بطرف إصبعي، وأرى الحروف بعين قلبي، آتني الكلمة، كلمة السرّ، سرّ الحقيقة، حقيقة الحكمة، آتني الحكمة لكي أغفر هذا الدمار، آتني لغتي.

آتني جيم الجواب لكي أفهمَ بذاءة العالم، لكي أمنطق السوء الذي وقع وأصفح.. آتني الحاء لكي أُحب، لكي أحتوي، لكي أحنو، فالحياةُ يبوسٌ والماء يستعصي وأنا جافة وأنوثتي بعيدة. آتني الباء لكي أبرأ، لكي يصير شفائي ممكناً. آتني الراء لكي أرحل وأرتحل، لكي أتروحن وأرتاح. آتني الراء، آتني الزاي، آتني العين والقاف والميم، آتني اللغة لكي أخصّب الجدب المسمى حياتي، لكي أضيء السرداب المأهول بالأشباح والعفاريتِ، القابع عميقاً في أغوار الذاكرة. آتني السين لكي أسلو، آتني الشين لكي أشعر، لكي أخرج خضراء مثل شجرة، آتني اللغة يا رب اللغة، لك السبحان والمجد والكبرياء في السماء كما في الأرض.. أنا صغيرة وضئيلة وتافهة، وهذا الكون المترامي أبداً هو كونك في النهاية..

آتني لغتي.

عجوزٌ مجفّفة

،إنه مكان مثالي لكي يكون المرء لا مرئياً

.لكي تكون المرأة لا مرئية

غرفة بتكلفة 25 ديناراً لليلةِ الواحدة، في فندقٍ رخيصٍ يحتفلُ بقبحه كما لو كان إنجازاً. في غياهب الزحام الهجين للسالمية، وبين مجموعة مقاهٍ كسلى، تستند إلى أكتافِ بعضها وتبدو متكئة، تنشر روادها على الأرصفة مع رؤوس الأرجيلة الحمراء، تغمرهم رائحة الشواء وتظللهم .عمامةٌ من دخان

.أذوبُ في الكثرةِ وأكادُ أختفي

،لا رائحة لي ولا يتبعني ظل

.إنني لا أحد

إنني في المكان الملائم، ليس فقط لأن أحداً لن يتوقع وجودي هنا، بل لأن هذا المكان يشبهُني - تهتكه الذي لا يغتفر، شيخوخته الظاهرة رغم حداثة سنه، حوض الأسماك الفارغ بأسى، .الستائر الزرقاء، الأرائك العنابية، الغياب الفضائحي للتناغم بين أجزائه، كل شيءٍ هنا هو أنا

أشعر بأنني فقدتُ أعضاء كثيرة فيما أنا أقطع أميالي، وأنني ملطخة ببقعٍ من الفراغ. لقد متّ كثيرًا ودفنتُ نفسي كثيرا ولم يعد فيَّ مكانٌ أخضر وحي، إنني عجوز في الخامسة والعشرين .من عمرها، عجوزٌ مجففة

وأحتاجُ.. عندما أتحدث عن دواعي هربي أن أكون مقنعة، أن لا أبدو مثل امرأة مجنونة وحسب، مدمنة عقاقير وشاعرة تحتجّ على جفاف الأشياءِ ونأيها. إنني قابلة للإدانة إلى حدٍ بعيد، وأحتاج أن أجعل الأشياء واضحة، قابلة للقياس، محددة وبسيطة مثل نسبة مئوية. الجواب هو الهرب. المعطيات بلا انتهاء، الحكاية ليست خطأً مستقيماً ولكنني سوف أحاولُ .بأيّ حال

أريد لفارس أن يفهم بأنه لم يعد في وسعي أن أبقى لحظة واحدة في ذلك العالم. عالم التوابيتِ والسراديبِ، عالم الأحذية التي تدوس على وجهي. أريد الخلاص من كلّ ارتباط ممكن

بالشكل المتعارف عليهِ للعيش، أريد الفوضى، أن أنام عندما أريد، وآكل وقتما أريد، وأصمت بقدر ما أريد. أريد أن أريد. جوعي إلى إرادتي الخاصة. جوعي إليّ. جوعي لأن أشعر، لمرة واحدة في حياتي، بأنني محصنة ضد الانتهاك، وبأن أحدا لن يمزق بمخلبه حجب هشاشتي.

لقد بت أعرفُ بأنه من العبث أن أنظر إلى زواجنا، ومشروع طلاقنا، بمنأى عن سنواتي السبع التي قضيتها في ذلك السرداب. هذا ما كنت أحاول قوله لفارس وأفشل: لقد تزوّجتَ عجوزاً في عقدها الثاني، لقد سرقوا سنواتي الكثيرة التي كان يفترض بي أن أحياها وأنا غضة وفتية. لا أستطيع أن أكون زوجتك، إنني غير قابلة للاخضرار.

في الغرفة رقم 28، الدور الثاني، في شقتي الفندقية المتباهية بنجومها الثلاث والمحتفلة بنقصها الأبدي والمبتهجة بحقيقتها، مع علبتي ألبرازولام، جوارب، مرطبانات زجاجية مليئة بالقراطيس، وجهاز كمبيوتر، سوف أختبئ طوال حياتي. سوف أقرفصُ وأكتب..

السرداب

في جنازتي الأولى لم أبكِ

لم تكن المرة الأولى.

هربتُ من البيت لأوّل مرة وأنا ابنة تسع عشرة سنة. حدث الأمرُ دونما تخطيطٍ أو عناية. تعذرت الحياةُ فخرجتُ من البيتِ وسمّيتُ خروجي هروباً. وسمّيتُ هروبي خلاصاً، وسمّيتُ خلاصي موتاً. قلتُ لن أعود مهما حصل. لن أعود إلا جثة.

قدتُ «السوبارو» السوداء إلى أقرب فرعٍ أعرفه لمطعم «بيرغر كينغ»، واشتريتُ وجبة «سوبر سايز دبل ووبر» وحرصتُ أن يكون كل شيءٍ عملاقاً ودهنياً وفائضاً. دفعتُ ما علي، ثم قبضتُ على الكيس الورقيّ بيد وسطل البيبسي بيدٍ أخرى وقطعتُ الشارع إلى ثانوية البنات المتربعة على الرصيف المقابل والتي تخرّجتُ منها قبل سنتين. تربعتُ أمام البوابة وشرعتُ آكل.

في هذا المكان تحديداً، كنتُ أقف في نهاية كل يوم دراسي، أنتظر وصول أخي الكبير وأنا أتضوّر وأموت من الاشتهاء. أتنشق الرائحة الدسمة للزيت المقليّ وأفكر بعيدان البطاطا.

يبدو الوصول إلى الرصيف المقابل مستحيلًا في ظل الحراسة المشددة التي تفرضها المدرسة، فقد كانت الاختصاصية الاجتماعية تنتظر انصراف آخر الطالبات حتى تمضي - بضمير مرتاح - إلى بيتها، وقد جعلت مهمتها في الحياة هي التأكد من أننا لا نعبرُ الأمتار القليلة إلى المطعم دون مرافقة «ولي الأمر».

الفتيات الأكثر جرأة مني، ممن تطاولن على المحرّم وانتهكن التابوه من أجل شراء وجبة «ووبر» أو «تشيكن رويال».. هؤلاء الفتيات الباسلات والمتسقات مع رغباتهن، تم تعريضهن لجلسة تنكيل في اليوم التالي، إذ أجبرن على الوقوف في منتصف الساحة المدرسية طوال فترة الطابور، ومن ثمّ شهدنا جميعاً على ما أسمّيه «ثلاث دقائق من الجؤار المتواصل»، لأن الأصوات التي تصدرها الناظرة هي أكثر من مجرد صراخ. لقد كان الأمر مهيناً بشكلٍ مثالي لاصطناع «قصة» نتخذ منها «العظة والعبرة» من مصير الطالبات الخاطئات المتورطات بالرغبة.

لماذا لم نكن ننتظر وصول أولياء أمورنا إذن؟ لأن السائق لا يحتسب كولي أمر، لأن ولي الأمر لن يسمح لابنته بأن تتغدى خارج البيت، والمائدة هناك زاخرة بأطباق الأرز والمرق، ولأن للمحرّم لذته.

جلسة العقاب العلنيّ لم تكن تخيفني، ولم أكن لأمانع المجزرة الصوتية للناظرة ولا فضيحة العقاب العلني في الطابور، بقدر ما كنتُ أخشى أن يعلم أخي بالأمر وتمتدّ الأذرع الأخطبوطية للعقاب من المدرسة إلى البيت. في تلك السنوات كنتُ مقتنعة بأن السيئة بعشر أمثالها، وأن الحسنة بلا وزن.

أربع سنواتٍ ولم أعبر. لم أنتصر لرغبتي قط. لقد خذلتُ النداء المنبثق من باطني، واكتفيتُ بالوقوف، والشمس تثقب رأسي، أتذوّق «الووبر» في خيالي - أقبض عليها بيدي، تسيل عصاراتها دافئةً في فمي.

في ذلك اليوم الذي هربتُ فيه لأول مرة، اشتريتُ ثمرتي المحرّمة، وجلستُ عند بوابة المدرسة، أدرتُ لها ظهري وأكلتُ.. نكاية بالناظرة والمدرسات وأخي الكبير. لقد ثأرتُ لي.

خلال دقائق كنتُ قد أكلتُ جبلًا من الطعام الأمريكي البلاستيكي لكي

أطفئ به رعبي، صرتُ أثقل وأهدأ. مشيتُ عائدةً إلى سيارتي المركونة أمام المطعم وأنا أتساءل: والآن ماذا؟ في تلك اللحظة تدافع ما أكلته من داخلي، ملتهباً وكاوياً. كانت وجنتي ملتهبة وعيناي تتأججان بالدموع. جففتُ فمي بالمناديل والأكياس الورقية التي أحملها في يدي وأنا أجهش. لماذا لفظتني الثمرة المحرمة التي اشتهيتها طوال عمري؟

كان قد مضى عامٌ على حصولي على رخصة السوق، ولم أكن أعرفُ الشوارع. السوبارو سيارة السائق، سينتبهون إلى غيابها في أي لحظة. خفتُ أن أضيع، ولكن أكثر ما كان يخيفني أن تتحول محاولة هربي الفاشلة إلى فضيحة. لو أنني كنت جادة بشأن الرحيل لما حدث الأمر .على هذا النحو العشوائي، دون حقيبة ولا نقود ولا حتى جواز سفر

تقوّضت آفاق العالم أمامي، واصلتُ قيادة السيارة إلى الأمام، إلى الأمام دائماً وأنا أنشج.. أدركت بأنني أغش نفسي، ولكن العودة إلى ذلك المكان، إلى ذلك البيت، إلى ذلك السرداب! للحظة تمنيت لو أن سيارةً .تدهسني وأموتُ وينتهي الأمر، وفي تلك اللحظة اكتشفت الحل

لو متُّ فعلًا، سوف تنتهي جميع مشاكلي. لو أنني سلّمتُ بموتي فلن تكون تمضية الأيام الباقية من عمري بمثل هذه الصعوبة، سأتعاطى مع كل شيءٍ كما تفعلُ الجثث، وسيكون موتي سميكاً ولن يفلح العالم في .اختراقه

سرتُ على الطريق الدائري الرابع، حتى وصلتُ إلى الجابرية. انعطفتُ يميناً وسرتُ قليلًا داخل المنطقة حتى وصلتُ إلى محل لبيع الزهور، ولما لم يكن في جيبي إلا ثلاثة دنانير متبقية بعد وجبة الغثاء «السوبر سايز» التي أكلتها وتقيأتها في نصف ساعة، اشتريت الأزهار الأرخص: باقة من الأقحوان الأبيض البائت بسيط الشكل رديء الرائحة، وسرتُ

بسيارتي حتى حديقة الجابرية العامة، الفارغة إلا من بعض الآسيويين وعائلة سورية تفرش بساطاً على العشب وتأكل السندويتشات. مشيتُ في خطٍ مستقيم، كما لو كنتُ واقعة تحت وطأة نداءٍ خفي.

بحثتُ عن قبرٍ يلائمني، يلائمُ موتي المجازي.. وفيم أنا أمشي لعنتُ حذائي غير المريح وقراراتي غير المدروسة. في تمام الفراغ الرملي بين نبتتي صبّار، حفرتُ حفرةً ودفنتُ فيها بتلات الأزهار البيضاء، سمّيتُ تلك البقعة قبري واتفقت مع نفسي على موتي. لقد متُّ وارتحت وانتهى الأمر.

في جنازتي الأولى لم أبكِ، وفكّرتُ: لو تسنى لهم أن يعرفوا بأمر موتي لما بكوا أيضاً. لقد انتهيتُ من مراسم دفني بشعورٍ غريب بالارتياح، لن أشعر بالألم بعد اليوم لأنني ميتة.

عدتُ إلى البيت، لم يكن أحد قد عرف بأمر هروبي، ولا عودتي، ولا موتي أيضاً. بالنسبة لهم لم يحدث شيء، أما أنا.. فقد عرفتُ بأن بعضي الذي مات، والذي دفن بين صبارتين، دون دموع ولا بلبلة، هو شيءٌ لن يتسنى ليَ استرجاعه أبداً.

الحفرة

.انقلبت السيارة وانقلب معها العالم

يمكن للحكاية أن تبدأ من هنا. من لحظة الحادث، عندما صار للواقع أنياب كثيرة، وأنا ببيجامتي الوردية أغمسُ رقائق البطاطا بالشطة وأتفرج على التلفزيون. كنتُ في الثالثة عشرة .من عمري وكان الموتُ قد نسيني

كانت الأمور على ما يرام ثمّ بدأ الكبار يتهامسون، يجففون دموعهم بأكمامهم ويتعانقون، يتداولون بأقل قدرٍ ممكن من الضجة خبر موت والديّ. حتى تلك اللحظة كنتُ أغمس سبابتي .في الشطة وأمصها، وكأن كارثة لم تحدث

ما بهم الكبار؟ لماذا يتوافدون إلى البيت ويبكون؟ ولماذا يهمسون هكذا؟ ذهبتُ أتلصص، تسللتُ حبواً، اختبأتُ خلف الباب نصف الموارب، أصختُ السمع، وتعرّفتُ على كلمات جديدة: جثمان، مغيسل، موت سريع، طريق عرعر. سمعتُ حوقلات كثيرة، شهقات ونشقات وأصوات .انتزا ع المناديل من العلب. لم أكن أعرفُ - حتى تلك اللحظة - بأن الفجيعة تخصّني أكثر منهم

عندما همّت امرأة عمي بإغلاق الباب انتبهت إلى وجودي خلفه فشهَقتْ. ولوهلةٍ خلتها سوف توبخني على عادتي السيئة في استراق السمع، ولكنها لما رأتني غطت فمها بكفيها وأجهشت: حبيبتي فطومة! هكذا دون مناسبة، تسمّرتُ في مكاني، أنظر إليهم، وأسمع أشياء بلا معنى: هل عَرَفتْ؟ لا. وماذا ننتظر؟ ننتظر صقر. الله يكون في العون. إحدى القريبات تطلب مني أن آتي معها إلى فوق. لماذا؟ أريد أن أتفرّج على الكبار وهم يبكون ويفقدون قوّتهم. تعالي نلعب فطومة، هل عندكِ ألعابٌ تريني إياها؟ إنها امرأة مجنونة، هل تظنني في الخامسة؟

ثم وصل صقر، أخي غير الشقيق، أخي الكبير، بفارق ست عشرة سنة، مربوع القامة، عريض البُنية، ضخم اليدين، أحمر الوجه، كث اللحية، رقم 11 بين عينيه وثلاثة خطوط تتموّج في جبينه. احتضنه الأعمام.. البقا براسك، عظم الله أجرك، الله يرحم أباك. بابا؟ سألتُ.. بابا مات؟ اعتصر البكاء وجوههم، أوشك أن يحط على وجهي. مال صقر بجذعه، نظر إليّ بعينيه الحمراوين. أبوك وأمك يا فاطمة. قولي الله يرحمهما. وماما بعد؟ الله يرحمها. ماما وبابا؟ الله يرحمهما. الله يرحمهما؟

سقطت في الحفرة. والحفرة التي سقطتُ فيها موجودةٌ في داخلي، الحفرةُ هي أنا، السقوط هو أنا، السقوط لا ينتهي.. ركلتُ، ضربتُ بقبضتي. ضمني بقوة، قال ششش، اهدئي،

.اهدئي، لا تخافي لن أتركك. سوف تأتين معي، سوف أهتم بك

نعم. سوف يهتمّ بي جداً، سوف أصير شغله الشاغل، سوف يهتمّ بي إلى حدّ تفتيتي من الداخل.

بيجاما ليلة الدخلة

في ليلةِ زفافي نمتُ وأنا أرتدي بيجاما قطنية سخيفة، بنطلون أزرق مبكّر بالأبيض وبلوزة بيضاء، في منتصفها زهرة تيوليب صفراء تبتسم وتغمز. بيجاما سخيفة ومريحة وتفي بالغرض. تقولُ لا تفكّر في لمسي.

لم أكن راغبة بالتعرّف على الرجل الذي صار زوجي، ولا بهدهدةِ رعبه من الطريقة التي تمّ فيها الزفاف، عندما تمّ دفعي إليهِ، باليدِ الغليظة لأخي الكبير، وهو بالكادِ يقول: مبروك.

عندما توقفت طوابير السياراتِ في الخارج، ظنّ الضيوفُ بأنهم أخطأوا المنزل، وكانوا يتساءلون: أين الدّفوف والضيوف، أين الزغاريد وأين لمبات الزينة؟ فتحت لهم الخادمة السيلانية الباب، وهي تشير لهم للدخول إلى غرفةِ الجلوس. هناك جلس فارس، وأمه وأختاه وخالتاه وعماته الثلاث وبضع من بنات عمومته، بانتظار أن تبدأ «الحفلة». أمّه أرادت أن تتأكد فسألت: الملكة اليوم مو؟ وأخذوا جميعاً يراجعون التاريخ في رؤوسهم وفي أجهزة هواتفهم الخلوية، وشعرت الأختانِ بالضيق من تسريحات الشعر الكبيرة التي تنطح السماء إلى فوق، من صيغة المبالغة في الفرح مقابل انعدام المبالاة الصارخ الذي أظهره سكان البيت، بيتنا. دقائق ونزلت وضحة، أخبرتهم بأن العروس ما زالت تستعد. دقائق أخرى ودخلت بدرية، متدثرة بعباءتها، وطلبت من فارس أن يجلس في الديوان، لأن صقر سيوافيه هناك بعد دقائق.

لم تكن مجرد دقائق. انتظر فارس لما يقارب الساعة، عندما فُتح الباب ودخل صقر، وتوسّد مساند السّدو إلى جانبه وشاركه مصمصة الحب الشمسي، متجنباً أي حديثٍ من شأنه أن يفضي إليّ، أنا ذبيحة العرس

.الهزيلة

نصف ساعة أخرى وكنتُ قد صعدت إليهم، مثل ميّتٍ يبعث من قبره، ذاب جسده في التراب كثيراً. كانت بدرية قد اشترت لي بدلة من الشيفون الأبيض، أقرب شيء ممكن لفستان زفاف، في ظل الغيابِ السافر لكلّ أشكال الفرحِ. دمدم الضيوف باستنكار لأنني أتيتهم بلا زفة ولا زغاريد، حاملة حقيبة ملابسي الثقيلة بالكاد.. أسرعت تشاندرا وانتزعتها من يدي. نظرتُ في الجوار أبحث، أين هو الرجل الذي صار زوجي؟

احتضنتني بدرية وهي تأخذ بيدي إلى الديوانية لأرى العريس. لم أكن أفكر في فارس، كنتُ أفكر في صقر، ما الذي سيقوله لو رآني بفستان الشيفون الشفاف؟ شعرتُ بحرارة جسدي، شرعت النساء في الزغردة، انضمّت إليهم بدرية. وضحة أشاحت بعينيها واكتفت بأن تمشي في آخر الرّكب. عند باب الديوانية دفعتني بدرية للدخول. لم أنظر إلى فارس، وصقر لم ينظر إليّ. مبروك. قال وهو يحدّق في السجاد.

هذه إذن هي تفاصيلُ حفل زفافي، بهدوئه المشبوه وصمته الجنائزي. صعدتُ إلى الليموزين بجانب فارس. تلامست أيدينا بالخطأ فسحبتُ يدي إلى داخلي، أدخلتها في أكمامي. نظر إليّ بدهشة، أشحتُ. إلى الهيلتون. قال للسائق. طوال مسافة الطريق كان ينظر إلي، إلى أظافري المطلية وهي تختبئ خلف أكمام الفجيعة.

دخلنا الجناح الفندقي. كان جميلًا جداً. الأريكة تلتفّ على نفسها في الزاوية، بلونها البيج ووسائدها البنية والحمراء والزيتية. غطاء السرير أبيضٌ قطني، مثل غيمةٍ طافية، شاشة تلفزيون قياس 22 بوصة، مطبخ تحضير أسودُ صقيل. النوافذ تمتدّ إلى الأبد. شعرتُ بدوار، أسدلتُ الستائر جميعها والتفتُّ إليه، جالساً على طرف السرير المزدوج، يتملى

فيّ بكثيرٍ من اللا فهم. كان يجاهد لأجل التغاضي عن إحساسه بالغبن. غالب نفسه وابتسم ابتسامة صغيرة. في تلك الابتسامة اكتشفت وسامته. كان يجدر بي أن أبتسم.

- أنتِ جائعة؟

- لا.

- حجزتُ لنا على العشاء.

- أنا متوعكة قليلًا.

- مم؟

ترددتُ قليلًا ثم قلتها:

- إنه موعدي الشهري.

احمرّ قليلًا، وأجاب بتهذيب:

- سلامتك. لا داعي للخروج، نأكل في الجناح.

ورفع السماعة ليطلب العشاء. وكنتُ أنا في الحمّام، أتأمل - بكثيرٍ من اللا تصديق - الحجم الخرافي للجاكوزي، بعد سبع سنوات من الاستحمام واقفة. أقفلتُ باب الحمام عليّ، وجلستُ على الحافة الرخامية الباردة. وكانت المرآة أمامي تبتسم: يا لكِ من شيطانة يا فاطمة! تحبين الجاكوزي أكثر من رجلكِ في الخارج! ضحكتُ.. وأنا أمسح بيدي على السطح الصقيل الأبيض الرائع لهذا الشيء المتقن في جماله، والذي سيأخذني في جوفهِ خلال دقيقة. فتحتُ الصنبور، وتدفق شلال الماء الحار، وامتلأ المكان بالبخارِ وعبق اللافندر، أفرغتُ كل زجاجات الصابون في الحوض وصنعتُ كثيراً، كثيراً، من الفقاقيع، غمستُ نفسي هناك لساعةٍ، لساعةٍ

.كنتُ ألعب، وكنتُ الطفلة التي كنتُها

عندما خرجتُ من الحمّام وأنا أجففُ شعري بالمنشفة، كان يجلسُ على الأريكة المقابلة للتلفزيون، يبحثُ عن فيلمٍ يتفرّج عليه، ولمّا رأى هيئتي "اللا عرائسية" وبيجامتي الساذجة ابتسم بتكلّف وأطرق برأسه. لقد فهم .الرسالة جيداً

برد العشاء! قال معاتباً، وهو يشير إلى طاولة العشاء بأطباقها المعدنية المغطاة. جلستُ على الكرسيّ المقابل، أكلتُ بعض عيدان البطاطا. أمعنتُ النظر إلى اللازانيا ولم أتجاسر لآكل. كان وجود هذا الرجل الذي صار زوجي يقلق معدتي. بالكاد أكلتُ، وبالكادِ أكل، ولم يكن أيّنا سعيداً .بالآخر، وكان الصمت هو سيّد المكان

شكرتهُ وذهبت إلى الحمام لكي أنظف أسناني. عندما خرجت وجدته قد دفع الأريكة الطويلة أمام شاشة التلفزيون أكثر قليلًا، ورصّ عليها بعض الوسائد: تعالي هنا، بجانبي. نتفرّج على الفيلم قليلًا ثم ننام. قالها وهو .يفرك راحة يده بسطح الأريكة إلى جانبه

.أنا متعبة.. سأخلد إلى الفراش -

قلتُ ذلك وأنا أدفنُ نفسي تحت اللحافِ، وفي سبيل مزيدٍ من الوقايةِ لففتُ اللحافَ عليّ، أطفأتُ جسدي وأقفلتُ مسامي ونأيتُ بي إلى .داخلي، أنا دودة أرض

بردانة؟ -

.يمكنك أن تجد لحافاً آخر في الدولاب. تصبح على خير -

:ساد صمت، ثم جاء جوابه

- وأنتِ من أهله.

مساء اليوم الثالث

يده تحاصر عنقي، تكاد تدقّه، ينتصبُ خلفي مثل جدارٍ مستحيل، ينزل بي إلى السرداب.

انقضى العزاء وانفضّ الجمعُ، ودّعتُ المبيت في بيت عمي وانتقلت معهُ، بعيداً إلى هنا(2)، نزولًا إلى الدركِ الأسفل من الواقع. أربع عشرة درجة هي كل المسافة الفاصلة بيني وبين العالم.

كان قلبي ينتفضُ هلعاً مع كل درجة تأخذني إلى الأسفل، وأنا أرى بقع الرطوبة تتسع على بشرةِ الجدار، والعفن الأخضر يطلّ من الصّدوع ويتوعد بي. كان السواد دامساً، والرائحة تفضح التفسُّخ البطيء لمكانٍ مات منذ زمن وما زال يتحلّلُ على مهله. ضغط صقر على أزرار الإضاءة فارتعش الضوءِ الأزرق في زجاجات النيون الطويلة. كان ثمة أسلاك مثبتة على الجدران بورق لاصق، وبدا وكأن المكان قد لفظ أمعاءه. ترامت أمامي المساحة الصحراوية الموحشة لما سمّاه غرفتي، وهو يدفعني برفقٍ من كتفي إلى المكان الذي شرّع فاه لابتلاعي.

قال لي: «من الآن فصاعداً ستعيشين معنا، ستكونين ابنتي بدلًا من أختي. فأنتِ صغيرة على أن تكوني أختي أصلًا، ويمكنكِ أن تكوني أختاً لأبنائي».

امتلأ قلبي بالكمدِ وغامت عيني. هذا السرداب غرفتي؟ أخاف السراديب! قال مضطرّون، ليس عندنا غرف زائدة. كانت عنده غرفة زائدة في الطابق الثاني ولكنه ارتأى أن يملأها بالأجهزة الرياضية.

شرعتُ أنظر. السجاد زيتيّ داكن، يخدُش الروح من قاع القدم، وعلى

السقف فوق رأسي بقعٌ صفراء تتسع في البياض العدمي، كانت وحدة التكييف تئزُّ بإلحاح، أطفئها فتتعفن الغرفة في خمس دقائق. ولأنه سرداب، فهو بلا نوافذ، لا يطل إلا على قبحه الداخلي، ولا يعرفُ من العالم إلا تأملاته النابتة من أحراش الظلمة. الهواء مثقلٌ برائحة النفثالين، الكرات البيضاء مرشوشة هنا وهناك، وهو الأمر الذي يعني أنني لم أكن وحدي، كنتُ دخيلة على يوتوبيا القوارض، أجيال وأجيال من الصراصير والفئران دشنت حضاراتٍ وحضاراتٍ هنا قبل أن آتي، بقرعِ نعليّ وتشنّجات رعبي، لأزاحمها المكان.

هذا هو المكانُ الذي سأمضي فيه سبع سنواتٍ من عمري. مقارنةً بغرفتي الوردية في بيت والديّ، كان السردابُ زريبة، وقد بكيتُ لأيامٍ طويلة، محتضنة صورة والديّ، ليس على وفاتهما فقط، بل على وفاة سجاد غرفتي، وثريّاتي الصغيرة، وورق جدراني المشجّر، ورائحة الفراولة في هواء غرفتي، وأشياء كثيرة.. لا أعرف لماذا صار عليّ، وقد فقدتُ والديّ دفعةً واحدة، أن أفقدها أيضاً.

أين لعبي؟ أشار برأسهِ إلى كومةٍ هزيلة مما تبقى منها. قال تخلّصنا من بعضها. يقصد معظمها. ولم أسألهُ لماذا، لأنني حتى تلك اللحظة كنتُ أخاف من كرشهِ وبشرته الحمراء. ولكنه كان كريماً بما يكفي لكي يشرح لي السبب. وأسهب في الإيضاح، فحدثني عن حرمة اقتناء الدمى، لأنها «صور» تمنع دخول الملائكة، وخاصة «باربي الفاجرة» التي تزرع أفكاراً فاسقة في عقول البنات. وهكذا، أضفتُ في معجمي كلمتين جديدتين: فسقٌ وفجور.

باستثناء غطاء سريري وملابسي، لم يسمح لي بالمحافظة على حياتي، لقد رحلت الأشياء الجميلة كلها دفعة واحدة، أمي، أبي، ألعابي وغرفتي، دبدوبي القطني وبيت الدمى الخشبي الكبير. لقد مات كل شيء، كل

شيءٍ إلا أنا. حفرةُ اليتم تمعنُ في امتصاص روحي. لا تقلقي، ستعتادين المكان، قال ذلك ثم وضع يده على كتفي، وكانت يده ثقيلة، ..كالفرا غ الذي يشدّني إلى تحت

2

الصورة

.لا لستُ بخير

هذا ما قلتُه لصورة أبي وأمي المخلوعة من بروازها. الصورة المجعدّة، المصفرّة، التي تكبرني بعشرين عاماً، والتي التقطت في ليلةِ زفاف والديّ، بين جذوع النخل المحملة بلمبات الزينة، في الحوش الواسع لبيت .جدّي، في زمنٍ بدا بسيطاً وخالياً من المنغصّات

كان أبي في الصورة يبتسمُ في كل شبرٍ من جسده، فقد ظفر بزوجة جميلة، تصغره باثنتين وعشرين سنة، وتبدو حييّة كما ينبغي، وهي غضة وطرية وبكر وملائمة لأن تكون زوجةً للعمرِ كله، بعد أن توفيت امرأته وتركت له ابنين لا يعرف كيف يربيهما، لأن التربية هي «عمل النساء» كما يعتقد. كان عقالهُ يميلُ قليلًا إلى اليمين، ولكن من سيلاحظ ذلك، وعلى وجهه كل هذا الفرح؟ أما أمّي، فقد عقصت شعر رأسها وزيّنته بعقدٍ من اللؤلؤ، وقد ردّدت عليّ مرارًا بأنه لؤلؤ طبيعي، حيث لا تشبهُ لؤلؤةٌ أختها، وكل واحدة تحمل تخصّرات وتجعّدات وانثناءاتٍ تخصّها وحدها، كانت تقولُ لا يمكنكِ الحصول على عقدٍ كهذا إلا في البحرين. المكان الذي تجيء منه، مثل حوريّة بحرٍ مجنونة، قررت أن تخوض تجربة الزواج من .أرمل على سبيل المغامرة

في إحدى المرات، كنتُ أتفرج على صور العرس، مستلقية على سرير والديّ المزدوج، أراقصُ ساقيّ في الهواء من فرط المتعة، قالت لي: إذا تزوجتِ سنزيّن شعرك بالطريقة نفسها، ثم ستفعلين الشيء نفسه لابنتك، .وسيصير تقليداً عائلياً

لو تعلمُ أمي كيف تزوّجتُ، دون أن ينتبه أحد، كما لو كانوا يتسترون على

فضيحة. لو تعلمُ أيضاً بأنني عقيمٌ كأرضٍ بوار، لم أنجب ابنة ولا ابناً ولا حتى نصف ابن.. أتساءل كيف كانت لتشعر؟

في صورة أخرى، غير هذه، يظهر وجهان آخران. صقر وفهد، أخواي غير الشقيقين. صقر في الرابعة عشرة، مدوّر كالكرة، يبتسم في فمه ويعبس في عينيه. وفهد ذو العشر سنوات، الهزيل الحزين، قتلته الحمى بعد زواج أبيه بأشهرٍ أربعة.

زوجة أبي المتوفاة أجهضت كل البنات، وأنجبت ولدين اثنين، قبل أن تقضي بالفشل الكلوي. تنتهي حكايتها هنا لكي تبدأ حكاية أخرى. كيف يمكن لفتاة في الثامنة عشرة من عمرها أن تربي الفتى العبوس الذي يصغرها بأربع سنواتٍ فقط؟ لا أعرف كيف فعلتها.

عندما وُلِدتُ كانت أمي في العشرين، وصقر في السادسة عشرة. عندما بلغتُ السنتين كان قد سافر للدراسة. عاد بعد سنة واحدة، بلحيةٍ طويلةٍ وثوب قصير. الرقم 11 بين حاجبيه بقي على حالهِ. اضطر أبي إلى دفع ما تكبدته الدولة من مصاريف لابتعاثه خلال العام. اكتفى بشهادة التعليم التطبيقي، اشتغل مسؤولًا للأرشفة في وزارة الداخلية، في سردابٍ سحيقٍ آخر يضم آلاف الملفات.

في سن الواحد والعشرين قرر صقر أن يتزوج. كنتُ في الخامسة من عمري. الأيام التي عشناها، أنا وهو، تحت سقفٍ واحد لا أتذكر منها شيئاً. تزوج من بدرية وأنجب وضحة التي تصغرني بثلاث سنوات. واصلت امرأته مهمة إنجاب الأبناء، المزيد والمزيد منهم بناء على طلبه. هناك دائماً متسع لطفلٍ آخر يقوم بتربيته بالشكل الصحيح من أجل النهوض بالأمة. هذا هو الهدف من الأمر برمّته.

هذه الحكاية توجد في صورة أخرى، أما هذه التي تخصني، فهي تضم

أبي وأمي فقط. أبي الأربعيني الذي تطفر الغبطة من عينيه، وأمي التي بالكاد ترفع عينيها إلى العدسة، وبالكادِ تبتسمُ، بفستانها ذي أكمام الدانتيلا الطويلة، وأزرار ثوبها اللؤلؤية، وباقة «المشموم» في يديها.

لا بدّ وأنهما عاشا متناغمين، أفكر في ذلك الآن وأنا أتملى في زواجي الموشك على الانتهاء. لا بدّ وأنهما حظيا بزيجة استثنائية حتى يستحقا هذه النهاية، أن يموتا معاً، في حادث سيارة على طريق عرعر، بعد عودتهما من الأردن لإتمام صفقة شراء لسبعِ أراضٍ لا يتجاوز سعر الواحدة ألف و700 دينار. هذه هي صفقة العُمر! قال أبي، وهو القادر على تشمم الصفقات من بعيد. أبرم صفقة العمرِ فانتهى عمره تماماً.

جمهورية الأخ الكبير

كنا أخويْن غير شقيقين، ولكنني كنتُ يتيمةً وحدي، وقد تلقّف صقر يُتمي مثل هديّة منزلة، فقد صار بوسعه أن يكون مسؤولًا عني، أن يجعل مني مشروعه الإصلاحي، كي يمضي قدماً في عملية تقويمي.

وحتى قبل أن يتعرّف علي، كان مقتنعاً بأنني ملتاثة، وفي أحسن الحالات: مكسورة، وبحاجة إلى إصلاح. كان مختلفاً مع أبويّ وينكرُ عليهما أشياء كثيرة: سماع الموسيقى، شراء الباربي، تزيين المناضد بالصور الفوتوغرافية، الاحتفال بأعياد الميلاد، حضور الأعراس في الفنادق.. لقد كان صقر ماضياً في مهمة نبيلة معي، اسمها: إنقاذ ما يمكن إنقاذه.

أنا ضحية الحُب المفرط، اتباع الهوى وضياع البوصلة. يعتقد صقر بأن عليه أن ينقذني من ضلالي، الآن وقد آلت إليه السلطة، سلطة أن يكون - وحده - وليّ أمري، أن ينتقم مني، وأنا في الثالثة عشرة من عمري، لأنني أختهُ غير الشقيقة.

كان يتردّدُ على غرفتي طوال الوقت، بصفتي ابنته الجديدة التي يعتزم تصحيح اعتوارها، كما لو أنني أسيرة، كما لو أنه جلاد. يضعني تحت مجهر المراقبة لكي يتحقق من حسن جريان في هذه القنطرة الخرافية التي يقوم فيها بتأهيلي حتى أصير جديرة بجنته - بأن الباربي لم تلوث رأسي بالفجور، وبأنني أزلتُ صور والديّ من المنضدة لكي لا تطرد الملائكة، لا أرسمُ الفراشات في كرّاستي، لا أقرأُ قصص «المكتبة الخضراء» التي تملأ رأسي بخرافاتٍ ضارة عن بجعاتٍ تضحك وأمراء يتحولون إلى طيور وجنيات فاتنات يخرجن من ثمار الليمون، الحكايات التي كان يسمّيها: لغو الحديث.

لا أعلك اللبان في مكان عام، لا أجلس في المطاعم إلا في الكابينة العائلية، لا ألبس البنطلونات، لا أسمع الموسيقى، لا أتفرج على الأفلام، لا أقتني كتباً «لا تنفع»، لا أجلس وحيدة، لا أذهب إلى صالون تجميل، لا أزور إلا بيوتاً بعينها. الأصل في الأمور المنع والإباحة هي استثناء.

كان يحشوني بالواقع حشواً، واقع يتمي ووحدتي، والحياة القاحلة التي قرّرها من أجلي. وفي كلّ مرةٍ كان ينتزع ريشة أخرى من قلبي، ويسرق مني سماواتي الكثيرة، كان يذكّرني بأن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر، وأن القابض على دينهِ كالقابض على الجمر.

كنتُ طفلة في طور النضج، توشك أنوثتها على الاكتمال، ولذا ينبغي عليه - وهو الأخ الكبير

المسلّط على حياتي مثل لعنة - أن يحضرني للقيام بدوري «السماوي» و»المقدس» في هذا العالم. أن يجعل مني زوجة صالحة، ودوداً ولوداً، تنجب المزيد والمزيد من الأطفال - بنيّات يرتدين الحجاب منذ الرابعة ويتبعنني كالكتاكيت المصبوغة، وأولادٌ يذهبون إلى مخيّمات «براعم النور» و»السراج المنير»، يتباكون على سقوط الأندلس، يفتحون الفتوحات الوهمية وينتظرون تلك اللحظة - التي ستكون وبالا على العالم - عندما تؤول إليهم السلطة لكي يمعنوا في تدمير كل شيء.

كل شيء سبق وتقرر من أجلي، وكل ما عليّ فعله هو أن أتبع الإرشادات الصحيحة، لكي أفعل الأمر على النحو الصحيح. خطوات عملية بسيطة لا تتطلب الكثير من التفكير. في الحقيقة هي تتطلب ألّا تفكر أبداً، ومهارتك في الأمر تتعلق بمدى قدرتك على ألا تفكر.

ولكي أكون جديرة بمهمتي المقدسة هذه، سيكون عليّ أن أتثقف كثيراً. أن أقرأ المزيد والمزيد من كتيّبات أهوال القيامة وعذاب القبر و1000 سؤال وجواب للنساء ونحوِه. تلك هي الأشياء الصحيحة الوحيدة الملائمة للقراءة، إضافة إلى قائمة طويلة من الأشرطة المليئة بالمواعظ والصياح والبكاء لأعالج بها لوثتي الفكرية القديمة.

في الأسبوع الأول الذي عقب الحادث، حين تكشّفت ملامحُ اليتمِ وتفتحت كجرح، كنتُ أدفن نفسي تحت اللحاف وأنتحب، متسائلةً عما إذا كانت بشاعة حياتي التي لا تصدق هي محض كابوس. أقرصُ نفسي وأصفع وجهي. الكابوس لا يتزحزح.

في زيارته التفتيشية وجدني أبكي تحت الوسائد: هل تبكين يا فاطمة؟ أبوك وأمك لا يحتاجان دموعك بل يحتاجان دعاءك. وبدأ يحدثني لساعةٍ كاملة عن ضرورة أن يرضَ المؤمنُ بالقضاء، وأن الميت يعذب ببكاء أهله، وأن كل دمعة أذرفها هي وبالٌ على والديّ. كانت كل كلمة يقولها تحجّر الدموع في عيني، كل دمعة جمرة.

كان يتحدث بآليةٍ مفرطة، في الحقيقة كان يكفيه أن يفتح فمه لكي تتدافع الكلماتِ من فمه، مرتبة ومنظمة، كل كلمة تعرفُ مكانها الصحيح، وكأن الكلمات كانت تنتظرُ في داخله طوال الوقت، وكأنها تعبت من الانتظار، وكأنها لم تصدّق أنه فتح فمه، أنه فكّر باستحضارها حتى مثلت هناك، طافية في الهواء، مثل مارد أخضر.

كانت تلك هي المحاضرة الدينية الأولى التي أعطانيها صقر، على سبيل التربية، في حين كان بوسعهِ أن يحتضنني وحسب.

فستان زفافي

في صباح اليوم التالي فتحتُ عينيّ ورأيتُ ستائر غرفة النوم الفندقية، بلونها السكّري الناعم، تؤطر وجه النافذة. الستائر الباهية والفارهة، المخرّمة والغامضة، ستائر الدانتيلا الرائعة، الأنثى بشكلٍ مستحيل، كانت أول شيء رأيته في ذلك الصباح الذي أصبحتُ فيه امرأة متزوجة، عذراء، وملتفة بلحاف السرير مثل يرقانة.

ستائر الدانتيلا قالت صباحُ الخير، قلتُ صباح النور، صباح النور يا ستائر الدانتيلا. أنتِ جميلة جداً. هل نمتِ جيداً؟ نعم شكراً لكِ، نمتُ نوماً مريحاً، هذا السرير غير معقول! يسعدني ذلك، شكراً لكِ يا ستائري الرائعة.. هكذا تبادلنا المجاملات، ثم صمت كلانا، ستائر الدانتيلا وأنا، ورحتُ أمعنُ النظر إليها، وهي بدورها أمعنت النظر إلي. مددتُ يدي لألمسها، أتفحص القماش المخرّم فاره الجمال، المكتفي بذاته، الذي تتدفق من نقوشه الإيحاءات الأبدية، كم هو فاتن هذا القماش! كم هو فاتن.

هكذا قررتُ بأن هذه الستائر هي فستانُ زفافي.

ثمّ.. عندما تناهى إليّ الصوتُ العميقُ لأنفاسه، التفتُّ ورائي ورأيتهُ، ينامُ كطفل، كان وسيماً، أزج الحاجبين برموشٍ غزيرة، سمرته خفيفة وعظمتا وجنتيه بارزتان، شفتاه داكنتان. هل يدخّن؟ له أكتاف عريضة وصدر شاسع وقامة فارعة. إنه مثالي هذا الفارس، باستثناء أنه لم يكن يوماً جزءاً من أحلامي.

أعجبني وأخافني، بدا حقيقياً أكثر من قدرتي على التصديق. هل تزوجتُ هذا الرجل حقاً؟ ترى من يكون؟ وبعد لحظات لم يكن في رأسي إلا فكرة واحدة:

- ينبغي عليّ أن أهرُب من هنا!

على طاولة التضوّر

على طاولة الطعام، كل يوم، تبدأ جلسة المديح، يأخذ الجميع جرعتهم اليومية من التمجيد والتصفيق ويمضون منتشين. الجميع إلا أنا.

تبدأ الجلسة بالطريقة ذاتها، صقر يسأل أبناءه عما فعلوه اليوم، يثب الأبناء للرد، ينخرطون في حوارٍ مسرحي تدربوا عليهِ مراراً. أبلة العربي معجبة بموضوع التعبير. اختاروني للمشاركة في برنامج «مع الطلبة». أبلة وفاء تمدح تلاوتي.. كانت جلسات المديح هي طريقة صقر المثلى في إقناع أهل بيته بأنهم أفضل من غيرهم، بأن الله قد آثرهم على خلقه بأن منحهم امتياز الانتماء إلى هذا البيت الرباني. بيته هو. بيت الله المختار.

في أعمقِ جرحٍ من جراحاتِ يتمي، كنتُ أتابع الحوار المسرحي الدائر بين الأب الفخور وأبنائه الأكثر فخراً، الكلّ يتباهى بالآخر ويردّد عليهِ فضائله، وأحس بأيديهم تمتد إلى أعماقي وتكشطُ الوجه الجاف عن جرحي وتفجّر مكامنه. لقد أردتُ - في كل ذرةٍ من جسدي - أن أدخلَ إلى المشهد وأصير جزءا منه، أن ألج البقعة المباركة من الحب والرضا، من أحد ثقوبِ وحدتي، ووجدتني أنصتُ إلى حواراتِ الطاولة بأعين مشرّعة حتى أقصى تخوم الفاجعة، وأتضوّر في قلبي.

مع مرور الوقتِ صرتُ أتظاهر بالصمم، ثم أمعنتُ بالتظاهر حتى أصبتُ به فعلا، وكانت الأصوات النابتة من أفواههم تتحول إلى طنين، العالم يطنّ وأنا أمضغ. عرفتُ بأنه يمكن للمرء أن يعطل حواسّه لو أراد. وهبني ذلك خلاصاً ما، وبقدر ما كان الصمم يمعن في ابتلاعي كنتُ أغوص في فضاءٍ شفيفٍ. بعد سنوات عرفتُ بأن هذا السديم الأزرق هو الشعر.

في إحدى المرات حاولتُ الدخول معهم إلى لعبة التباهي. جلبتُ معي ورقة اختبارٍ الرياضيات وأنا سعيدة بالدرجة التي أحرزتها بعد شهورٍ من التدهور الدراسي التي تلت الحادث. طويتُ الورقة وخبأتها في جيبي وأنا أنتظر بكثيرٍ من الجوعِ أن ينظر إليّ، ولكنه لم يفعل. عندما فرغ من الكلام تجشأ ونفض يده فتطايرت حبات الأرز على الطاولة ونهض وهو يحمد الله ويمسح أسنانه بلسانه.

إنه لا يهتم بي إلا إذا أراد أن يكتشف فيّ «خطأ» جديداً. إنه لم ينظر إلي طوال الوقت. صقر؟ هلا. أخرجتُ الورقة من جيبي ومددتها له. 17.5 من 20. تُوُفّيَ والداي منذ تسعة أشهر وهذه أفضل درجة أحصل عليها منذ انقلبت السيارة وانقلب معها العالم، إنني أطرق بكلّ

.يأسي على أبواب جنتك السعيدة، قل لي شيئا حلواً أتزوّد به قبل أن يغلبني القبح تماماً

وش ذا؟ -

.اختبار رياضيات -

جايبة 17.5 من 20؟ -

.ايه -

أفااا.. ليه؟ -

كهرباء المفاجئة تشلّ جسدي، ضحكة تسرّبت من فم وضحة.. "ششش.. عيب!" همست بدرية. وضع يده على كتفي: شدي حيلك المرة الجاية. أفتح فمي بصعوبة وأسأل: 17.5 من 20 مو زين؟ لا مو زين. ليش مو زين؟ يسأل أبناءه: شرايكم يا أولاد، 17.5 من 20 زين ولا مو زين؟ مو زين! ليش مو زين؟ يرفعون أياديهم كما لو كانوا في صفٍ مدرسي. أنا! أنا! أنا! يتدافعون للإجابة. أجوبتهم غير متوقعة: الأمة تحتاج إلى أبناء مجتهدين، الله يحب إذا عمل أحدكم عملًا أن يتقنه. كلام عظيم، كلام جميل جداً، ولكن كل ما أردته هو أن أسمع كلاماً حلواً، نوبة المديح .تحولت إلى جلسة إدانة. طويتُ الورقة مراراً في يدي، طويتها حتى اختفت

بعد ذلك اليوم لم أجتهد كثيرا في منحه المبررات لكي يعجب بي. ساءت الأوضاع في المدرسة. وقوفي في مؤخرة الفصل طوال حصة الرياضيات لأنني نسيت جدول الضرب للرقم (6)، مدرسة التربية الدينية التي ضربتني بالمسطرة على باطن يدي لأنني نسيتُ إحضار حجاب .رأسي. كانت المدرسة تتحول في كل يومٍ إلى سردابٍ آخر

مع التقييم الربع السنوي عندما استلمتُ شهادتي ذات الرايات المنكسة، قمت بتزوير توقيعه حتى لا يعلم بأمر درجاتي المتردية، أعدتُ الشهادة إلى مشرفة الفصل في اليوم التالي وأنا أظن بأنني نجوتُ من التشهير، بعد ساعتين كانت وكيلة المدرسة تقفُ على باب الفصلِ وتطلب الطالبات الواردة أسماؤهن في قصاصة الورق الصفراء. كان اسمي في تلك الورقة، ورقة .العار

تم اقتيادنا كقطيع من الأكباش ونحنُ نرتجفُ من الذعر، اقتادتنا إلى مكتبها وبدأت تصرخُ في وجوهنا حتى انفجرنا بالبكاء. لا أحد يستطيع مقاومة وجه "السّت غنيمة" وهي تصرخ على بعد أربعة أصابع فقط من أنوفنا، أخبرتنا بأنها اتصلت بأهالينا وأبلغتهم بشأننا، وأن من .تكرر هذا التصرف سوف تفصل من المدرسة لثلاثة أيام

عدتُ إلى البيتِ وأنا أتساءلُ كيف سيتصرف صقر بشأني، فلم يعد الأمر يقتصر على درجاتي المتدنية، بل على تزويري لتوقيعه الخاص.

توقعتُ توبيخاً شديداً، جلسة هجاء وتشهير على طاولة الطعام. تعالوا ننتقد فشل فاطمة الدراسي، تعالوا نذمّ أخلاق فاطمة التي تكذب وتزور التواقيع، تعالوا نتخذ العظة والعبرة من فاطمة، فاطمة كائن تحت الجرح والتعديل.

ما حدث كان أسوأ..

عندما انضممتُ إليهم على الغداء نظر إليّ نظرة محايدة ثم انفجر بالضحك، التماعةٌ تشفٍ فسفوري تشعّ من عينيه، قضى قراب الساعة وهو يُضحكُ عائلته علي: شفتي شلون فشلتي نفسك؟ ليه ما تدرسين؟ يضحك ويضحكون، وأنا أحاول أن أبتسم وأحاول أن لا أبكي. أحاول أن أشاركهم الضحك علي وأفشل.

بعد تلك الحادثة، قام أخي - مدفوعاً بنواياه الطيبة لهدايتي إلى طريق العمل الجاد - بتحويرٍ صغير وغير ملحوظ في اسمي. فبعد أن كنتُ "فاطمة".. صرت "فاشلة".

نعم، نعم، أنا متأكدة.

كان يفعل ذلك لتحفيزي لا أكثر.

توم وجيري

بعد تلك الليلة التي قضيتُها وأنا أولي ظهري لعريسي، أستأثرُ باللحافِ كاملًا، وألتفّ عليّ مثل حلزون، عندما تجاوزت الساعة السابعة صباحاً.. لم أعد قادرةً على التناومِ ولا الاستنوام، لم يعد بوسعي مقاومة الفكرة التي استحوذت بشهوانيتها النافرة على كلّ خليّةٍ من جسدي.

فالرجل الذي صار زوجي نائمٌ جداً، وشاشة التلفزيون مضاءة جداً، وجهاز التحكّم ملقىً جداً على الأريكة أمامي، يقول تعالي يا فاطمة، المسيني وتحسسي أزراري وتفحصي ممكناتي، تعالي يا حلوة وأحبيني كما يجب، وأعدك بأن أمنحك الأفق والموسيقى. سأمنحك العالم يا فاطمة، تعالي وأحبيني!

كان الإغراء على أوجه، ووجدتُ نفسي أستلّ جسدي من اللحاف، وأذهبُ إلى الأريكة، لأغير قنوات التلفزيون، وأحسّ بأن في يدي سلطة لا تقهر، وكأنني قادرة على الذهاب إلى آلاف المدن وأنا جالسةٌ في غرفتي الفندقية ببيجامتي التي تبتسم وتغمز..

غيّرتُ القنوات وأنا أحدّق في الشاشة فاغرة الفمِ، ودهشتي تثيرُ في نفسي الأسى، وكنتُ أبحث عن الأفلام التي لم أشاهد منها شيئاً منذ سنوات، ولكنني - ويا لدهشتي - وجدتني أتسمّر أمام حلقات الكرتون، وأتابعها بأعينٍ جائعة، وأحسّ بي أرجع إليّ، غضة وطرية وخضراء.

لوهلةٍ خلتُ بأنني بخير، بأن أمي في المطبخ تقلي البيض، وأن أبي سيصل إلى البيت خلال دقائق، وأنا.. صغيرة وعندي ضفيرةٌ طويلة، أتنشق رائحة طفولتي، بقعة حليب ككاو صغيرة على ياقة بيجامتي

.الوردية

في صباح اليوم الذي عقب ليلة زواجنا، كنتُ مستيقظةً وحدي، وجهاز التحكم في يدي، وأشعر بأنني قد أوتيت «حمر النعم» ومستعدةٌ تماماً لتعويض سنوات طويلة من الحياة خارج الحياة، وكان هذا هو كل ما .يهمني وقتها

لا الزواج، ولا الرجل الذي ينامُ في سريري دون لحاف، ولا المنعطف الفادح الذي ذهبت إليه حياتي. لا شيء يهم الآن، لا شيء باستثناء «توم .«وجيري

موزة منقطة

في صبيحة يوم جمعة، طلب صقر أن ألبس عباءتي لأرافقه إلى الصلاة. سألته ألم تقل بأن صلاة المرأة في بيتها أفضل؟ فقال بأن الأمر سيكونُ لصالحي، لأنني أصبحتُ مثل «الموزة المنقطة» التي لن يرغب بأكلها أحد، وعليه أن يتصرّف بهذا الشأن.

كنت في السابعة عشرة من عمري عندما أطلعني صقر بأسلوبه الفذ على حقيقة عنوستي. أنا موزة منقطة ولن يرغب بأكلي أحد.

كانت خطته تقتضي ببساطة أن يراني أحد أصدقائِه، ويرغبُ بي. سأكون طبعاً ملائمة أكثر كزوجة ثانية أو ثالثة، على افتراض أن أصدقاءه في مثل عمره. انقضت الصلاة وانفضّ الجمع ولم يبق في مصلى النساء غيري، أفترشُ السجاد الأحمر الممتدّ وأقول يا قادر، اجعلني لا مرئية. اجعلني أختفي.

بقيتُ في مصلى النساء أنتظرُ أن يمرّ الوقت، أن يمضي الجميع، وصقر يغلي رأسه تحت الشّمس، ويحاولُ تعطيل انصراف أصدقائه الذين يجدهم ملائمين كأنسباء، كان يفعلُ ما بوسعه، وكنتُ أفعل ما بوسعي، مرت ساعة حتى ذهبوا جميعاً وبقي واحد..

فقد صقر رباطة جأشهِ وصار يناديني «يا هيه! يا هيه! يا ولد!».. طبعاً هو يناديني «يا ولد» لكي لا يقع في محظور لفظ اسمي الفضيحة على مسمع رجل أجنبي، حتى لو كان هذا الأجنبي موعود بالتهامي بعينيه السحيقتين في الشهوانية بعد لحظات، كان قد فاتح أحد معارفهِ بشأني، وقال له: أختي تربية ايدي وتبي السّتر! كان الرجل الذي وقع عليه اختيار صقر - بشكل عشوائي ووليد اللحظة على الأرجح - بين الأربعين

والخامسة والأربعين من عمره، لحيةٌ محنّاة، وأنفُ معقوف، وشارب حليق، وجسد ممصوص. يا ولد! يا ولد اطلع! ردّد صقر، ثم تجاسرَ وأطلّ برأسهِ داخل مصلى النساء، ولمح طرف عباءتي، وعرف بأنني مختبئة بجانب المدخل وقلبي يرتعد، ولما عرف بأنني وحدي في الداخل تقدم خطوات وشدّني من حجاب رأسي..

- شتسوين صار لي ساعة أناديك وما تردّين؟

- أصلي! أصلي!

- شتصلين يالكذابة؟ تراويح القايلة؟! امشِ قدامي..

ودفعني أمام صاحبه، وهو يتضاحك معه ويردد: تستحي! أختي تربية يدي.. مربيها عالأدب وغض البصر. شعرتُ بنظراتِ الرجل تثقبُ وجهي وتوجع روحي، كما لو كنتُ سيارة، نعل جديدة، أو ربما في هذه الحالة: ناقة تصلح لسباق الهجن.

هرولتُ إلى السيارة وجلستُ في المقعد الخلفي وأنا أكفكف دموعي.

وصلنا إلى البيت، ركضتُ إلى المطبخ وصقر يطاردني مهدداً، حملتُ سكّين المطبخ، ووضعتُها على خدّي، قلتُ سأفعلها، والله سأفعلها، سأمزق وجهي وأرمي مزقه تحت قدميكِ إذا أجبرتني على الزواج، ولن يرغب أحد بالزواج مني أبداً..

- يالخبلة، يالناقصة.. أنا أبيلك الزين، اخترت لك الزّين!

- الزين خله لك أنا مابيه!

- أبو فهد هذا عنده فلوووس! ما يخليك تشتغلين ولا حتى تكملين

!دراستك.. اهو إللي بـ يريحك

..مابيه! مابيه! أنا غاوية شقا -

!صدق انك ناقصة عقل -

قالها وهو يتكئ على ملافظه، لفظاً لفظاً، يخرج الأحرف بعناية، يتلمظ بها: ناقصة عقل، وكان من شيمه أيضاً أن يؤكد: ودين.

نعجة قاصية

.صقر هو الأخ الكبير وولي الأمر، وطاعة ولي الأمر واجبة

قرارات وليّ الأمر دائماً صائبة لأنه الأقدر على استشفاف المصلحة واستجلابها. كل جدالٍ مع وليّ الأمر هو من عمل الشيطان. ولي الأمر يحبني ويريد مصلحتي ولا يريني إلا ما يرى، ولا يهديني إلا سبيل الرشاد. وليّ الأمر يقرّر بالإنابةِ عني كل أموري، منذ ملابسي وحتى اختيار صديقاتي، لأنه - بواقع خبرته وتفوقه - يعرف مصلحتي أكثر مني. لا داعي للتفكير أبداً في وجود ولي الأمر، لأنه - بعقله المتفوق - قد وفر علي عناء التفكير وتقرير المصير. كل شيءٍ محسوم، الحياة وصفة جاهزة وكل ما علي فعله هو أن أتبع الخطواتِ الصحيحة لأصل إلى .النتيجة المرجوة - الطبخة التي هي أنا

صقر يتعامل مع صفته كـ «ولي أمري» بمنطق جبري محض. فإذا كان الله تعالى هو الذي قرّر أن يضعني في عنايته، عندما دبّر الحادث وقضى بوفاة والديّ، فهذا يعني أنه يقوم بدورٍ .إلهي في تربيتي. كان متخصصاً في شؤوني، وكأنني هوايته الجديدة

كان يتقبل الحادث على نحوٍ جيّد، يتحدث عنه وكأنه لا يخصّه، وبإمكانه أن يردد تفاصيله المروعة، وأن يشرح كيف تقلبت السيارة أربع مرات ثم استقرت على ظهرها «مثل خنفساء مقلوبة» على حد تعبيره الفذ، وأن الطبيب الشرعي يقول بأن الوفاة حدثت سريعاً. ثم كان يقول بأن العقار الذي ذهبا لابتياعه من «عَمّان» هو اختيار موفق مُدر للربح، وكان يدعو لهما .بالرحمة والمغفرة بعد تلك الإضافة

لقد كان تعاطيه مع وفاتهما سطحياً بشكلٍ لا يحتمل، وكنت أؤثر أن أصمت ألف عام على أن أتحدث عن موتهما بهذا الشكل المسطّح، وانتهى بي الأمر إلى اعتزال مجلسهم، وقبعتُ في سردابي الذي صار يشبهني، ويشبه تصدعات روحي، منذ بقع السقف الصفراء وحتى .الصدوع في الحائط

لم تكن الوحدة خيارا سهلًا، فهي تعتبر فعلًا شيطانياً في بيت الأخ الكبير، وتحدثُ المجالس العائلية بقوّة الإجبار والتأكيد على وجوب الطاعة والانخراط في معيّة الجماعة، لأن غياب رغبتي بمجالسة أخي الكبير ولي أمري وولي نعمتي أيضاً هو من تلبيس إبليس الذي يسهل .عليه التمكن من أولئك النائين بأنفسهم، من «الغنم القاصية» كما يردّد

في إحدى المرات سألته كيف تفسر توق النبي إلى الوحدة في غار حراء. ضحك وأخذت كرشه

تترجرج يمنة ويسرة، كما لو كان قد ابتلع بحراً: ولك وجه تقارنين نفسك بسيّد الخلق؟

كل علاقة لي مع المقدس، مع الله ومع النبي ومع القرآن، كان ينبغي أن تمرّ من خلاله، لأنني موصومة بالجهل والنقص أبداً. كنت أتجرأ بأسئلتي ووحدتي على ذلك الكهنوت غير المرئي الذي يخنق عالمي. دوّختني الأسئلة، أوجعتني.. وكانت كلها ممنوعة ومختومة بالشمع الأحمر. صناديق كثيرة من التابوهات التي لا تُمس ولا يحق لأحد أن يتحدث عنها. فالعالم، كما يعتقد صقر، هو مجرد قنواتٍ موصولة ببعضها. وكل ما علينا فعله هو أن نقوم بتمرير الحقيقة التي نملكها سلفاً إلى من هم دوننا، وتلقيها ممن هم فوقنا. لسنا بحاجة إلى البحثِ عنها، فقد ولدنا والحظ حليفنا، نحن الذين نعرف ولسنا بحاجة لأن نكتشف. كل ضروب السعي مضروبة على وجهها، جهد تبذيري غير مبرر. هرطقة، قلة إيمان. كل سؤالُ هو صعلوك، كل سؤال هو مشروع زندقة.

بقدر ما هيمن التديّن على عالمي، بقدر ما بدا الدين متعذراً، وخلاصة الأمر أنه لم يكن مسموحا لي أن أكون أنا، وكانت جل مواعظ صقر تصبّ في مشروع تفتيتي. في طمس اختلافاتي التي تزعجه. كنتُ نعجةُ قاصية وموزة منقطّة وناقصة في كل الأحوال.

لم تكن الوحدة متاحة، وكان عليّ أن أجاهد في سبيلها، أن أرسم عوالمها بالخط الأحمر المتقطع وأنا أؤكد: صحيحٌ أنه قبيح، ولكنه سردابي، إنه المكان الذي يخصني، والذي أستطيع أن أوجد من خلاله. جهاز الإنذار الداخلي فيّ كان يطلق ولولة ذعره كلما سمعتُ صوت نعل صقر ترتطمُ بالدرجات نزولًا إليّ. كنتُ دائماً مضطرة إلى تبرير الأشياء التي أفعلها، منذ اللا شيء وحتى تصفح قصة «سندريلا».

كنتُ متعبة من كوني أنا، غير مسموحٍ لي أن أكون أنا، ولا أستطيع إلا أن أكون أنا. كنتُ متعبة ومنهكة ومنتهكة ولكنني لا أملكُ ترف الإحساس بتعبي، إذ عليّ أن أحارب من أجل الإبقاء على الخيارات القليلة والشاحبة المتبقية لديّ. أن أنتصر لي، لي أنا. من أنا؟ هذا الشيء الذي يحاولون كسره وطمسه ووأده، هذا الشيء الخطر على ما يبدو، الذي يهدد بتقويض النظام بمجرد قراءة رواية؟ نعم هو.

إنني أحاولُ صياغة سبع سنوات من حياةِ السجون بأقل قدرٍ من الكلمات ومن ثمّ.. بأقل قدرٍ من الانفعال. أردد على نفسي بأنني يجب أن أكتب كل شيء بتلك اللغة الباردة والمترفعة لصفحات الجرائد. أريد أن أنسى بأنني الطفلة التي ورد اسمها في الخبر وقد تعرّضت طفولتها إلى الاغتصاب.

ثمة ما هو غير مفهوم في شعور الضحايا بالعارِ من كونهم ضحايا، هناك دائماً ذلك الصوت

.اللئيم الذي ينبثق من أعماقك ويردد: ما كان علي أن أخطئ وأصير ضحية

لماذا تخجلُ الضحية من القيد في معصميها؟

الشاشة السوداء
على الحصان الأبيض

في البداية، لم أكن زوجة لفارس بقدر ما كنتُ زوجة لشاشة البلازما بعرض 22 بوصة، وضاءة الجبين عريضة المنكبين، ناعمة الملمس، بإطارها الأسود الصقيل، شاشة أحلامي! الشاشة السوداء على الحصان الأبيض، الأكثر وسامة من كل رجال العالم، العظيمة مثل بلورة سحرية، زاخرة بآلاف العوالم القادرة على تهريبي خارج حقيقتي، وغمسي في المجاز ومجاز المجاز، ومنحي حيوات مختلفة ومختلقة، بلا سراديب ولا أشباح ولا ضربات نعلٍ على فخذي ولا أيدٍ تحشر الطعام في فمي حشراً.. وكأن الحياة لم تركب قطار الحياة وترحل.

في اليوم الذي تلا زواجي، شعرتُ بدفقة الدماء الحارة والمستثارة في صدغي وأنا أقف على مصاف المكتشفين العظام، لأكتشف - بذهولٍ عارم وفمٍ مفتوح - قناة فضائية اسمها MBC2، تسردُ خاصة بالأفلام وحدها، الحكايا على مدار الساعة، مثل جدة مستحيلة لا تموت.

- هذه قناة للأفلام فقط؟

سألتُ فارس، المتململ في جلسته بسبب رفضي مغادرة الجناح منذ الصباح، سأل مستنكراً؟

- MBC2؟

- نعم.

- ألا تعرفين هذه القناة؟

أفلام على مدار الساعة؟ كيف يعني؟ -

ما الغريب في الأمر؟ -

هل توجد في الدنيا أفلام تكفي للعرض على مدار الساعة، لسبعة أيام - في الأسبوع، لثلاثين يوما في الشهر، لـ 365 يوما في السنة؟

ضحك فارس من أعماقه. لم أُجرح، كنتُ مهتمة بالحصول على أجوبة وحسب. عاودتُ السؤال:

منذ متى والبشر يصنعون الأفلام؟ -

لا أدري! منذ شارلي شابلن؟ -

من؟ -

كيف يمكن أن لا تعرفي هذه القناة؟ -

.آه. حسناً، أنتَ تعرف، أمورٌ كهذه تحدث -

.نعم تحدث

اليتم يحدث. اختطاف الطفولة يحدث، أن تحبس في سرداب، أن تحرم من الدراسة، أن يسرق منك حب حياتك، أن تحرق كتبك، أن تغرق قصائدك في شبر من الدموع، أن تسحل خارج قصيدتك، أن تشدك الأيادي من شعرك، أن تبلل ثيابك من الرعب. كل شيء يمكن أن يحدث لك، إلا قناة فضائية تعرض الأفلام على مدار الساعة.

.التلفزيون في بيتنا مشفر -

قلتها على سبيل التوضيح، لا الاعتذار، ثم أدرتُ له ظهري لأتابع الفيلم بكل الإخلاص في قلبي. السيد التلفزيون، زوجي الأوّل.. أبقيه يقظاً

طوال الوقت، حتى عندما أغادر الغرفة، حتى في وقت النوم، وأثناء القراءة. ضجيجه الخلفيّ يقولُ لي بأنني خرجتُ من السرداب.

وطوال مدة زواجي كان فارس يتذمر: ألا نطفئ التلفزيون هذا البيت أبداً؟

لا.. نحن لا نفعل، إذا أطفأتهُ سينتابني الرّعب، سينقضّ عليّ الصمت وتلتهمني الوحدة، ستعود الأشباح، التفاح المسموم، الشياطين التي تعشش في سواد المرايا، سوف تعود الصراصير والجرذان والأيادي الكثيرة التي تهبطُ من علياء طغيانها على جسدي. إذا أطفأت التلفزيون سوف يغيبُ كل شيء وأعودُ - مسافرة عبر الزمن - إلى ذلك الجحيم الذي خصّص من أجلي. سأحسّ بي هناك، مقذوفة في اليتم الفاحشِ، في السرداب القبر. إذا جلسنا على طاولة الغداء وكان التلفزيون مطفأً سوف أنهضُ وأشغله. إذا أردنا الخلود للنوم وكان التلفزيون مطفأ سوف أنهض وأشغله. إذا أردنا الخروج من البيت وكان التلفزيون مطفأ سوف أشغله قبل أن أغلق باب الشقة بالمفتاح مرّتين اثنتين، لكي لا يمتلئ المكان بعفاريتِ الماضي. سوف أشغل هذا الجهاز دائماً وطوال الوقت ولو كان ممكناً فأنا أريد أن يدفن معي كما يفعل الفراعنة.

خسوف

.في سنة الحادث وضعتُ الحجاب على رأسي

اعتقدتُ بأن صقر سوف يحبني أكثر إذا فعلتُ، وكان يمعنُ في التغزل بوضحة كلما خرجنا للتنزه في نهاية الأسبوع، يشير إلى وجهها «القمري» الذي يضيء «بنورٍ ربانيّ» يهبطُ عليه من سماوات الله وينعكسُ على مرآة قلبها العامرِ بالإيمان. أردتُ أن أحصل على هذا النّور. أن .تنظر إليّ السماء، أن تحدث الأشياء الجميلة لي على سبيل التغيير

هكذا قررتُ - في محاولة للانسجام مع أخي الكبير - أن أضع الحجاب على رأسي لأصير .جزءًا متناغماً مع هذا الكل، أن أقوم بما علي لأحصل على حصتي من الحنان

وضعتُ الحجاب دون أن يخبرني أحدُ بأنني قمر، وأن نور الإيمان يشعُّ من جبيني الوضاح، وأن عيني تلمعان بشكل مختلف. لم يقيموا لي حفلة ولم يحضروا لي هدايا. اشترت لي بدرية قمصاناً واسعة وتنانير ماكسي من «ماركس آند سبنسر» وحجاب رأس أبيض من الكريب وآخر من القطن. «مبروك حبيبتي» قالت وهي تربّتُ على كتفي، صقر تمتم وهو يعض على مسواكه «زين! زين! عقبال ما تتنقبين إن شا الله».. وضحة قالت بأنني صرت أشبه اللاجئات .الأفغانيات

انتهت مراسمُ وضع الحجاب سريعا وانفضّ المجلس. لم أسمع كلمة قمر ولا كلمة نور ولا كلمة إيمان. ولم أفهم ما الخطأ الذي ارتكبته هذه المرّة أيضاً لكي لا تجري الأمور على نحوٍ جيّد. ففي تلك الفترة، وأنا شبه طفلة وأقل من امرأة، كنتُ أنسب كل الخطأ لي، وكان أخي المعصوم .محصّناً بالمقدّس

خرج صقر وتوارت بدرية في المطبخ وصعدت وضحة إلى غرفة نومها وبقي الصغار يتراكضون.. لماذا انتهت الحفلة بسرعة؟ أين الحلوى، أين الاحتضان والمباركات؟

عدتُ إلى سردابي، الذي بات يتحول شيئًا فشيئًا إلى صدفة سلحفاة. أخرجتُ صورة أمي وأبي من الدرج، ونظرتُ إلى وجه أمي الخافتِ، إلى مفرق شعرها واللؤلؤ الذي ترتديه وأكمام الدانتيلا: ماما، إنني أتحوّل إلى امرأة، والأمر ليس مفرحاً كما ظننت. إنه ليس بالأمر الجيد أن يكون الإنسان امرأة، في هذا المكان على الأقل. ربما لو كنتُ سأصير امرأة أخرى، غير تلك المرأة المخصصة لي عندما أكبر، فلسوف يكون الأمر جميلًا جداً. ماما، ربما ما كان

.ينبغي أن تنجبيني

السديم

فاطمة؟ فاطمة؟ -

-..

فاطمة؟ -

-..

ما بكِ؟ -

تبدد السديم الأزرق. الغشاوة في عيني والقصيدة في قلبي. بدأت الأشياء تكتسي بوجودها المادي وترزح تحت الثقل. ظهرت لها حوافُ وألوانٌ وأشكال وأبعادٌ ثلاثة، وانتشر في الهواء صوتُ موسيقى. نظرتُ حولي فانتبهتُ إلى المكان. في هذا المطعم التايلندي تتوشح الفضاءاتُ بالأخضر السخي. أقنعة خشبية على الجدار، جسرٌ خشبي عتيق يعبر حوض أسماك ذهبية منتفخة الخدود تلتهم الفقاقيع، إلى جزرٍ من الكابينات الخشبية، في كل كابينة أربع طاولات .تقريباً، أزهار أوركيدُ وبحر خجولٌ يمتد خارج النافذة، المكان جميل أكثر من اللازم

ما بكِ؟ -

ماذا حصل؟ -

هل سمعتِ شيئاً مما قلته؟ -

ماذا قلت؟ -

هل تمزحين؟ هل كنت أكلم نفسي منذ ساعة؟ -

.آسفة -

وضعتُ الشوكة من يدي، تكورّت أصابعي وانكفأت إلى باطن كفيّ. تركتُ كوب شاي الياسمين .ونظرتُ إليه. يجب عليّ ألا أغيب

كيف أشرح له؟ كيف أشرح له بأنني أصاب بالصمم عندما أجلس إلى طاولة الطعام، بأنها كانت طريقتي طوال سبع سنوات لكي أنقذ نفسي من الجوع الذي يمزق باطني؟ كيف أشرحُ

له بأنني أغطسُ في غيابٍ غير مسبوق، في السديم الأزرق الأزليّ، بين كثيرٍ من الشهب والثقوبِ السوداء. كان عبثاً أن أشرح، للرجل الذي صار زوجي بالأمس فقط، بأنني موجوعة إلى هذا الحد.

- ماذا كنتَ تقول؟

قررتُ أن أكف عن الأكل، حتى أمنع نفسي من الارتحالِ في الغبشِ الممتدّ في صدري.

- كنتُ أقول بأن الزواج حدث بسرعة.

- نعم.

- لم تسنح لنا فرصة للتعارف.

- إنها تقاليد العائلتين.

- أنا أحترم التقاليد.

- حقاً؟

- نعم. إنها تنظم أموراً كثيرة.

- أنا لا أحترمها.

وبدا أنه بوغت.

- ماذا تعنين؟

- أعني أننا نرزح تحت ما يكفي من الأقفاص. لو أننا التقينا قبل الزواج - مثلًا - لربما تكشفت لكلينا أمور كثيرة عن الآخر. أنت تعرف، شيءٌ أفضل من زواج "امسح واربح" هذا.

ابتسم.

- على الأقل أنا ربحت.

- هل تمزح؟

- ولماذا أمزح؟ فعروسي حلوة.

ضحكتُ. لم أعد أسمع هذه الكلمة في حياتي. قرأتها مرة، في رسالة، في حكايةٍ أخرى، في نبضةٍ مارقة، في قصيدة..

فاطمة؟ فاطمة؟ -

-..

!فاطمة -

.آ.. آسفة -

أين تغيبين؟ -

.لا.. لا أدري -

هل سمعتِ ما قلته؟ -

.لا -

.قلتُ: حدثيني عنكِ حتى أعرفكِ -

.سقراط -

عفواً؟ -

.سقراط قالها -

سقراط قال ماذا؟ -

.تكلم حتى أراك -

:وابتسمتُ. هتف مندهشاً

!أأنتِ مثقفة -

لأنني أعرف مقولة شهيرة لسقراط؟ -

.لا تستهيني بالأمر -

- ليس ثمة معنى في أن تعرف سقراط وتجهل MBC2.

انفجر ضاحكاً وصفق بيده وهو يهز رأسه. لم أكن أعرف بأنني مضحكة.

هديةُ عيدِ ميلادي

عندما بلغتُ العشرين من عمري، وفي يوم ميلادي الذي لم يتذكره أحد، أو تذكّره الجميع ولكنهم تناسوه لأن «عيد الميلاد حرام»، شعرتُ بأنني مدينةٌ لنفسي بمحاولة.

- ماذا كنتِ تحاولين يا فاطمة؟

- كنتُ أحاولُ أن أعيش.

قلت لنفسي: إذا كان هناك إنسانٌ في هذا العالم يستطيع مساعدتي فسأخرج وأطرق بابه، ولسوءِ الحظ لم تداهمني هذه الفكرة الفذة إلا بعد أن تجاوزت الساعة التاسعة مساءً، وضعت حجابي على رأسي وارتديتُ عباءتي المهلهلة وخرجتُ، في الطريق سألني صقر: على وين؟ إلى المكتبة، نسيت أشتري شيئا مهماً لمحاضرة الغد. قال لا تتأخري.

ذهبتُ إلى الجابرية، وسرتُ على مهلي أمام العيادات الطبية الكثيرة. كنتُ متأكدة من أنني لمحتُ عيادة استشارات نفسيةٍ هنا، قلت لنفسي: ربما هذا هو ما يتطلبه الأمر لكي تنتهي المشكلة. ما هي المشكلة؟ لم أكن متأكدة، ربما كانت المشكلة هي أنني أنا، وأن العالم هو العالم، وأننا - العالم وأنا - لا ننسجمُ كما ينبغي، ونحتاج أن نتفاهم على بعضِ الأمور.

نزلتُ عند العيادةِ، ولم أكن مترددة أبداً، على العكس كنت أراجع سطوراً أعتزم أن أتلوها على مسامع الطبيب: دكتور! إنني معطوبة تماماً وأحتاج إلى الإنقاذ، أعطني شيئا يساعدني على الاتساق مع العالم.

كنتُ أتخيّل بأنه سيضحك، ولكنني لم أكن لأخسر شيئاً، مع كل تلك الدموع التي بدأت تنهمر من عيني بسخاء، وأنا أتملى بسخرية في حقيقة أنني أهدي نفسي في عيد ميلادي العشرين زيارة لطبيبٍ نفساني.

كانت العيادة مغلقة، وكان غضبي عارماً، فركلتُ الباب، حتى مع علمي بوجود كاميرات مراقبة، ركلتُ الباب ثلاثاً ومضيتُ..

لم أرجع إلى العيادة، لم أرجع لأنني بقيتُ طوال الأيام التالية أتخيّل الطبيب ورجل الأمن يتفرّجان على شريط التسجيل، لفتاةٍ مكسورة تركلُ الباب، ولعل رجل الأمن كان يضاحك الطبيب ويسأله:

هـي دي وحدة من المجانين - لا مؤاخذة - اللي بيجولك يا حكيم؟ -

مدينة الملاهـي

.مدينة الملاهـي هـي مجرد سرداب

.كان مجيئي معهم خطأ

ربنا ما كان ينبغي أن أصرخ. ولكن، الطريقة التي انطلقت بها اللعبة، عالياً في السماء، .. تخترقُ الهواء وتقذفني إلى فوق، وتجعل الدم يتدفق داخل رأسي حاراً وغزيراً.. حسناً، لقد بدا وكأن اللعبة مصممة أصلا لتبرير الصراخ في وجه العالم، وأنا صرختُ من فرطِ الرعب، ومن .فرطِ اللذة أيضاً

قبل أن يتوفى والداي كنت أصرخ، وكانت أمي تشاركني الهتاف، وكأن أبي يحمل كاميرا التصوير بيمناه ويلوّح لنا. لقد تغيرت القوانين، الحلال صار حراماً، والمباح صار منكراً، والجميل صار قبيحاً. الاحتفاء بالدهشةِ لم يعد أمراً جيداً، التوغل عميقاً في شهقةِ الوجود لم يعد مقبولًا. الآن فهمت، فهمتُ بأنه كان يجدر بي أن أفعل كل شيءٍ في الصمت، تحت أستارٍ .وأستارٍ من اللا شعور. البلادة - إذن - هـي فضيلة الأنوثة الحقة

الصرخة التي انبثقت من باطني، فيمَ اللعبة تأخذني إلى فوق، وفوق الفوق، وفوقه وفوقه وبما .يتجاوز خيالي، هذه الصرخة لم تكن من حقي، لم تكن لي. كانت ملكاً للرجال وحدهم

في تلك الزيارة لمدينة الملاهـي تكشفت لي أمور كثيرة،: أولًا: ممنوع أن أشتري شراباً مثلجاً أحمر لكي لا تحمرّ شفتاي ولساني، يبدو الأمر - والعياذ بالله - كما لو كنت متبرجة. ثانياً: ممنوع ركوب الحصان، ويسمح بركوب الحنطور. ثالثاً: ممنوع الركض والهرولة أمام الرجال. رابعاً: يسمح بشراء الآيسكريم ولكن ينبغي لعقه بطريقة لا تظهر اللسان. خامساً: يجب .التحفظ على الدهشة، الصراخ ممنوع، الصراخ دليل على التهتك وقلة الحياء

عندما نزلتُ من تلك اللعبة وأنا أموتُ من الضحك، ارتدّت الضحكات إلى داخلي مثل سكاكين تحت وطأة الشتائم التي بصقها في وجهي: يا حيوانة. يا كلبة. قالها أمام الناس، أمام الجميع. عندما يغضب صقر ينسى مسواكه ولحيته ويشرع في السب. ليه تصرخين يا حيوانة؟ تبين تلمين الرجال عليك؟ أضربك بالنعال على راسك حتى تتأدبين؟

.ياه

كانت مفاجأة حقيقية، أن يكون لصراخي كل هذه الأبعاد. لم أكن أعرفُ بأنني ملغمة إلى هذا الحد. بدرية تمسح على زنده وتقول له سامحها فهي طفلة. وضحة ترمقني من طرف عينيها ، الغمازة الشريرة في عينيها تلمع، الأولاد يركضون بعيداً ، صوب لعبة أخرى، يتجرعون الوجود .بلا تحفظ

.لقد فاتني أن أكون صبياً

الشريعة والذريعة

الأضواءُ تُبهِرُ عيني، الاتساعُ كثيرٌ علي. هذا العالمُ بحرٌ وأنا مصابةٌ بالدّوار. الروائح تتزاحمُ في أنفي والأصوات تختلط ببعضها، أسمعُ صرير عجلات العرباتِ وحقائبِ السفر على البلاط الصقيل، أرى الأفواه تنفرج، ثم تُغلق، تنفرج، ثم تغلق، كما لو أن في الأمر مغزى. من أين للعالم كل هذا الحجم؟ ولماذا يتشبع الهواءُ بالضجيج، وتحومُ الأصوات فوق رأس المكانِ مثل قبيلة نحل؟ أين العسل؟ أين المعنى؟

يدهُ تقبضُ على رسغي، تشدّني يمنة، يسرة. يمنة، يسرة. يبعدني عن هذا ويدفعني عن ذاك. ذراعاهُ تحاصران جسدي وكأنه يخشى أن تدهسني الأقدام. تعالي من هنا. انتبهي للأرضية الرطبة، لماذا لم تحكمي إغلاق حقيبتك؟ يتأفف، يغلقها ثم يكمل طريقه ممسكا بمعصمي. لا، لا، يا رجل! انتبه، ألا تراها تعبر؟ نتحرك. ينظرُ إلى ساعته، يقول سنصل في الوقت المناسب. يدوّي صوت، رطانةٌ تنتشرُ في الفضاء. يقولُ هذه رحلتنا. تلمع عينه. يقول فلنسرع! أريد أن أقول له تمهل، تمهل، فأنا لا أستطيع أن أفعل ذلك الآن، لقد خرجتُ من التابوتِ لتوّي، الضوءُ يؤذيني والصوتُ يخيفني. أحتاج أن أعتادَ الاتساع والوجود في العالم.

هل أنتِ متحمّسة؟ سألني ونحن نقف في طابور الجوازات، ونحن ندلف قاعة المغادرين.، ونحن نوشكُ على دخول الطائرة. لماذا سألني مراراً؟ وبماذا كنتُ أجيبه؟ أم أنني لم أجبه قط ولهذا ظل - المسكين - يلحّ في سؤاله؟ يرى الذعر اللامفهوم في عينيّ، وينتظر أن يرى التماعة فرحٍ أو غبطة؟ هززتُ رأسي وازدردتُ ريقي وتشبثت بذراعه، كما لو أنه الشيء الوحيد الراسخ في عالمٍ يؤرجحني بلا رحمة.

كيف أخبره بأن الأمر كثيرٌ عليّ؟ لم أفعل. لأنني مذ وصلتُ إلى مقعدي في الطائرة رحتُ أحدّق في شاشة التلفزيون الصغيرة المثبتة على المقعد المقابل، غير مصدقة بأنها لحقت بي إلى هنا. ابتسمتُ لها وابتسمت لي، قالت لي: هذا صحيح، أنا لن أتركك. انتشرت الطمأنينة في جسدي وارتخيتُ على المقعد. فارس يضحك. لماذا يضحك؟

- إنك كالطفلةِ تماما.

ماذا يعني؟

- وعلى وجهكِ دائماً هذا التعبير..

بحلق بعينيه ورفع حاجبيه وزمّ فمه. هل أبدو هكذا فعلًا؟ ويبدو أنني نظرتُ له بالطريقة نفسها، لأنه هز رأسه ضاحكاً، بشيء من اللا تصديق. ثم مد يده إلى وراء ظهري وانتزع نصف حزام المقعد، وأحكم إغلاقه على وسطي.

يتصرّف بنوعٍ من التفوّق، وهو يغلق حزام مقعدي، حقيبة يدي. كما لو كنت طفلة الخمس سنوات. هل كُنتُ - حقاً - طفلة الخمس سنوات؟

- أعتقدُ بأنك لم تسافري كثيراً.

- سافرتُ في طفولتي.

- إلى أين؟

- إلى مصر، إلى لندن، إلى لبنان.

- وما الذي حدث بعدها؟

- لم يحدث شيء.

وبعد تردّد، أضفت، بنبرة متحفظة ومحايدة:

- لقد مات والداي وتغيّرت الأمور.

- كيف؟

- تولى صقر أموري، وهو.. حسنًا، إن لديه وجهة نظر مختلفة بهذا الشأن.

- ألا يسافر صقر أبداً؟

- بلى. للحج والعمرة.

ثم ازدردتُ ريقي، وأردفتُ:

- صقر يقول بأن السياحة حرام، يستدلّ بحديث: "لا سياحة في الإسلام".

- أعتقدُ بأنه أساء الفهم.

- على العكس. هو لم يسئ الفهم أبداً. فالحديث مرسل، لقد تحققت من الأمر. وصقر يعرفُ بأنه مرسل، ضعفه الألباني. ويعرفُ أيضاً بأنه لو صحّ.. لعنى أمراً آخر، أمراً مختلفاً، ولا

يمكن - منطقياً - أن يعني السفر، لأن هذا المعنى جديد، لكلمة قديمة، والسياحة قديماً تعني الترهب، والعزوف عن العمل الدنيوي، والعيش على صدقات الناس. ولكن لا يهم، ما يهم هو أنه لم يسئ الفهم أبداً، لقد فهم الأمر جيداً جداً، وحفظ جميع دروبه والتواءاته، ولكنه أوّله على النحو الذي يلائمه، النحو الذي يعتقه من إنفاق أمواله. هذا كل ما في الأمر.

ويبدو أنه فوجئ بحديثي، علّق متردّداً:

- يبدو أنكما غير متفاهمين.

- صقر وأنا؟ بالعكس، نحن نفهم بعضنا جيداً، كل واحدٍ منا قادر على أن يقرأ سريرة الآخر. في الحقيقة، لا أعتقد بأن ثمة أحد يعرفُ صقر مثلي، ولا حتى زوجته. أنا وهو شيء آخر.

- أنا سعيدٌ لمعرفة ذلك.

ابتسم فارس مرتبكاً. أنا لم أبتسم. ولما امتدّ الصمت الصحراوي بيننا، شاسعاً وموحشاً، عاد يسألني: هل أنتِ متحمّسة؟

سفرٌ دون محرم

.سافرتُ لأول مرّة، دون أن أبرح مكاني، من خلال لغة أجنبية

كنت في السادسة عشرة من عمري عندما تعرّفتُ على اللغة الفرنسية، في الصف الثالث الثانوي، وبفضل تخصّصي الأدبي، كان عليّ أن أسبر عالم هذه اللغة وألمسها، وأن أسمح لها بلمسي، في شغافي الخبيئة، وأن تصير شيئاً أعشقه.

بعد أسبوعٍ من تسجيل المواد للفصل الدراسي الجديد، عندما لمح صقر كتاب اللغة الفرنسية في يدي، فيم أنا أهم بالانطلاق إلى المدرسة. انتزعه من يدي وهو يسأل مستنكراً: وش ذا؟!

.هذا كتاب الفرنسي -

وليش بسلامتك مسجلة فرنسي؟ -

شفيها يعني؟ -

آخر عمرنا ندرس لغة الكفار ونهجر لغة القرآن؟ -

.الفرنسي مادة إجبارية على طلبة الأدبي -

وانتِ تخصّصك أدبي؟ -

ما دريت؟ -

..وليه ما تخصّصتي تخصّص محترم؟ علوم، رياضيات -

.معدّلي ما يسمح -

!وليش ما يسمح؟ لأنك ما تدرسين -

.ولم يكن عندي شيء أقوله، فأنا مدموغة بالاتهام وكل شيء هو غلطتي

.هذي نتيجة فشلك -

قالها وهو يفتح الكتاب بطرف أصابعه كما لو كان يمسك بمادة نجسة. تصفحه قليلًا، بوجهٍ مكفهر، قرف، ولم أفهم المعنى من تصفح كتابٍ لا يفهم فيه حرفاً: والله مهزلة! هذي أمة مهزومة

!من رأسها حتى قدميها! اهتزاز في الهوية وافتتان بالغرب وتقليد للكفار في كل شيء

قال بأن العربية هي سيدة اللغات، وبأنها أجمل لغات الأرض وأجزلها، وأنها لغة الجنة، وبأنه يجدر بي أن أفخر بها عوضاً عن أن أدرس لغة "الكفار". وكان بودّي أن أسأله، كيف يكون تعلم الفرنسية إهانة للعربية؟ ولماذا توجد لغة مؤمنة ولغة كافرة؟ ولكنني لم أجرؤ. طأطأتُ نظري ورحتُ أحاول التملّص من الموقف فيم هو يتباهى بمحبته وعشقه للعربية، رغم أنه ينطق الغين .قافًا والقاف غينًا، ويكتب الضاد ظاء والظاء ضاداً وينصب الأفعال بلا رحمة

ورغم أنه كان مقرراً ابتدائياً جداً، إلا أن الفرنسية فتنتني بجمالها. كانت تسرّ لي بأنه يمكن للحياة أن تكون مختلفة. لغة تشبهُ الموسيقى، تعشقها في أذنك وفي فمك، تضع كلماتها في قلبك وتختبر خفتها، رفرفتها، غنجها، وقدرتها على الذوبان في لسانك. لغة راقصة، مليئة بالمدود والانثناءات والتخصّرات، وفيها أحرف صامتة كثيرة، مثل صناديق مليئة بالأسرار، وإذا تجاسرت وتحدثت بها، تشعرُ بأنك تتكلم وفمك مليء بالعسل، وتخاف أن ينسكب العسل، أن .يسيل من زاوية شفتيك، تخاف أن يذهب العسل وأن تبقى وحيداً

كنتُ أتصفح الكتاب في كل يوم لأقف على أعتاب كلمة جديدة. أتهجأ حروفها، صمتها وبوحها، أرسمها في باطنِ يدي، أخبئها في فمي. أسبر العالم الجديد مثل المكتشفين الذاهبين حتى أقصى أطرافِ المغامرة. قارة كاملة تخصني وحدي. أدفن نفسي تحت عشرات الوسائد وأقرأ La Blanche Fleur..وأردد.. لا بلانش فلوغ! لا بلانش فلوغ! ما جولي بلانش فلوغ.. أبتهجُ بالراء الفرنسية التي تنطق غيناً، أدغدغ الحروف في فمي وأدللها: فلووغ! وأحس بأنني أغطسُ، أغطسُ وأغيبُ عن واقعي، في رحاب "الغاء" الفرنسية، وتكفّ الأشياء من حولي عن أن تكون ذاتها، فهذه ليست غرفتي وغرفتي لا تقع في السرداب ووحدة التكييف لا تئز والسقف لا يمتلئ بالبقع الصفراء والسجادة الزيتية مرجُ أخضر. كنتُ أسافر.. أسافرُ في .اللغة، دون جواز سفر، والأهم دون محرم

استشعر صقر تلك الكيمياء العجائبية التي أحدثتها فيّ هذه اللغة. الخدر في فمي، الخفة في خطواتي، البريقُ في عيني، مشيتي التي تكادُ ترقص. كنتُ عاشقة وكل شيء أفعله وأقوله .يفضحني

في كل مرة كان ينزل إلى السرداب ويجد كتاب الفرنسية في يدي، وأنا ممدّدة على ظهري أتدرب على إتقانِ نطق كل كلمةٍ باستبسالٍ شديد، كان يشرع في التذمر. طول اليوم مقابلة هالكتاب؟ عندي اختبار. كنتُ أكذب، أتجاهل المواد الأخرى كي أقرأ سطراً بالفرنسية. كنتُ .أكتشفُ ولعي

لو أنك درستِ للعلوم كما تدرسين الفرنسي الآن لما كان معدلك الدراسي متدنياً إلى هذا -
.الحد يا مزمزيل

.صححتُ له: مادموزيل

ولكن الأولى أعجبته أكثر، أعجبته تحديداً لأنها ضايقتني، وصار يردد: مزمزيل.. مزمزيل.. ثم:
.مزمز فقط، وأخيراً: مزّة.. بفتح الميم مرة، وبضمها مرة أخرى

كلمات أخرى كثيرة لم تسلم من محاولات التخريب، بونجور صارت بون - ثور، بون - خور،
وبونسوار صارت بوسطار، بوحمار. عندما صعدنا إلى السيارة مرة سألني كيف أقول سيارة
بالفرنسية، فقلتُ له "فواتوغ".. فقال لي بأنني أبدو على وشك التقيؤ. ومنذ ذلك اليوم صار
."يسمي اللانسر السوداء "فواطوط

يوماً بعد يوم، كلمة بعد كلمة، أفسد صقر جمال الفرنسية، ولوثها، داس عليها بحذائهِ، وترك
حروفها تتكسّر في فمي وتدميه. كلما سألني عن مفردةٍ وأجبته كان يبذل ما بوسعه لكي
يحولها إلى مهزلة، وكان يضحكُ الجميع، وكان عليّ أن أتضاحك معهم وأتظاهر بقبول الأمر
.وكأن الأمر لا يجرح

لم يعد ممكناً، في هذا العالم، أن يدرس المرء لغة جميلة، تشبه الموسيقى، تسيلُ كلماتها
كالجداول، تغسلُ الروح.. إنه ترفُ لا أستحقه. وسألتُ نفسي: إذا كان من الممكن للإنسان أن
يُسافر من خلال اللغة، كما سافرتُ أنا، وأنا أردد "لا بلانش فلووووغ" إلى مقاهي باريس،
شوارعها وأرصفتها وأزقتها المعتمة أيضاً، إذا كان من الممكن للإنسان أن يسافر، من خلال
لغة أجنبية، فهل أستطيع أن أسافر من خلال لغتي الأم؟

لغتي القديمة، الحزينة بطبيعتها، الملوثة بالآخرين، الملطخة بوحولهم، والرازحة تحت تعسّف
مصادرة المعنى واحتكار الحقيقةِ وقتل فردانية المفردة، هذه اللغة، لغتي، هل أستطيع تنقيتها
وإعادة خلقها واستخلاصها لتكون لي وحدي، لتكون شيئا يشبهني ويقولني؟

.في ذلك اليوم كنتُ.. ومن خلال أفكاري وحدها، شاعرة جداً

شاعرة في السر

ألقيتُ رأسي على الوسادة وصدري مضطرب، وكأنني ركضتُ أميالًا. أنفاسي تتلاحقُ ونظري يزوغ، ألهثُ بعد رحلةٍ مستحيلةٍ كمن يعودُ من معراج. ذهب البراق وتركني وحيدة. لقد رأيت ما رأيتُ ولن يصدقني أحد. كنتُ بين الغبطة والذعر. وبصوتٍ هامس ومنتشٍ صرتُ أردد: لقد !كتبتُ قصيدة! لقد كتبتُ قصيدةً

ماذا سأفعلُ الآن وقد كتبتُ قصيدة؟

يجب أن أحمي هذا الكائن الصغير، الهش والقابل للكسرِ. يجب أن أحافظ على حياته مهما كلف الأمر. إذا اكتشف صقر وجوده، إذا اكتشف علاقتي الجديدة باللغة.. سوف يفسدها. سوف يخنق قصائدي ويسرق عصافيرها، سوف يلوثها بيده التي تفوح منها رائحة السمك، سوف تموتُ أحرفي بمجرد أن يطلق وراءها عينيهِ الكلبيتين الباحثتين - أبداً - عن شواهد .الخطيئة

وفكّرتُ.. لا يجب أن يعرف صقر بالأمر. لن أسمح بأن يأتيني بفتوى أخرى، تحرّم كتابة الشعر أو قراءة الرواية، أن يجلس مصالباً ساقيهِ وبيده فتوى مطبوعة من الانترنت برسم الخدمة ويقرأ علي الموعظة المليون: لقد جاءت الشريعة المباركة بغلق أبواب الفتن الموصلة للشر، وإن فتنة الرجل بالمرأة من أعظم الفتن، فقد جاء في الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء. ومن أجل ذلك سدت الشريعة الطرق أمام هذه الفتنة فحرمت سفر المرأة دون محرم وحرمت عليها الخلوة بالرجال الأجانب وإبداء شيء من زينتها أمامهم والخضوع بالقول وغير ذلك من الأبواب التي أوصدتها الشريعة في وجه هذه الفتنة, ولا شك أن مطالعة القصص والقصائد تناقض المقصود الشرعي لما يترتب عليها من مفاسد عظيمة: مثل تهييج الغرائز، وإفساح المجال للخيالات والأفكار الرديئة، وشغل الوقت بما .لا ينفع في دين ولا دنيا، بل بما يضر

لا يمكن أن أسمح بحدوث الأمر. أن يصادر الشيء الوحيد الذي تبقى لي، الشيء الوحيد الذي أستطيع فعله. لن أمنحه المسوغ! هكذا قررتُ، ومنذ قصيدتي الأولى، أن أبقي الأمر .سراً، أن أجيد إخفاء أوراقي قبل أن يدنسها بمعرفته بها، ويبادر بسحق كائناتها تحت حذائه

ولو كان الأمر أنه سيمزقها لكان الأمر أسهل بكثير، ولكنه لم يكن صريحاً في عدوانيته، كان من النوع الذي يأخذ مذكراتك المخبأة تحت الوسادة ويقرأها على أهل بيته حتى يتلوى الجميعُ

على الأرض من الضحك. أتخيّل لو أن صقر قرأ شيئاً كتبته، شيء على شاكلة: «في تلك الليلة انطفأت روحي».. سيقرأها وهو ممدّدٌ على ظهره، يمصمص الحبّ الشمسي ويتفل قشوره في الأرجاء، بصوتٍ جَهْوَري لا تحتمله رهافةُ النص، ثم سيسأل بغباءٍ مقصود: أجل انطفأت روحك يا لمبة؟ وسيضحك الجميع وسأتفتت أنا. وطوال الأسابيع اللاحقة سوف يناديني جميع سكان البيت «لمبة»، وسأكف عن الكتابة إلى الأبد، هذه اللذة الفائقة، الخارقة للعادة، التي اختبرتها قبل دقائق.. سوف تختفي من حياتي.

على قاع علبة كلينيكس كتبتُ قصيدتي الأولى. قصيدة صغيرة ومفككة، ترتعشُ مثل دمعة، وكنتُ سعيدةً بها، تلك القصيدة الدمعة، وكأنني عثرتُ عليّ.

أنا شاعرة في السر، أكتبُ الصمتَ وأذوب فيه، العالم لا يتسع لقصائدي.

سأتوبُ في الوقتِ المناسب

لم يكن اليتمُ هو وفاة والديّ. اليتمُ الحقيقي هو أنني لم أمت، وأن صقر لم يمت أيضاً، فقد بقي في العالم ليصير جلادي، ليفتش حقائبي بحجة البحث عن علكة، ويتفحص هاتفي بحجة البحث عن رقم هارديز، وليراجع تاريخ تصفحي في الكمبيوتر ليتحقق من أنني لا أحيد عن صراط الفضيلة ولا أتحاور مع رجال في الفضاء السيبيري، وهو يقوم على حراسةِ شرفي كالكلبِ تماماً، باستثناء أن الكلب أكثر محبة.

وجدتُ نفسي أهرب وأعودُ خائبة، دون أن يعرف أحدٌ بأمري، كل ما في الأمر أن عدد قبوري ازداد واحداً.

كنتُ عاجزة عن أن أكون، أن أكون وحسب. أن أمشي في أرضِ الله دون أن أشعر بأن العالم سوف يقوم بافتراسي. ولهذا فأنا أسبقه خطوتين، في كل مرة، من خلال قتلي مجازاً، ودفني مجازاً، والوقوف على قبري مجازاً، وتشييعي بالوردِ مجازاً.

بائع الورد يعرفني، يلف أقحواني بعنايةٍ لافتة، ويبتسمُ أيضاً. عندما يبتسمُ.. أفكّر بأنه واحد من «الذئاب البشرية» الذين يتكلم عنهم صقر، والذين يفترسون البنيّات. لم أبادله الابتسام قط، لقد تحوّل العالم بفضل أخي إلى مكانٍ مشبوه، بعد أن احتكر الشرف كله لنفسهِ.

أريد ذلك المكان الذي بوسع المرء فيه أن يكون نفسه، أن يشبه ظاهره باطنه، وأن ينسجم مع حقيقته - أن يدرس الفرنسية، أن يرسم عصفوراً، أن يكتب قصيدة في النور، أن يجلس وحيداً، أن يركض في الملاهي، أن يلامس البحر بقدميه، أن يمشي إلى البقالة وحيدا، أن يجالس الأصدقاء في مقهى. فضائي الخاص، فضائي الذي لا يخصُّ سواي، الذي لا يؤذي أحداً، أريده كله. لماذا سرقوه؟ لماذا يقتحمني العالم إلى هذا الحد؟

أن تعيش في مكانٍ يصادرك حتى آخر سنتمتر منك، يعني أن تبرع في فنون الالتفاف. كان عليّ أن أحتال. أن أكيد، أن أرقص رقصتي في الظلام، أن أخفي الملفات بالكمبيوتر وأدمغها برقمٍ سري حتى لا يهتك ولي الأمر سرانية قصائدي، أن أحمّل الكتب المقرصنة وأحفظها في «فلاش ميموري» وأقرأها دون أن يكتشف ولي الأمر جريمتي في الخروج عن المقرر الإيديولوجي وقائمة القراءات المسموح بها، أن أمد يدي إلى شبكة الانترنت وأقطف ثمار العالم وألامس فضاءاته، أن أكتب تحت ستار الاسم المستعارِ، أضع الأقنعة لأكون حقيقتي، أحذف «تاريخ التصفح» من الكمبيوتر وأمحو آثار خطواتي في مواقع الشعرِ ومنتديات الكتابة. أن

أطلق في رأسي فضاءات المخيّلة. أن أجلس على دكة النافذة وأتأمل الغبار وأسميه ضباباً، أن أسافر دون أن أبرح مكاني. أن أكتبُ قصائد هشة غير موزونة وغير مقفاة، لأن هذا النوع وحده يشبهني. أن أكسر القانون الذي يصادر إنسانيتي، وأتذوّق العالم في الخارج، أتسلل في الليالي وأتدرّب على الهرب.

كان علي أن أتعلم - أهم من أي شيءٍ - البحث عن آراء شرعية متعددة ومختلفة ومتضاربة، حتى صرتُ ناشطة في مجال الفتاوى، مجال البحث عن فُرج ونوافذ وثقوب للنفاذ إلى وجهات نظر تخالف السائد. كلما قال لي الشيء الفلاني حرام أقول له العالم الفلاني له وجهة نظر أخرى، طوال الساعات كنت أجادله وأمتحنُ معرفته وأحاولُ أن أجبره على الاعتراف بوجود الاختلاف، كنتُ أفشل.

كان علي أن أكذب. أن أذهبُ إلى المكتبة وأخبره بأنني في الجامعة، أجلسُ في ذلك المكان المهجور، مختبئة بين أعمدة الكتب، وأقرأ.. تحرسني أرواح الشعراء والفلاسفة، أصنع صداقات مع أبطال الرواياتِ وأعيش حيوات مفارقة.

لقد قرأتُ طوال حياتي وأنا أشعر بأنني أجترحُ إثماً، وكنتُ متأكدة بأنني لو مت، فسيكون علي أن أقضي فترةً في الجحيم، عقوبةً على عقوقي، ومشاويري غير المعلنة وقراءاتي السرية، فقد كنتُ أقترفُ المحرّم، وكان التفكير في جهنم يرعبني، ولكنني منيتُ نفسي دائماً بأنني سأتوبُ في الوقت المناسب، قبل موتي بخمسِ دقائق.

الجنتلمان

.في الفندق، في تايلاند

.أنا خارج السرداب. السردابُ في داخلي

يبدو الفندق مثل قصرٍ مسحور في خرافةٍ قديمة، وسط الخضرة الفارهة التي تكلل حضوره بالفتنةِ، رائحة البحرِ المالحة في الهواء، الخدر في الوجوه والخفوتُ في الأصواتِ وأزهار الأوركيد في كل زاويةٍ ممكنة. هل يوجدُ على الأرض مكانٌ تقطر من الحياة بهذه الوفرة المرعبة؟ تخلّصتُ من قبضته ومشيتُ، في جنبات الفندق وممراته، أريد أن أخزن كل شيءٍ في عيني .وأخبئه في داخلي

يجب أن أخبئ هذا المكان وأحافظ عليه، أن أضعه في مرطبان مربى فارغ أسفل سريري لكي .أحتفظ به. أخاف على الجمال أن ينضب. شعرتُ بعيني تغرورقان بالدموع

هل أعجبك المكان؟ -

هل تمزح؟ -

.وأظنني، لأول مرة منذ زواجي، قد ابتسمتُ

تايلند تدهشك دائماً. عبارة مطبوعة أسفل المنديل الورقي في يدي. أهز رأسي متفقة مع المنديل وأقرّر أن أحتفظ به. أطويه عدة طيات وأخبئه في السحّاب الداخلي في حقيبتي. أقول، !سأجمع أكبر كمٍ من المناديل وسأضعها في مرطبان مربى فارغ، سوف أحتفظ بكلّ شيء

كنتُ أمشي كالمسرنمة، حتى قام موظف الفندق بفتح بابِ الغرفة بالبطاقة الممغنطة البيضاء، فدخلنا. أرائك غرفة الجلوس الجلدية مصنوعة من خشبِ القصب، وطاولة خفيضة تتوسط الصالون، وشاشة تلفزيون مقاس 20 بوصة، وعلى شرشف السرير الأبيض المشدود بإحكام من أطرافه رسموا بتويجاتِ الورد الأحمر قلب حب. على شاشة التلفزيون تلمعُ عبارة الترحيب ."" ولكم مستر آند مسز الفارض

أحنى موظف الفندق رأسه بتهذيب واستأذن بالانصراف بعد أن أخبرنا بأن المنتجع يهدينا جلسة ريفلوكسولوجي مجانية. انتظرتُ رحيله بفارغ الصبر حتى أنشر جذعي على السرير العريض وأريح خدي على شرشفهِ الناعم. استلقيتُ على بطني، تنشقت رائحة الخزامى في

الشرشف، انتبهتُ إلى قطعة شوكولاتة ترتاحُ على الوسادة، وضعتها أسفل لساني وخبأت القرطاس في حقيبتي، ولأول مرة منذ سنواتٍ كثيرة لم أكن مضطرة إلى أن أغمض عيني لكي أرى الجمال.

قفز فارس على السرير، ارتجّ قوائم السرير مثل سفينةٍ في عاصفة. ضحكَ.. أنا أيضاً ضحكتُ، تمدد على ظهره بجانبي. انكمشت أطرافي واعتدلتُ جالسة. هممتُ أنهض، قال ابقي يا فاطمة. أحتاج دخول الحمام. ابقي قليلًا. شبك أصابعه بأصابعي. جف ريقي، جنّ جنون قلبي، نظرتُ إلى النافذة: ماذا لو قفزتُ الآن وهربت؟

- إلى متى تجفلين هكذا؟

- أنا..

- لقد مضت ثلاثة أيام.

-...

- ثلاثة أيام!

-...

- أنا جنتلمان حقيقي، ألا تظنين؟

ابتسم بشكلٍ غامض. غامت عيني، غاض قلبي. غابت الأشياء. فارس جنتلمان حقيقي، جنتلمان حقيقي، لقد انتظر لثلاثة أيام. إنه جنتلمان حقيقي!

أمسك بتلات الورد ودسّها في كفي، ثم عصر كفّي داخل يده.

- إنك تعجبينني.

- ..

قرّب كفّي من خدّه، مسح بها على وجهه، ذقنه، رقبته.. له ملمسُ كأنه المخمل.

- أنا محظوظ.

فارس محظوظ، القرعة نفعت، البطيخة أثبتت أنها حمراء، البائع لم يغش، لعبة اليانصيب

جاءت لصالحه.

حديث مرفوع

كانت أحلامي الصغيرة تفتت بين يدي صقر بحجة أنها صغيرة. على امتداد سبع سنوات، جرّدني صقر من معظم تفاصيلي، حتى لم أعد لي، حتى لم أعد أنا. التفاصيل التي تجعلني ما أنا عليهِ، ترسم خطوط ملامحي وتجعلني أختلفُ - بحرّية - عن الآخرين، كلها سرقت، صودرت، آلت إلى ملكيّته هو.. هو الذي لا يعبأ بها.

كنتُ أريدُ الدراسة في كلية الآداب، ولو لم يتوفّ والداي لكان ذلك ممكناً.

عشتُ شهوراً طويلة أرقة، قلقة، أفتش عن طريقةٍ لإقناعه بالموافقة، بكيتُ في الصلواتِ، ونذرتُ النذور. قلتُ يا إلهي امنحني هذا الشيء الصغير، امنحني مقعدًا في كلية الآداب، فأنا أحتاج إلى شيء جميل واحد في حياتي، شيء واحد أحصل عليه بملء رغبتي. يا حيُّ أحيني.

طوال أسابيع كنتُ أبحثُ عن طريقةٍ لمفاتحته في الأمر. متى أكلمه؟ على الطاولة سيكون دماغه في معدته، ولكن هذا لا يعني أن الحصول على موافقته أسهل. سيقولُ ببساطة ليس هذا بالوقت الملائم. ربما بعد عودته من المسجد يوم الجمعة؟ في العادةِ يكون منشرحاً. ولكن ماذا لو أنه عاد مشحوناً بمزيدٍ من هواجس السيطرة نحو دفعي صوب ازدراء الحياة بكل ظهوراتها؟ فما بالك بالأدب وهو المادة الخصيبة التي تتجلى فيها الحياة بأبهى صورها؟ هل أنتظر؟ وماذا أنتظر؟ أن يتمدد على ظهرهِ ويصالب ساقيهِ ويمصمص الفستق المملح؟ كيف أفلحُ في إقناع شخصٍ مقتنع تماماً بأن الحقيقة تقبع في جيبه الخلفي؟ كيف أنجح في اختراقه لأجعله يرى الأشياء بعيني أنا، بقلبي أنا، بتمزقاتي المتشنجة أنا؟

قلتُ لنفسي، سيكون عليّ أن أعزز طلبي بمسوّغاتٍ شرعية، وبدأتُ في

البحث عن تلك المسوغات. في قائمةٍ طويلة رصصتُ كل ما يمكنني العثور عليه من آياتٍ قرآنية وأحاديث نبوية. فاتني أن صقر لا يكترثُ بتلك الآيات والأحاديث، بل بما يقوله «المشايخ وكبار العلماء». الأدب هو لغو الحديث.

في مساء ذلك اليوم، وهو يتفرج على مباراة التنس الأرضي، فاتحته بالأمر، قلتُ هذه سنتي الأخيرة في الثانوي وأرغب بدراسة شيء أحبه.

- وش اللي تحبينه يا مزمزيل فاطمة؟

- أحب الشعر.

- والعياذ بالله.

قالها وهو يتفلُ نتفة من المسواكِ علقت بين أسنانه. غاض قلبي وغامت عيني. حدستُ بما سيؤول إليه هذا النقاش الذي انتهى قبل أن يبدأ. أردفَ:

- الشعراء يتبعهم الغاوون.

- ليسوا سواءً.

قلتُ له، مستعيرة التعبير القرآني، متأهبة لمقارعة الحجة بالحجة. دججتُ كل أسلحتي. أضفتُ:

- في الحديث النبوي: إن من البيان لسحراً وإن من الشعر لحكمة.

- هذا حديث مرفوع، لعبي غيرها.

- وإن كان، ألا يصح معناه؟

- وش فهمك إنتي باللي يصح واللي ما يصح؟

- عندي عقل أفكر فيه.

- لو عندك ذرة عقل كنتي درستي شي ينفعك.

قالها، ثم تفل نتف المسواك الذي طحنه بين أسنانه. وهمّ لينصرف، لحقتُ به، تشبثتُ بدرابزين الدرج فيم هو يصعد، هززتهُ بين يديّ بكلّ قوتي، لوحتُ بالورقة، ورقة المسوّغات، كل ما أمكنني الحصول عليه من تأييد شرعي لموقفي، تشبثتُ بذيل سروالِهِ الأبيض وأنا أهتف: كعب بن زهير! أمية بن أبي الصلت! عنترة! الخنساء! حسان بن ثابت!

- وش بلاك انتي؟

- شعراء، كلهم شعراء!

- خلاص انتهى النقاش.

- الرسول يحب الشعر وإنت ما تحبه؟

- فضيها سيرة. كلية آداب مافيه. عندك حل من أثنين.. تدرسين في كلية البنات أو كلية الشريعة. ما عندي بنات يداومون في كليات مختلطة. ولا انثبري في البيت ونطري المقرود اللي يرضى فيك.

غام قلبي وأنا أرزح تحت وطأة الحتمية القاهرة في صوته، لقد فاتتني حكاية "الاختلاط" هذه! كنتُ على وشك أن أهزمه، على وشك أن أنتصر في معركة واحدة من معارك الحرب الأبدية التي تدورُ في رحى الحلال والحرام. كنتُ على وشكِ أن أنتصر للشعر، لصورة الإله الجميل الذي يحب الجمال، تفجّرت الدموع من عيني وأنا أنشج..

- بس حياة.. حياة..

- وش فيها حياة؟

- حياة بتدخل كلية الآداب!

- أنا ماني راضي عن صداقتك معها أصلًا.

- حياة صديقتي من الابتدائي.

- فضيها سيرة، ولا ترى ما في جامعة. ابلعي العافية إذا تعرفين مصلحتك.

- بس..

وصعد درجتين إلى فوق، ثم التفت صوبي وأردف مختتماً الحديث، الحديث المرفوع عديم المعنى:

- وعلى فكرة، أنا ما عندي بنات يداومون في الجامعة بدون "عباة". عاجبك زين، مو عاجبك قعدي بالبيت. والشهادة منتي بحاجتها، إنتي بنت وبيجيك إللي بيصرف عليك.

تتكلمين بطريقة غريبة

مستلقيانِ على السرير، بدا راضياً، نصف عارٍ، أصابعه الكسلى تعبثُ بشعري. أنا متكوّرة بجانبه، أغطي جسدي باللحافِ حتى عنقي. شاشة التلفزيون مضاءة، النافذة قريبة، البحر بعيد.. ملابسي مقذوفة في أنحاء الغرفة، وإحساسٌ غريب يملؤني، وكأنني فهمتُ الأمر، ولجتُ منطقة السر، الجغرافيا الحمراء التي بدا لي - أحياناً - بأن كل شيء في هذا العالم يتمحورُ حولها. هذا هو الأمر إذن، الذي يهمس به الجميع وتمتلئ به كتب الفضيلة، الذي يجعل الرجال ذئاباً، والبنيّات نعاجاً، أو في أحسن الحالات «لآلئ» مصونة ودرر مكنونة مخبأة في الصناديق، صندوق في بطن صندوق، كلها في دولاب بأقفال كثيرة، الدولاب في السرداب والسرداب قبر. هذا إذن هو السر الذي جعلهم يمعنون في طردي من حياتي؟ يا لخيبة الأمل!

يميل فارس على جنبهِ الأيمن، خده يتوسد كفه ويسألني:

- إذن فقد درستِ في كلية البنات؟

في هذا العالم يضاجع الرجل المرأة ثم يتعرّف عليها.

- لثلاث سنوات.

- لم تحصلي على الشهادة أبداً؟

- لا.

- قرّر صقر بأن ذلك غير ضروري. قال بأنني سوف أتزوج في نهاية الأمر فما حاجتي بالشهادة؟

- وجهة نظر.

قالها وهو يتمطى متثائباً، بكسلٍ وانتشاء. انقبض بطني.

- هل تؤيد وجهة نظره؟

- حسناً.. في الواقع، عندما أردت الزواج، كنتُ أبحث عن فتاةٍ لا تمانع حياة ربات البيوت،

..فتيات هذه الأيام

طموحات؟ -

.يزاحمن الرجال -

لأن هذا العالم هو عالمكم في النهاية؟ -

.لكلٍ منا دوره -

بمنتهى البساطة قرر هذا الرجل الذي أخذني إلى فراشه الشكل الذي ينبغي أن تكون عليهِ حياتي. أغمض عينيه، مستعداً للنوم، سألته:

ولكن لماذا لا أمنح الفرصة لكي أختار دوري بناءً على ما يناسبني وما أستطيع القيام به؟ -

.كل النساء يستطعن القيام بأعمال المنزل -

.الرجال أيضاً يستطيعون ذلك -

!يا لك من صغيرة ثائرة -

.قالها وهو يقرصُ خدي، كما لو أن الأمر يعجبه

.إنك تسألين كثيراً، كالأطفال -

:ثمّ قبّل كفي على باطنها. انكفأت أصابعي، شبكها بأصابعِه، وسأل

وماذا كان تخصّصك؟ -

.شيء له علاقة بالكمبيوتر -

ولماذا الكمبيوتر؟ -

.لأنه مثل نافذة مشرعة على الكون -

الكمبيوتر نافذة مشرعة على الكون؟ هل يوجد في هذا العالم بشرٌ يتحدثون هكذا حقاً؟ -

ماذا تقصد؟ -

وتثاءب للمرة الرابعة وأردف..

- إنك تتكلّمين بطريقةٍ غريبة.

شعرتُ بأنني أحمل عاهةً في باطني.

- لا أعرفُ طريقة أخرى للكلام.

وبعد صمتٍ قصير أردفتُ:

- كنت أريد أن أدخل إلى كلية الآداب.

لم يرد. لم يسأل. أغمض عينيه وتناومَ حتى غطّ في الشخير. لم يكن مهتماً بمعرفة الحكاية.

أمُّي بالتبني

بعد مزيدٍ ومزيدٍ من الكتابة، بعد كشاكيل كثيرة من الخواطر والمذكرات والقصائد التي لم أكن أدرك وقتها بأنها قصائد، عرفتُ بأن هذا النبع الذي يفيضُ من داخلي سوف يكون معي إلى الأبد.

يتمي - مع الكتابة - أقلّ. فإذا كانت أمي قد ماتت، فإن اللغة أمٌ أيضاً، وهي تمنحني ولاداتٍ كثيرة، مع كل حرف أكتبه، وتشرّع لي الآفاق لكي أنهل من عينها، وأضمُّ ميمها، وأتكور في نونها.

كنتُ آخذ الكلمة وأجرّدها، أخلعها من السياق، أتنكر للتاريخ والمكان الذي جاءت منه، أجعلها شفافة وعارية ويتيمة مثلي، ثم أدشن منها عالماً، كانت اللغة هي خبزي ومائي، ملمس كفّ أمي والصدر الشاسع لأبي. كانت اللغة هي كل شيء، وأنا لهذا الـ «كل شيء» كتبتُ..

كتبتُ وخبأتُ نصوصي في صندوق، والصندوق في دولاب مقفل، والمفتاح «عند الحداد» والحداد «يبي الفلوس» والفلوس «عند العروس».. «و»العروس» تريد «الطلاق».

الحكاية انتهت قبل أن تبدأ.

البحرُ ليس لي

أنا لن أذهب معك. قلتُ له. هكذا ببساطة، وأنا أجلسُ متخشّبة على الأريكة المقابلة للتلفزيون، وأحبسُ أنفاسي في صدري، متوثبة، مشرعة على الآتي - كيف سيتصرف وهو غاضب، هذا الرجل الذي صار زوجي؟ لن أذهب معك، لن أخرج من هذه الغرفة، بإمكانك - إن شئت - أن تذهب وحدك. أنا اكتفيتُ من الخروج، وأريد أن أبقى هنا، في هذه الغرفة الجميلة، أريد أن أجمع كل القراطيس والقصاصات ونتف القماش وأن أخبئها في مرطبان المربى.

- اذهب أنت.

- ماذا تعنين؟

- لن أخرج من هنا.

- لا يمكن أن تكوني جادة.

- ولكنني جادة!

- ألم تحبي البحر؟

- البحر ليس لي.

قلتَ بالأمس: ستحبّين البحر. ولماذا لا أحبه؟ فالبحر كائن جديرٌ بأن يُعشق، وكنتُ سأحبه أكثر، لولا أن الأمر كان يقتصر على أن أجلس لساعاتٍ على كرسيّ الشاطئ، أشرب البينا كولادا وأتفرج عليك وأنت تسبح، على بطنك، على ظهرك، على جنبك اللعين: الحرة، الفراشة، الضفدع. الضفدع؟ متأكد من أنك لم تخترع هذه التسميات؟ تدخل إلى البحر وتخرج من البحر، مبتلًا بالكامل، متباهياً بالمايوه الأسود، تضع الفوطة على رأسك وتتأوه: المياه رائعة! رائعة! ترتشف من كأسك على عجل ثم تعود خبباً، تعود وأنا أنتظر وأنظر. تلوّح لي فألوّح لك. أبذل جهوداً جبارة لكي أبتسم. التبسّم يتعبني. لا أريد أن أبتسم. لا أريد أن ألوّح. هذه لعبة سخيفة! تغوصُ ثم تخرج رأسك عالياً وأنت تهتف غير مصدق: سلحفاة! سلحفاة عملاقة!

- حسناً، أنا متأكدة من أن الأمر مثيرٌ جداً بالنسبة لك.. البحر والسلاحف والقنافذ السوداء! أنا متأكدة من أنك تستمتع كثيراً. أما أنا..

ساعات جلوسي الطويلة، وأنا أبحلق في متعتك الخالصة، أتضوّر في داخلي، أبتسم وألوّح

كالبلهاء، أتصرف كما لو كنتُ هناك، في البحرِ، معك، أسبح وألعب؟ تقول لي: لا يصح أن تسبحي لكي لا تلتصق ثيابك بجسدك. أنا زوج غيور. تقولها على سبيل التباهي.

قبل سنواتٍ وبخني صقر لأنني أردت أن ألمس البحر بقدمي. قدمي عورة. اليوم أيضاً لا أستطيع أن ألمس البحر ولا أن أتعمّد في مائه، للسبب ذاته، باستثناء أنك لا تتكئ على عكاز المقدّس، بل تقرر وحسب. لا شيء تغيّر. اختفت اللحية فقط.

صرتُ أنظر إلى الناس والناس ينظرون إليّ، إلى جسدي المغطى بالكامل، إلى أجسادهم العارية بالكامل، الأجساد المصقولة والمحمصة والمزيّتة، المجانية كالرمل والرطوبة والنخيل الاستوائي وزجاجات الكوكتيل. وحتى تلك اللحظة كان الأمر مقبولًا، لولا.. لولا أنك كنت تشير بيدك، مرة بعد مرة، وأنت في مايوه السباحة وجذعك مشدود وبطنك عارٍ، تشير لي لكي أنتبه إلى خصلة الشعر التي تسربت خارج حجابي: انتبهي! شعرك طالع!

أمام عريك الكثير، أمام لا منطقية الأمر، كنتُ غاضبة جداً، ولم يعد بوسعي أن أبتسم.

- اذهب أنت، اقضِ وقتاً ممتعاً. أنا سوف أبقى هنا، سوف أتفرّج على فيلم.

قيام الليل

لم أنم، لم أكن يائسة إلى الحدّ الكافي. نصف اليأس يعني نصف الأمل، يعني أن تفكر بالاحتمالات المهدرة في حياتك، قدرتك على أن تكون بشكلٍ مختلف، في مكانٍ مختلف أيضاً. ماذا لو كانت الأمور على غير ما هي عليه؟ «لو» تفتحُ عمل الشيطان. «لو» قاسية القلب.

تجوّلتُ في الغرف، فتحت الثلاجة ثلاث مرات، فرغت في داخلي علبة حليب بالشوكولاتة، توقفتُ طويلًا أمام النافذة، أنظر إلى القطط المتأهبة للانقضاض على بعضها بعضاً، إضاءات الشوارع، الأرصفة والسيارات القليلة التي كانت تمر. هناك دائماً حياة في مكانٍ ما.

تذكرتُ، عندما كنتُ أطرق باب غرفة والديّ. ماما رأيتُ كابوساً. غالباً كنتُ أكذب. لا كابوس ولا حتى نصف كابوس. كنتُ أريد أن أنام في السرير الكبير. تبتهج أمي كما لو كانت تنتظرني. تصنع لي فراغاً صغيراً بينها وبين أبي. أتمدد بينهما، أمي تمسكُ بيدي اليمنى، وأبي يمسكُ بيدي اليسرى. كلاهما ينامُ على الجنب الذي أرتاحُ له أنا، الجنب الذي يجعلهما يقابلاني تماماً. أنعسُ في تلك المساحة الصغيرة من الدفء، أحك قدمي بقدمِ أمي، ألف ذراع أبي على بطني وأوليه ظهري. ببطءٍ أغفو، مطمئنة بشكلٍ سخيف، وكأنهما لن يرحلا. اختلف الوضع قليلًا. قلتُ ذلك وأنا أبتسمُ ساخرة لانعكاس وجهي في النافذة. من أتعس سيدةٍ في البلادِ كلها؟

ربما يجدر بي أن أقرأ حتى أنعس. أن أبتكر بديلًا عن ذلك العناق الليلي، ترياق الأرق والكوابيس. الكابوس حقيقي في واقعي والنوم يتعذر. وكأن النوم هو اليقظة، وكأن اليقظة هي العقوبة. هممتُ بالعودة حتى تناهى إلى سمعي صوتُ ضحك. من يضحكُ الآن؟ من يقدرُ أن يضحك في الثانية صباحاً والكلّ نائم؟

وضحة؟ وضحة تضحك بعد أن أقنعت الجميع بأنها ذهبت إلى الفراش منذ التاسعة؟ صعدتُ إلى الطابق العلوي، على أطراف أصابعي، إلى باب غرفتها نصف الموارب. لماذا تركتهُ هكذا؟ هل هو إهمال، ثقة مفرطة، أم حرصٌ متناهٍ؟ ألصقتُ ظهري إلى الجدار بجانب الباب وأصختُ السمع. إنها تضحك! تضحك على الهاتف، ضحكة لا يخطئها التأويل ولا تتعدد في غنجها المعاني. في ترددتها أنوثة فضائحية ورغبة ساطعة. تهمسُ، تلحّ: لا تصير بايخ عاااد! بطّل زعل ولا ترى قسم بالله ما أدلعك مرة ثانية.

خلال دقيقة كنتُ في سردابي. أرتجفُ وكأن الأمر برمته خطئي. هذا إذن هو العالم الليلي

للابنة المثالية؟ وكل شيءٍ آخر كانت تفعله، استبسالها المستميت في سبيل إرضاء صقرِ وإبهاجه، هو لكي تمنح نفسها - عندما ينام الجميع - الغطاء الملائم، لكي تضحك ضحكتها الآثمة في ثلثِ الليلِ الأخير؟

في الصباح، تسألها أمها عن آثار السهر على وجهها: ما تشبعين نوم؟ من الساعة 9 وإنتي بالفراش! تمسحُ على جبينها بإعياءٍ، تخفض عينيها بكثيرٍ من التواضع، وكمثل العابد التقي الذي يخشى الرياء كانت ترد:

- أمس قمت الليل.

نبيذ

في ذلك اليوم، أقام صقر الدنيا ولم يقعدها، لأنه عثر في كتابٍ أقرأه على كلمة «نبيذ».. كان ذلك كافياً في نظره لجلدي أربعين جلدة.

انتزع الكتاب مني ومزقه ثم ألقى به تحت قدميّ. بعين يقيني رأيتُ أبطال الرواية، يتراكضون ذعراً أثناء الغارة، رأيتُ المذبحة، الأذرع والسيقان والرؤوس المفصولة عن أجسادها، وفردة الحذاء اليتيمة التي طارت في الهواء. لقد أبيدوا جميعاً.

صرتُ ألملمُ الأوراق وأنا أعتذر. أقمتُ لهم قبراً جماعياً، في أصيصٍ فارغ في حوش البيت، دفنتهم معاً.

في يومٍ آخر كنتُ أقرأ سأم باريس لشارل بودلير، وأتحسس الشكل السحري لقصيدة النثر، التي ولدت بلا رأسٍ ولا ذيل. صادف ذلك جولة صقر التفتيشية لغرفتي، أخذ الكتاب وسألني: وش ذا؟ ديوان. أمسك بالكتابِ من دفتيه مقلوباً كما لو أنه يمسكُ بطائر من جناحيه.. وسأل باستخفاف: هذا إللي يسمونه شعر آخر زمن؟ ولم أكن راغبة بأن أنبس بكلمةٍ أمامه، كان تركيزي منصباً على كيفية تفادي المواجهة والتخلص من وجوده بأسرع ما يمكن.

- والله ناس فاضية.

- خلصت دراسة، يعني أنا فاضية.

- قومي اقري لك كم آية أحسن لك وأنفع لآخرتك.

وفكرت بأسى: إنه لن يسمح لي أن أحب أي شيء في هذا العالم.

- القراءة مو حرام. القرآن يقول اقرأ.

- نقرأ القرآن ما نقرأ هرطقات بودلير وفولتير وزفتير.

- الحكمة ضالة المؤمن.

- عندنا كمسلمين ما يكفينا من الحكمة.

- لو كان الأمر كذلك فلماذا نحن أمة متخلفة؟

.لأننا نلهث وراء هرطقات الكفرة مثلك -

لفظها: "هرطقات الكفرة"، بكثير من الاشمئزاز، ويبدو أن الكلمة قد فعلت فعلها فيه، فسرعان ما انتفخت أوداجه وشرع يمزق الكتاب أمام عيني، كما لو كان ينتف جناح عصفور، والعصفور ينتفضُ مذعوراً. ثم ألقى به على الأرض وهو يؤكد لي: ستشكرينني يوماً، حتى لو كان هذا اليوم هو يوم القيامة.

بعد تلك الحادثة صرتُ أقوم بطباعةِ الكتب المقرصنة من الانترنت، وأغلفها بغلاف بلاستيكي شفاف في مركز خدمة الطالب، وأضع على الغلاف عناوين على شاكلة:

مهارات التفاوض 221 - د. أنسي الحاج

مقدمة في العلوم السياسية 101 - د. محمود درويش

الإدارة وأنظمة الحاسوب 301 - د. أمين صالح

كان صنع كتاب يكلفني في المتوسط 900 فلس، من ورقٍ وحبر وتغليف. وكانت سهولة الأمر تجعله مضحكاً، وتشعرني بالتفوّق. لقد خدعت أخي الكبير! أخي المستحيل والضخم كالجدران والدواليب وأحذية المطر.. لقد هزمته!

تايتانك

أنتِ .M&M سيعجبكِ العرض. لقد أثار ضجة في أمريكا. قالها وهو يضعُ في يدي كيس مستعدة؟ لندخل. كان مبتهجاً مذ علم بأنني لم أذهب إلى السينما منذ سبع سنوات. ولسببٍ ما لم أكن متحمسة. كنتُ متوترة، أخاف أن أفعل الأشياء بشكلٍ خطأ. ما هي الأشياء التي يمكن أن يفعلها المرء بشكل خطأ في السينما؟ مشيتُ معه وأنا متعلقة بذراعه، أصعد الدرجات وسط عتمة المكان وأسمع دويّ قلبي في أذني. إنني هنا فعلا وليس بإمكان صقر أن يمسني حتى. كنتُ أفكر في صقر، لا بالفيلم، وكان ذلك مؤسفاً. وتذكرتُ حياة، تذكرتُ تلك الليلة..

كنا قد قضينا ثلاث ساعاتٍ على الهاتف، ساهرتين بعد أن نام الجميع، لكي تقصّ علي حكاية الفيلم الذي اهتزت له أصقاع الأرض، الحائز على 11 جائزة أوسكار- الـ تايتنك. البحر والحب والموت والغرق. ثلاث ساعات وحياة تحكي، وأنا أنصت، تصف لي الثوب العنابي المغطى بالدانتيل الأسود المخرم والمطرز بالكريستال، مشهد الوقوف على طرف السفينة، جاك المقامر وروز المختنقة تحت وطأة المفترض والحياة الواقعة تحت سيطرة الآخر، تصف لحظة وقوف روز على طرفي إبهاميها وارتفاعها عن الأرض كما لو كانت تحلق، وتقسمُ لي: كانت تحلق والله يا فاطمة! هل تعتقدين بأنها حيلة سينمائية؟

- لا أدري يا حياة.

- ربما سحبوها من خيطٍ إلى أعلى؟

- وهل رأيتِ خيطا؟

- وإن كان ثمة خيط هل سيسمح المخرج بظهوره؟

- لا أدري.

- إنهم لا يتساهلون مع هذه الأخطاء.

- من؟

- الأمريكان. إنهم جادون جداً بشأن السينما.

- ومن أين لي أن أعرف؟

- إنك تعرفين ذلك الآن، إنني أقوم بتعليمك.

بعد ثلاث ساعاتٍ من السرد المفصل حتى أقصى تخوم الحكاية وجدتني أبكي ..

- ما بكِ يا فاطمة؟

- لا شيء.

- لماذا تبكين؟ حزنتِ على غرق جاك؟

- لا.

- لماذا تبكين إذن؟

- أفتقدُ أمي.

كان يتمي ساطعاً، فوسفورياً، يشعّ في وجهي.

منذها لم تعد حياة تقص عليّ الأفلام التي تشاهدها، وإذا سألتها كانت تلوح بكثير من اللامبالاة وتقول: آآآه.. فيلم ممل، أنت محظوظة لأنك لم تضيعي وقتك معه. هكذا كانت حياة تقاومُ يتمي.

بدأ العرض، مدّ فارس ذراعه حتى صارت تحاصر كرسيي من أعلى. على مهله كان يدنو، يقترب، يريد أن يريح ذراعه تحت رقبتي. أقصد: أن أريح رقبتي على ذراعه، أن يرتاح أحدنا للآخر. تصلّب جسدي. تظاهرتُ بأنني قطعة خشب، قطعة خشبٍ تتفرج على فيلم، ويده التي بدأت تبحث عن أصابعي، تضغطها معاً، تمسح على جلدي برفق، تملؤني بالأسئلة: لماذا لا أستطيع أن أتلقى محبة هذا الرجل؟

تفاحة فاسدة

واقفتان في منتصفِ الممر، في كليّة البنات في العديلية، الواحدة في مواجهة الأخرى. أنا وحياة نتشاجر. أصواتنا تعلو وأيادينا تلوّح. تقول !أنتِ مرتاحة لكونكِ ضحية

كيف يمكنك أن تقولي شيئاً كهذا؟ -

..إن من واجبي أن أصارحكِ -

تصارحينني؟ -

.نعم -

من عالمك المثالي الخالي من المنغصات؟ -

!أقول ما أراه -

ومن أنتِ لكي تقرري؟ -

أنا الشخص الوحيد في العالم الذي يحق له أن يقول لك شيئاً قاسياً - .كهذا

زفرتُ، فرّت دموع من عيني. مسحتها بأكمام عباءتي وأنا أرمق قميصها .السماويّ بكثيرٍ من الحسد: أحبُّ قميصك وأكره عباءتي

أعرف كم هي صعبة الحياة في بيت أخيك، ولكنني أعرفُ أيضاً بأن - ..بإمكانك أن تقاومي، وأنتِ لم

.تقولُ حياة، وهي عندما تقول تشعرُ بأن العالم ينطقُ من خلالها

..أنا لم أنفك -

ليس بما يكفي! دائماً نلتقي في كلّيتك. دائماً أجيئك أنا. أنتِ أجبن من -
..أن تخالفيه

تطالبني بالمزيد، وهي ترى الحياة فيّ تجفّ وتذهب.. وصقر الذي حدس دائماً بصوتها الملحّ الذي ينبثق من داخلي، كرر عليّ كثيراً بأنها: صديقة سوء! دون أدلة ولا براهين ولا قرائن كافية. كان النظر في وجهي يكفي لكي تثبت الشبهات. حياة تزودني بالرغبة. المرء على دين خليله وحياة .تفاحة فاسدة، التفاحة الفاسدة تسوّس كل التفاح

لم تعودي لزيارتي في بيتي. وجودكِ معي يجلبُ لكِ العار؟ هل أصبحتِ -
مثلهم؟

كلما طلبت مني حياة أن أزورها اعتذرتُ، لأن صقر لا يوافق. يقول أنا لا أرتاح لحياة ولا للطريقة التي أنشأتها عليها أسرتها. تقول لي: أزوركِ أنا. فأقول صقر لا يسمح. وأكون قد كذبتُ، فأنا لا أريد لها أن ترى السرداب .وأخسر ما بقي من كرامتي

إذا كنتِ تهربين في الليالي من أجل أن تدفني أزهاراً فلماذا لا -
تستغلين تلك الأحيان من أجل مجالستي في مقهى؟ ما الذي يمنعك؟

صقر لا يسمح بأن أرافق حياة إلى السوق، أو أجلس معها في مقهى، حتى لو كان ذلك بصحبة ذويها، ومذ عرف بأنها تدرس الأدب "الإفرنجي" كما يسمّيه وهو يردد عليّ بأنها ستخرب أخلاقي. حياة .تفاحة فاسدة

.إنني متمسكة بصداقتك بكل قواي، ولكنك لا تجعلين الأمر أسهل -

حياة النضال واليد الممتدة على الدوام بوردة أو أغنية. تحاصرني

بأسئلتها طوال الوقت: من سيعرفُ إذا حضرتِ أصبوحةً شعرية؟ معرض تصوير؟ إذا ذهبنا إلى السوق معا؟ وكيف سيعرف؟ وإذا عرف فما عساه يفعل؟ إنه لا يستطيع أن يعيد الزمن إلى الخلفِ ويسلب متعتكِ.

- قيدكِ ليس محكماً، وبوسعكِ أن تتفلتي منه أحياناً، إن كان بوسعك الحصول على إنشٍ إضافي من الحرية فافعلي، وإن لم تفعلي فعارٌ عليكِ..

هذا ما تقولهُ دائماً: إنك تبالغين في تقدير سلطته! أرد مدافعة: سهلٌ عليكِ قول ذلك..

حياة تدرس الأدب الإنجليزي دون أن يتهمها أحد بالتغريب والافتتان بالكفار، تقرأ شكسبير وفرجينيا وولف وتشارلز ديكنز دون أن تضطر إلى نزع أغلفة الكتب وإخفاء متونها تحت الوسائد، في بيت حياة، يستطيع الإنسان أن يحب الحياة، دون أن يتهم بالافتتان بالدنيا التي لا تساوي عند الله جناح بعوضة. في بيت حياة، الدنيا حلوة خضرة!

- إن هذه المسافة الشاسعة بيننا ليست من صنعي.

- ولا أنا.

قبل السقوط في حفرة اليتم، كنتُ بالكادِ أميز الفروقات بين حياتها وحياتي. كنا نشتري الأشياء ذاتها، من المتاجر ذاتها، نحب الأشياء ذاتها، والألوان ذاتها، نحاول تذويب كل الاختلافات الممكنة على أمل أن نتماهى، وكانت القوانين الصارمة التي ابتدعناها لحماية هذه الصداقة تقتضي - مثلًا - أن نأتي إلى المدرسة بذيل حصان يوم السبت، وضفيرة فرنسية يوم الأحد، أن يكون اللون الوردي هو المفضل لدينا، أن نشتري

نفس حقيبة المدرسة للفصل الدراسي، وأشياء أخرى من شأنها أن توحدنا أكثر. كان ذلك قبل يتمي بكثير. الاختلافُ - بعد كل ذاك التماهي -. جارح

تفضلين صحبة صديقاتكِ الجديدات على صحبتي، ليس عندهن إخوة - كبار مثل صقر.

بعد الجامعة صار لحياة صديقات غيري. من يلومها؟ وهل أجرؤ؟ أنا صديقة الكلية البعيدة والحسراتِ القارسة. إنني عبء حقيقي! وهي.. صار لديها شيماء وراوية وزينب، صديقات قادرات على الذهاب معها إلى السينما، زيارتها في المنزل، ومرافقتها إلى السوق، ومجالستها في المقهى، وحضور سائر المناسبات الاجتماعية، والحفلات والأعراس وأعياد الميلاد.. كل الفاكهة المحرمة عليّ في سبيل البقاء في الجحيم الذي يسمّيه جنتي.

- هذا ليس صحيحاً.

- بل صحيح.

- إنني لا أرى نفسي مؤخراً إلا وأنا أركض خلفك. افعلي شيئاً من أجلي.

- وماذا تريدين مني أن أفعل؟

- تعالي معي غداً..

نشقتُ، وأنا أمسح دموعي بأطراف عباءتي: إلى أين؟

- أصبوحة شعرية. في كيفان. الساعة 12:30. سوف أمرّ لآخذك.

حياة تفاحة فاسدة؟ ربما علي أن أكون تفاحةً فاسدة حتى لا يأكلني

أحد.

شاعركِ

كانت قاعةً صغيرة، لأن الشِّعر ليس سلعةً رائجة، لأن الشِّعر ليس سلعة. جلسنا في الصفّ الأوّلِ، وصار بإمكاني، لأول مرة في حياتي، أن أنصت إلى الشعر بصوتِ غيري، وأن أذوبَ في اللغة. كانوا ثلاثة شعراء، وشاعرةٌ رابعة، جميعهم طلبة، جاؤوا من كلياتٍ مختلفة، حاملين كراريسهم وأوراقهم البيضاء، ليلقوا علينا شِعرهم. كانوا يتشابهون، كلهم إلا واحد. الواحدُ الذي وحدهُ وضع هشاشتهُ على الطاولة، وجاهر بضعفه البشري، قال أنا خائف، أنا قلق، أنا مجروح. أنا لا أملكُ التماسك، والموسيقى في شعري تسمعها الرّوح لا الأذن. جاؤوا مدججين بكمنجاتِ اللغة وأوتارها الباذخة، وكانت له حنجرة عصفور، يقرأُ وكأن فمهُ يرعبه. كان نحيفاً، نصف أصلع ويحلق بقية شعره، له جبيُن عريض، يرتدي نظارتين بإطار أسود، له بشرةٌ حنطيّة، وعينان غائرتانِ، وحاجبان أزجّان ثقيلانِ وكأنهما ينوءانِ بثقلِ العالم، كان فمهُ دقيقاً وريقهُ جافاً، يرتدي بلوزة زيتية تشبه سجادة غرفتي، وعلى حاجبه الأيمن شقٌ يشبهُ الصدع في جداري. كان يشبهُ حياتي وكانت حياتي تشبهه، شِعرهُ عامرٌ باليتم والغربة، دون أن يكون يتيماً حقاً، ولا غريباً تماماً. عندما قرأ شعره، شعرتُ بأنه يستنطقُ الفجيعة الكامنة في داخلي، كانت الكهرباء المرتبكة التي امتدّت بيننا شيئاً خرافياً وهائلًا، ولا أعتقدُ بأن أحداً قد أنصت إليه في أصبوحة ذلك اليوم.. غيري. كان يقولني وكأنه فمي.

انتهوا جميعاً، كان آخرهم. صفق الجمهور الهزيلُ وشرع الجميع في لملمة أغراضهم والاستعداد للمغادرة. سألتني حياة:

- هل كان الأمر يستحق المجيء؟

!بالتأكيد -

:لكزتني في ذراعي وهي تشعر بالانتصار

.اسمعي كلامي دائماً -

.يبدو أنني سأفعل -

ما رأيك إذن؟ -

بأي شيء؟ -

.بكل شيء -

.الأخير أجملهم -

تقصدين عصام؟ -

.أظن أن هذا هو اسمه -

.إنه غامض. لم أفهم شيئاً منه -

.ابتسمتُ وكأنما سرّني أن أحتكر فهمه لنفسي

:داهمني بعض القلق

.فلنمضِ قبل أن يصل السائق. إذا تأخرتُ عليه سوف يقيم عليّ الدنيا -

.لا تقلقي.. سنعود فوراً -

وهممنا بأن نمضي، لولا أنها علّقت: مسكين "شاعركِ"، لا أحد يتحدث !معه

كان لكلٍ من المشاركين ثلةٌ تتحلق حوله للسؤال والتهنئة، كلهم إلا هو.

شدّتني حياة من يدي وقالت: تعالي نسلّم عليه! حياة المجنونة، تفعلُ ذلك بغريزة الأمّ التي لا تريد أن تكسر بخاطر "الشاعر الذي لم تفهم منه شيئاً". وهو.. هل كان ينظرُ إليّ؟ بصمت الجدران وقفتُ إلى جانب حياة التي أخذت تسهبُ في المديحِ، وتخبره بأنها تتمنى أن تقرأ له أكثر، وكلامٌ كثيرٌ آخر، جميل وغير حقيقي ومدفوع بنوايا طيبة، ثم اختتمت حديثها بأن أخبرتهُ ببساطة: وصديقتي شاعرة أيضاً! ارتفع حاجباه، غاضَ قلبي. هذه المرة وجه عينيه صوبي، صوبَ قلبي الذاهب في المفاجأة. شعرتُ بعريي وخفق قلبي. تأتأتُ: أنا لستُ شاعرة، أنا أكتب شخابيط!

- أحب الشخابيط.

قالها وابتسم. ثمّ كتب إيميله الشخصي على ظهر قصيدتهِ، ودسّ الورقة في يدي، ومضى. بدأ جذعي يرتجف، سألتني حياة: ماذا حلّ بكِ يا بنت؟ ولم أعرف بم أرد، كنتُ أرتجفُ كالمحمومة: برد!

ساعات ووجدتني أقرفصُ في قعرِ السرداب، في أعمقِ حفرةٍ من روحي. أتنفس بقايا العطر الحلو الذي اخترق حياتي ظهر اليوم، ينتشرُ فيّ الانتشاءُ. أقولُ لنفسي أريد أن أطيل التجربة، أريد أن تستمر القصيدة إلى الأبد، ممتدة بين ضفتين خرافيتين، مثل قوس قزح. سوف أبعث له برسالة الآن، سوف أنتصرُ لي وأبعث له برسالة كنت قد كتبتها في قصاصة، وطويتها وطويتها، ثم خبأتها في مرطبان عسل، وأخفيتُ المرطبان تحت سريري. صندوقٌ في بطنِ صندوق هو الشعرُ، أفضّ عنه سرانيته وأستله من جيبِ الخفاء، من بطنِ الحوت، من عينِ اليقين. أفتح شاشة الكمبيوتر. أكتب عنوانه البريدي، وفي الفرا غ الأبيضِ الكثير تسابقت أصابعي لكتابة أسطري الهزيلة من 14 كلمة:

قلبي ثقبٌ أسود"

يمتصُّ كل شيء

أنا فوهة العدم القاهرة

"أنا قيامة العالم

صفعة الأحلام

.كنتُ أتمنى لو يصفعني وينتهي الأمر

.صلّيتُ كثيراً من أجل تلك الصفعة

.سمّيتها صفعة أحلامي

لو أنه تجاسر وصفعني، لصار بوسعي أن أشير إليه بيدي وأقول بأنه لئيم، لو أنه كان صريحا في عدوانهِ عليّ لصار بوسعي أن أكرهه دون تردد، دون أن أشعر بأنني فاسدة من الداخل، مخفورة بالعقوق وعامرة بالكذب. لو أن يده تصفعني لكففتُ – ربما – عن المحاولة في أن أتسق مع عالم الوهم والجدبِ، وأن أسمّي تلك المحاولات تقرّباً إلى الله. لصار إحساسي بالذنبِ أقل، لأحببتني أكثر.

ولكنه لم يفعل، وأنا.. طوال سبع سنواتٍ كنت أتحاشاه، أهرب من بيته، وأعود.. كما يعود العصفور متكسر الأجنحة إلى القفص، لأن السماء كبيرةٌ عليه.

كنتُ بحاجة إلى تلك الصفعة لكي أصدق بأنني ضحيته، أتعطش إليها وأبتهل إلى الله كي يرزقني إياها، صفعة الأحلام، صفعة النهاية. متى تجيء؟ ولماذا لا يكون أكثر شفافية ورجولة في عدائه لي، بدلا من أن يردد علي «صوتك نشاز» كلما دندنتُ، أو يقول وجهكِ مضحك وابتسامتك مصابة بالشيزوفرينيا، أو يلحّ في القول بأنني موزة منقطة لا يرغب بها أحد، بأنني لستُ ذكية ومؤهلة لأن أقرأ وأفكر، بأنني أقل بكثيرٍ مما ينبغي لكي أنال استحسانه في أي شيء، فإذا لم أكن قادرة على إرضائه وهو مجرد أخ كبير، فكيف سأحصل على رضا الله في عليائه؟

لقد أخذتُ كلامه مثل وحيٍ منزل، بموجب اللحية والمسواكِ في فمه، كان صقر - في عقلي - يقول الحقيقة، الحقيقة التي تملؤني بالألم والوهن. لقد ران على قلبي ولم أعد أتبيّن نداء الهدى، لقد ضللتُ.

يا رب اجعله يصفعني، صفعة قوية ومدوية، على خدي الأيمن، تبدد الكابوس وتقذف بي في جحيم اليقظة. ابتهلتُ مراراً، ابتهلتُ لسنوات، دعوتُ الله أن يجعل يده ترتفع وتصفعني حتى

أتحرّر.

لم يخيّل إليّ بأن هذا الأمر سيحدث فعلًا، وسيكون ذلك أمام مرآى جمهور من الأكاديميين والأصدقاء، في أصبوحتي الشعرية الأولى.

.

صندوق البريد
الإلكتروني

رسالة:

أعتقدُ بأنك تغرفين من الجرحِ مباشرة.

لماذا لا ترسلين إليّ المزيد من شعرك؟

لا تقلقي، أنا أجيد السباحة.

على فكرة ما اسمكِ؟

أنتِ مضطرة إلى إخباري، وإلا فإنني سأناديكِ: قيامة العالم، قوة العدم القاهرة، وأسماء أخرى لطيفة من هذا النوع. آرتور رامبو كان يلقب أمه بـ «فم الظلام»، تعرفين بأن قصيدتك تشبه الفوّهة نفسها؟ فم الظلام؟

أنا لا أخافُ من الظلام،

إذن ما اسمكِ؟

رسالة:

لماذا لا تردّين؟

هل غضبتِ؟

كيف تبدين وأنتِ غاضبة؟ هل تحمر أذناكِ؟

هل تكسرين الأواني أم تقومين بغسلها؟

.جاوبي

:رد

.أنا أعيش داخل القصيدة، ومن هنا يبدو العالم كوهم

.أنت جزء من هذا الوهم، والأوهام تخيفني أكثر من الحقائق

.إنني أعيش منقطعة عن كل شيء، في سردابٍ خرافيّ تحت الأرض

.لقد فطمتُ الطفلة في داخلي

..هذا هو اسمي

:رسالة

أ فاطمُ مهلًا

..قبل بينكِ

.أعطني قصيدةً أخرى

:رسالة

!أنتظركِ هنا منذ ساعتين. هذه مهزلة

.واضح أنك بارعة في الصمت

كم ساعة تتدرّبين عليهِ يومياً؟

.قولي شيئاً لا يعجبني حتى أتركك وشأنكِ

..أريد أن أطفئ هذا الجهاز اللعين، إنه ساخنٌ ويشكو منّي

.منكِ

:رد

ماذا تريد؟

:رسالة

.أريدُ منكِ ما يريده شاعرٌ من قصيدة

.أريدُ أن أحب الشعر من خلالك

.أريد أن أطرحك، أكتبكِ، أبكيكِ، أمزقكِ، أسبركِ، أسافرُ في دمك

.أريد أن أسكنك

،أنا أقبّل قصائدي أحياناً

..أحرقها أحياناً

.الأمرُ يعتمدُ على جمالها

.ما أريدهُ منكِ هو كل شيء

:رد

،مؤثرٌ جداً

.كدتُ أصدّقك

.كانت هذه الرسالة الأخيرة

استدراك

.ستة أشهر وأنا متناقضة. منقسمة من المنتصفِ تماماً، سؤالٌ مزروعٌ في خاصرتي

.عقلي يؤكدُ لي بأنني نجوتُ، قلبي يقول: بل هلكتِ

خلال هذه الأشهر صرتُ أكثر ليونة. بدأ قلبي يفنّدُ حججي، واحدة تلو الأخرى. لو كان رجلًا سيئاً، لو كان "ذئباً".. لما جرحتهُ الإساءة. لقد سددتُ إليه، برأس قلمي، ضربة دقيقة في .المكان الأكثر حساسية: في قصيدته

ورغم أنني أتضوّر في داخلي إلى كلماته، إلا أن حذري غلبني. كل الرجال مشبوهون، هكذا يقول صقر، كل رجل هو "ذئب" وكل فتاة هي "نعجة". الحذرُ واجب فقد يكون الأخ الكبير .محقاً في النهاية

في ليالي الوحدةِ الحالكة، رحت أتملى في عتمةِ المكان وأوقدُ الذكرى مؤونةً للحنان، كنتُ أتساءل إن كان يفكر بي أيضاً، إن كان يتذكرني حتى، إن كنتُ أعني له -رغم غطرستي .وصمتي - ما يعنيهِ هو لي

لقد كان كل شيء، كل ما يمكن أن يكون جميلًا وحانياً في حياةٍ قاحلة. ورغم تعنّتي ورفضي وعنادي إلا أنني لم أشك بشأن ذلك لحظة. ووجدتُ نفسي أحتضنُ وسادتي بقوةٍ وأنا أستعيد ذكرى لقائي به، يوم كان يقرأ قصيدته وعينهُ تنظرُ إلى قاع روحي، عينه العميقة بشكلٍ مخيف، .ليلٌ من الأسرار والموسيقى، مسكوبٌ في روحي

فكرتُ فيه كل يوم، طوال ستة أشهر، حتى شعرتُ بأنني أعرفه. قرأتُ رسائلهُ مراراً وانتشيتُ، ارتخيتُ، أسقطتُ عني جلدي السميك الذي يعصمني من العالم، قلتُ لنفسي: لا بأس إذا تنازلتِ قليلا عن احترازاتك، إذا خاطرت وعرضتِ نفسك لضربةٍ أخرى، ماذا سأخسر؟

وفي كلّ مرة كنتُ أقرأ سؤاله الغريب عن لون أذني وأنا أغضب، كنتُ أشعر بأنني أكثر الفتيات حظاً، لأنني أعيش منذ سنوات في هذا البيت دون أن يكترث أحد لما أحس به، وما أحتاجه، وإذا ما كنت أتعشى قبل أن أنام أم لا. والآن يأتيني هذا الغريب ويسألني عن تفصيلٍ لا أعرفهُ فيّ، هل تحمر أذني عند الغضب؟

كان شبق الرجل في داخلِهِ إلى دراستي، تشريحي من الداخل والخارج، شيءٌ يفوق أكثر خيالاتي جموحاً. أغمضتُ عيني وتخيّلتهُ مراراً، صورة مُقتطعة من صورة. يدُ تمسك مقبض

الباب، عرقٌ في جبين، رمشٌ على خد، ندبٌ في الحاجب وجرحٌ جافٌ في الركبة اليسرى، عرجٌ طفيف، قهوةٌ سوداء. أشياء كثيرة، لا أدري إن كنت اصطنعتها بمخيّلتي أم رأيتها بعين يقيني.

مرّت ستة أشهر وأنا أحتفظ به في داخلي، مثل سِر، مثل ذنب، مثل قصيدة، مثل الشيء الوحيد الذي يجعل الحياة ممكنة. خبأته في جفوني، مؤونة لروحي، وكلما أفرط العالمُ في البذاءةِ، كنت أستخرجهُ من جيبِ قلبي، مثل تميمة.

وقد كان بوسعي أن أكتفي بما حظيتُ به منه، بضع رسائل متعاقبة، علاقة انتهت قبل أن تبدأ، الكهرباء في جسدي، الخدرُ على حافةِ الشعر.. كان بوسعي أن أكتفي، وأن أشكر الله لأنه منحني خمس رسائل تجعلني أصدق بأن الحياة يمكن أن تكون بشكلٍ آخر.

مضت ستة أشهر..

رسالة:

اسمعي هذه الحكاية.

هذه حكاية شاعرٍ قرر أن يكتب حكاية، ولأنه لا يعرفُ كيف تُكتبُ الحكايا، فسوف يقول لكِ مثلما تقول له جدته: كان يا ما كان.

كان يا ما كان، كان هناك شاعرٌ قرّر أن يكتب حكاية.

إنه يكتبها الآن.

كان هناك شاعرٌ لا يقرأه أحد، شاعرٌ لا يراهُ أحد، قرر أن يشارك في فعالية ثقافية سخيفة، وأن يجلس على منصةٍ سخيفة. في ذلك النهار، اختلط الشعر بالشعير، كان الشاعرُ لا مرئياً، وكان يدفع ثمن قراراتهِ الغبية، في غرفة «سيمينار» جامعية، مساحتها 7*7 متر مربع، فيها أحد عشر شخصاً، لم ير الشاعر عشرة منهم، بل رأى واحدة، واحدة فقط، الواحدة التي رأته، والتي جعلتهُ مرئياً.

منذ هذه اللحظة صار في القصة بطلة أخرى،

.«صار لدينا الآن «الشاعر» و»الواحدة

قرأ الشاعر قصيدته، وكان يشعرُ - على نحوٍ غير مسبوق - بأن الكلمات تخرجُ من فمه وتتشكّل في الفضاء المحيط، يصير لها طول وسمك وعرض، رائحة ومعنى وموسيقى، ورأى.. لشدة دهشتِهِ، كلمات قصيدته وهي تسيلُ على خدّ «الواحدة».. وتحطُّ في مسام جلدها. رأى كلماته مرتاحة إلى الواحدة أكثر مما هي مرتاحةٌ إليه، تحبها أكثر منه، تطير إليها، تجلسُ على أطراف أصابعها، تعشعشُ في رموشها، ترفض الخروج. لأول مرة، رأى الشاعر، بأن الكلمات التي تغادرُه لا تموت، بل تُبعث. وتحقق أخيراً من نفسهِ، مما ظن عليه نفسه، وصدّق .لأول مرة في حياتِهِ ذلك الصوت في داخله الذي أخبرهُ بأنه شاعر

عندما اقتربت «الواحدة» من الشاعر بعد ما انفضّ الناس، ورغم أنها لم تقل شيئاً يذكر، شعر بأن الكون كله في صفه، يهبهُ الواحدة التي جعلته مرئياً وشاعراً مرة واحدة. لقد كان واثقاً من نفسهِ كثيراً، كثيراً جداً، لأنه رأى الأمر كعلامة، بأن العالم ينحازُ له لأول مرة ويمنحه شيئًا يريده، يمنحه تلك الواحدة. عندما عرف بأنها شاعرة، خيّل إليه بأن الأمرَ أجمل من أن يكون حقيقياً، وقال يجبُ أن أرى الأمر بعيني، وعندما أرسلتْ إليه قصيدة كتبتها، من أربعة أسطر فقط، تلمّس في باطنها كهوفاً سحيقة، تشده من أذنيهِ لكي يدخل، وقال في نفسه: هي ليست .فتاة حلوة الوجه وحسب، بل هي تكتبُ شعراً كالسكاكين

هذا صحيح، يعتقدُ الشاعر بأن الواحدة حلوة. والآن لنكمل الحكاية بعد هذا الاستدراك .السخيف

لم تتوقع الواحدة أن يقوم الشاعر بتلك القفزات البهلوانية المضحكة، أن يكتب إليها وكأنه يعرفها منذ سنوات، يتوق إلى معرفتها منذ سنوات. الأمر غير منطقي، إنها محقة. تعتقد الواحدة بأن الشاعر يبالغ أو يكذب، تسأل الواحدة: متى اكتويت هكذا؟ متى؟

يبدو أنها لم تنتبه إليه كفاية، فهو شاعرٌ ولا يحتاج إلى وقتٍ طويل لكي يفهم افتتانه. ولكنه أرسل إليها أشياء سخيفة، كان يظن نفسه مضحكاً. لقد فعل الأمر بشكل سيء، رغم أن نواياه طيبة جداً، وهو يكتبُ اليوم هذه القصة، التي هي قصته، بعد ستة أشهر من المكابرة والعناد، .لكي يقول شيئاً واحداً: أنا آسف يا فاطمة

.عصام

رد:

عزيزي عصام،

لا أعرفُ إن كانت أذني تحمرٌّ عند الغضب،

لقد كدتُ أنسى بأن لي أذن.

لا أكسرُ الأواني،

لا أغسلها،

وعندما يتكسر وجهي في المرآة

أشعر بأن خارجي هو داخلي.

زجاجة روحي مشروخة،

الكتابة صمغ

إنها تشدّ بعضي إلى بعض،

تجعلني أنجو،

وأهلك أيضاً.

أكتبُ وحسب،

أكتبُ نصوصاً هزيلة على قاع علبة «كلينكس»

كإجراء احترازي لأي غارة تستهدفُ دفاتري.

الأشياء التي أكتبها تشبهني،

.أنا نشاز

:رسالة

.عزيزتي فاطمة

من فرطِ الكتابة، نفر عرقُ صغيرُ في إبهامي، ثم تفرّع إلى اثنين، وصار شيئاً يشبهُ التقاء َدجلة بالفراتِ، ومنذ ذلك اليوم وأنا سعيدُ بالنّهر العراقيّ في أصبعي، أرفعه في وجهِ العالم و"أصرخ بالخليج يا خليج! يا واهب المحارِ والردى". السيّاب ينفرُ من دمي.

،عندما أفعل ذلك تضحكُ أمي. أبي يقول جنّ الفتى

.أقول له لو أن الفتى حجر؟(3)

،أنا أكتبُ على ورقٍ غير مسطر

أخلخلُ القوافي

.أدوس ميزان الشعر وأحتفل بتوّهجه المحض

:سؤالي لكِ اليوم هو

هل كتبتِ شعركِ هكذا، مرسلًا ومسدلًا.. منذ البداية؟

.صباح الخير يا فاطمة

:رد

.صباح الخير يا عصام

على الطاولةِ التي أجلس إليها الآن، شاشة كمبيوتر، موزة منقطة، كتب منزوعة الأغلفة، مناديل ديتول، فتات بسكويت، وجثمان نملة. إذا كانت الأشياء هكذا، ترتاحُ إلى غرابتها ولا تمانع أن تتجاور رغم كل الاختلاف، فأنا أريد أن يشبه نصي هذه الطاولة. العالم مفكك ومرتبك، وكذلك هو شعري.

القوافي، الأوزان، ليست لارتباكي ولا لهشاشتي،

أنا أنكسر على طول النّص، وأمشي مرتجفة.

الشعرُ الذي أعرفهُ لا يشبه الشعر المتعارف عليه،

إنه أكثر التباساً.

عندما قرأ أخي مرة سطوراً لـ بودلير

أطلق ضحكة رنانة وسأل: هذا شعر آخر زمن؟

إنه على حق.

أنا أنتمي إلى الزمن الآخر الأخير.

الزمن الذي يسبق نهاية العالم بخمس دقائق.

الشعر الذي أكتبه يشبهُ الفسيلة التي تغرسها قبل أن تقوم القيامة.

أخي ما زال يلعنُ السيارة ويمتدحُ البعير.

لا أدري أينا على حق.

نعم، لقد كتبتُ هكذا دائماً،

.كلما ضاقت الزنزانة اتسعت القصيدة

:رسالة

.مساء الخير يا فاطمة

أعرفُ شاعراً كتب مذكراته في السجن، وهرّبها في ثيابِهِ الداخلية، ثم اكتشف لاحقاً بأن ما كتبه كان شعراً. لا أعرفهُ بمعنى أعرفه، ولكنني قرأتهُ كله، هذا الشاعر الذي اكتشف الشعر كما اكتشف نيوتن قوانين الجاذبية، هل تعرفينه؟ هل تعرفين محمد الماغوط وذعره وشعره؟ يبدو .أنك مثله يا فاطمة

يرعبني أنكِ حقيقية إلى الحد الذي تكتشفين فيه القصيدة في داخلك في الصيغة الأكثر بدائية. أنك تكتبين كما لو أنك تمدين يدكِ صوب شجرةٍ محرّمة، تستحضرين مأساة الإنسان .الأولى، وسقوطه ورعبه

أما أنا، فقد كان علي دائماً أن أستعيد كلاما لسوزان برنار وبودلير، أن أحفظ رسالة الرائي لرامبو وأقتبس من أدونيس وأنسي الحاج وقاسم حداد، كان عليّ دائماً أن أبرر الشكل .الفوضوي الذي تجيء عليه قصيدتي، فهناك - على ما يبدو - صكوك لكلّ شيء، حتى للشعر

إنني أبحث عن "شرعيتي" المفترضة في العالم الخطأ. أحاول أن أقنع بشراً لا يقرؤون بأن .الشعر يمكن أن يوجد في أي مكان، حتى في النثر

أنتِ يا فاطمة لم تضطري إلى كل هذا، أنتِ تكتبين جوهركِ، أنتِ اكتشفتِ بنفسك، ومن .زنزانتك، بأن قلبك هو حجر الفلاسفة

:بالمناسبة

عندما تقولين "زنزانة" فهل تعنين: زنزانة؟

أعني: زنزانة؟

:رد

(عنبر رقم 13)

بين زنزانة زيدٍ وزنزانة عمرو

لأنهما يتضاربان على طول كتب النحو

وعرضها..

ثمة مروحة مشنوقة إلى السقفِ

لم يفكر أحدُ بمنحها

جنازة لائقة.

لدينا أيضاً

وِحدة التكييف الـ «ميتسوبيشي»

يسيلُ ريقها على وجه الجدار

الجدارُ لا يمانع

إنه يتصدع وحسب.

كتبي عاريةٌ،

خلعتُ عنها جلدها

ووعدتها بأن أغلفها بورقِ هدايا مشجّر

لم أفعل.

جدارية «درويش»

غلفتها بورق طباعة أبيض

وعلى الطابع اللاصق كتبتُ:

«مقدمة في النظم الآلية»

101

في الساعةِ التاسعة ليلًا

يتحتمُ عليّ أن أطفئ الجهاز

حتى تشرق الشمس

يقولُ أخي

بأنه موعد قدوم الشياطين

إلى الحواسيبِ المضاءة

لأن الفضاءَ السيبيري

ينقلبُ إلى حانة

أقول لنفسي:

لو كنتُ سندريلا

لحظيتُ بثلاث ساعاتٍ أخرى

قبل أن يزول السّحر

وتنطفئ الملهاة.

أنا لستُ سندريلا.

،عندما أقول زنزانة

:فهذا ما أعنيهِ تماماً

..زنزانة

.(الأخ الكبير يراقبك»(4«

:رسالة

،إنها الواحدة بعد منتصف الليل

أين أنتِ يا فاطمة؟

!أنا ضعيف، أنا هزيل، أنا أموتُ من البرد

أين ذهبتِ؟ هل نمتِ؟ وكيف يمكن أن تنامي هكذا؟

هل تحلمين، وبمن؟ وماذا عني يا خائنة؟

كيف تبدين وأنتِ نائمة؟ هل تضعين ذراعك على عينيكِ؟ هل تتركين فمك نصف مفتوح؟ هل يرتجفُ جفناكِ؟ هل تتركين زراركِ العلويّ مفتوحاً؟ هل تنامين على جنبكِ الأيمن، أم الأيسر، أم !على بطنك؟ كيف تبدين الآن؟ قولي

أريد أن أكون أكثر مما أنا عليه، أحتاجُ أن أتسلل من فتحات التكييف، أن أحفر بالملعقة خندقاً يصلني بكِ، أن أجلس على حافةِ سريركِ وأن أتملى فيكِ، في اهتزازات جفنيكِ، ضروري جدا .أن أرى اهتزازات جفنيكِ. أريد أن أرتشفكِ يا فاطمة

.إنني أفكر فيك وأنتِ نائمة، والعصاراتُ الكاوية تحرقُ باطني

.أشعرُ بأن العالمَ غير عادل. أنا عطشانُ وجائعُ وأرقُ يا فاطمة وأنتِ نائمة

.ظلم أن أكون هنا وأنتِ هناك

.تباً لكِ

:رسالة

،إنها الرابعة صباحاً

.أردتُ أن أخبركِ بأنني لم أنم بعد

:رسالة

.السادسة صباحاً

.قرأتُ رسائلنا عشرين مرة على الأقل

أنا دونكيشوت؟

:رد

.إنها السابعة صباحاً، وليس عندي وقت كثير

.محاضرتي الأولى تبدأ في الثامنة وعليّ أن أسرع

،أردتُ أن أخبرك فقط بأنني - مثلك - لم أنم

.ولكنني لا أتذمر ولا أشتم

.أنا ممتنة لأرقي

.صباح الخير أيها الشاعر

رسالة:

لا أعرفُ ما الذي يعتريني.

أنا مصابٌ بلوثةٍ ما.

لم أعد أكتفي برسالة، أنتظركِ أمام الشاشة لساعات، وأكرهُ أنني أنتظرك.

حدثيني عن يومكِ، حدثيني عنكِ.

عندي في اللوحة فراغاتٌ كثيرة، تفاصيل من الضروري أن أملأها حتى أفهم الأشياء في داخلي.

أحتاج أن أعرف عنكِ أشياء أكثر من اسمك. ماذا تدرسين؟ ما هو معجون الأسنان الذي تفضلينه؟ ما هي طبيعة علاقتك بدودة القز؟ ما هو المسلسل الذي تتفرجين عليه؟ هل تكتبين على الورق أم على الكمبيوتر مباشرة؟

هل عندكِ بيجاما برتقالية؟ هناك بيجاما برتقالية لعينة تسكن رأسي منذ الأمس، من أين أتت؟ جاوبي.

هل تفوح من يدكِ رائحة معينة؟ نعناع؟ هيل؟ عود؟ مسك؟ مرق؟ أي شيء.

ما هو عطركِ المفضل حتى أشتريه، حتى أسكبه على وسادتي، حتى أحب اللعين الذي صنعه؟ حتى أغار منه؟ حتى أقتله؟

عندي فراغاتٌ كثيرة، كثيرة،

كوني بنتاً طيبة واملئيها لي.

هيا.

رد:

أنا أقل مما تظن

الفراغات تملؤني بالطول والعرض

أنا رقعة شطرنج.

كلما جئتَ جميلًا،

تكشّف قبحُ العالمِ أكثر.

أخافُ أن أعتادك

أخافُ ألا أفعل.

رسالة:

كنتُ أتفرّج على فيلم،

الفيلم عن رجلٍ ملاح،

الرجل الملاح أخرج الخارطة من الدرج ووضعها على الطاولة

الخارطة التفّت على نفسها.

لقد وجدتها يا فاطمة:

أنتِ خارطة.

لماذا تنطوي الخرائط على نفسها؟

أنا بصدد اكتشاف ذلك.

أنا ملاح.

رسالة:

أفاطم يا ترب النجوم تركتني

منادمها ليلا ولست بنادمه

فها أرضعي من درّ ريقك هائماً

جوانحه حول المواردِ حائمه

ولولا محالات المنى ما وجدتِني

أروم رضاعاً منكِ واسمكِ فاطمه(5)

رسالة:

يا فاطمة،

إلى أي حدٍ بوسع شاعرٍ أن يحبّك

أن يقول "أحبك"

دون أن تنكفئي على نفسكِ

هكذا؟

رد:

إلى أي حدٍ بوسع المرء أن يحدّق في الهاوية؟

.لا يجب أن نسمح للحبّ بالحدوث

.الحبٌّ هو الجرمُ، وهو العقوبة أيضاً

عقوبة ماذا؟ جريمة السماح للحبّ بأن يحدث. كيف يسمح لخطأٍ كهذا أن يقع، أن يلوّث المكان ويعكر نقاوته ويستخرجه من عدميته ورهبانيته القسرية وفراغه الذي لا يُحتمل؟

الحبّ استجابة الحياة للحياة. استجابةُ الحياة للصوتِ المنبثق من أعماقها. من شيمة الحياةِ ..أن تحيا

كيف لا يكون الحب جريمةً وهو استجابةٌ للنداء؟ خروج ثوريٌّ على العدم، استجابةٌ لزهرة .الحياة الدنيا رغم فنائها الحتمي وقصر عمرها المثير للأسى

كيف نسمح به؟

«..الحبّ.. أعزك الله»

.جفف منابعك يا ابن حزم. إنهم لا يقرؤون

:رسالة

،مساء الخير يا حلوة

اليوم وصلني اتصال من نادي الكتاب. إنهم لا يكفّون عن توجيه الدّعوات، وإقامة الجلسات، والتخطيط للمزيدِ والمزيدِ من الأماسي. عندنا في الكويت عشرات الأندية القرائية وليس عندنا :قرّاء. قلتُ لنفسي، محبطاً من ردّك غير المطمئن

.سأذهب لحضور جلسة اليوم، ربما أتذكر كيف كان العالم قبلها، ربما أحبها أقل -

جالساً هناك، غاطساً بكلّ جسدي في عُمقِ الأريكة الجلدية في مقهانا المعتاد "ذي كوفي بين"، وفنجاني في يدي، وقهوتي سوداء كما أشتهيها، تابعتُ سئماً ذلك الجدال السقيم الذي

لا ينتهي عن شرعية وعدم شرعية قصيدة النثر، كان كل واحد من الأعضاء يحمل في يده ديواناً لـ دوريان لوكس، ودوريان لوكس كانت سئمة وحزينة مثلي.

ثم انتبهتُ إلى أنني لم أعد أنا، بأن هذا الموضوع تحديداً والذي كنتُ "أسبح" فيه بكل عضلاتي النقدية وتاريخي القرائي لم يعد جذاباً بالمرة، لقد صار الشعر حقيقياً أكثر من أي وقت، والأشياء الحقيقية لا تريد اعترافاً رسمياً من السلطات المختصّة.

ثمّ فكرتُ: لو كانت فاطمة هنا، معي، في هذا الكرسي القريب مني، لو كانت تجلس على يميني، خجلة ومنطوية على ذاتها وهي تمعن في إخفاء الكون الأبدي في قلبها؟ لو كنتِ بجانبي يا فاطمة؟ لو تلامست ركبتانا بالخطأ، أو ربما عن عمد؟ لو اخترقتُ هذا الغشاء الجليدي الكذاب الذي تغلفين به حضورك؟ لو.. لو..

اهتزّت يدي وطارت قطرة قهوة..

قميصي شاهدُ علي من أهلي.

رد:

أمامي ساعةٌ واحدة قبل أن يُفصل اتصال الانترنت،

هذا آخر شيءٍ سأكتبه لك اليوم.

هنا، في العنبر 13، بدأ الحرّاس يلاحظون اختلافاً فيّ، فشلتُ في مداراته. هل حدثتك عن الحراس من قبل؟ عن عسس النص؟ عن حملة المشانق إلى القصيدة، عن مرتزقة النظام؟

الأسئلة تطاردني وتحومُ حولي، تطفو فوق رأسي مثل عمامةٍ من دخان. لا دخان بلا نار. يقول العسس الواثقون من الذنب قبل ارتكابه: ماذا تنتظرين ولماذا تلمع عيناكِ هكذا؟ ما الذي تغير في مشيتك؟ كيف استقام ظهركِ المقوّس، لماذا تورّدت ابتسامتك؟

الفرحُ مشبوه.

قرأتُ رسالتك وأنا أموتُ من الغيرة، مقهى وشعر ودوريان لوكس؟ أحسدك تقريباً.

كن ممتناً للقهوةِ والصداقة والنادي ودوريان لوكس، إن قراءة أبسط الأشياء في رسالتك، قدرتك على الحركة، على السأم، على الدخول في محاورة عن الشعر، على الانغماس بجسدك في أريكة عملاقة، كل هذه.. هذه الأشياء الجميلة تشعرني بموتي.

حزني طويلٌ،

كهذا الليل الذي ينشجُ داخل صدري.

ليتك لم تكتب لي.

ليتني لم أولد.

رسالة:

سأغضب عليكِ يا فاطمة. سأغضب حتى لو انكفأتِ وانطويتِ والتففتِ على نفسكِ مثل خارطة، مثل دودة قز، مثل قنفذ لعين. سأغضب منكِ ولأجلكِ وعليكِ! سأقسو بكلّ الحبّ يا فاطمة.

رسائلكِ تشعرني بأنني أجهلكِ وهذا يغضبني. وأعرفُ بأننا نتراسل منذ أيامٍ فقط، ولكن الغضب عليكِ من حقي. أريد أن أعرفك كلّكِ.

وأعرف بأنني أعرفُ حقيقتك الداخلية، حقيقتك الدالية، أعرفُ جوهركِ وأغمض عيني وأتخيل بأنني أتغلغلُ في مسامك وأنزلق في وريدك، أجلس مرتاحا في جيب قلبك الأيمن، أشعر بأنه ليس ثمة ما أجهلهُ فيكِ، ولكنني في الوقتِ نفسه أجهل كل شيءٍ عن ظروفكِ، وتكتبين لي عن "سرداب خرافي" وعن "العنبر رقم 13" وعن وحدة التكييف الميتسوبيشي و.. أتخيل للحظة - ولتغفري لي- بأنكِ تجنحين صوب المجاز، ثم.. ثم أقرؤك، هكذا بغتة، بشكلٍ مختلف، مفاجئ، أرى حقيقة أخرى، أرى.. أرى ألمكِ يا فاطمة، أحس به، أمسك به بيدي وأحسّ به حاراً، يلسعُ أصابعي، أحسّ بأنك تتألمين ومع ذلك لم تجدي في نفسكِ الجرأة لكي تكتبي لي، لكي تفضي، لكي تريحي رأسكِ على كتفي، على كتفِ قصيدتي.

!أحبّك يا فاطمة، أيتها البائسة الصغيرة

.وأكثر مما يمكنك أن تذهبي به في قصيدة

.أنا غاضب

:رد

،صباح الخير أيها الشاعر النهر

،صباح الخير يا خليج، يا بهيج

.يا واهب المحار والشعر

.عندي محاضرة بعد ساعة ونصف

.أنا طالبة في «كلية البنات» وليست هذه رغبتي

..سوف أتعلم معك، منك، أن أفضي

.سوف أفضي، أفضفض، أقول، أبوح، أشكو، أفتح فمي

:لقد بدأتُ اليوم

.أنا طالبة في كلية البنات وليست هذه رغبتي

.انتهى

:رسالة

طالبة في كلية البنات؟ رسالة من 8 أسطر لكي تخبريني بأنك تدرسين في كلية البنات؟

،بهذا المعدل سوف يستغرقني الأمر من 3 إلى 4 سنوات حتى أعرف عنكِ كل شيء أريده

وبالمناسبة أنا متفرغٌ لكِ تماماً

.أمامنا حياة كاملة

:سؤال هذا اليوم هو

كيف يمكن أن تكوني ضعيفة في البوح

رغم كونكِ شاعرة؟

:رد

:يقول ابن منظور

،البوح ظهرُ الشيء

.وباح بالشيء: أظهره، وأباح الشيء: أطلقه

فهل هذا هو الشعر؟

الكتابة ليست بديلًا عن الصديق الذي يجيد الإنصات، ولا عن الطبيب النفسانيّ، أو الكاهن الذي يتلقى الاعترافات. وإذا كان ابن الملوح لم ينشد الأشعار إلا تداوياً، فلنتذكر - حباً بالله - .بأن الأشعار قتلته

.الكتابة ليست وسيلة لتفريغ الاحتشادِ النفسي، بل هي تصنعُ الاحتشاد وتؤكده

.الكتابة فائقة على الحياة. إنها تجاوزٌ لها

.الكتابةُ ليست إشارة إلى الجرح، بل صناعة مستمرة له

.الكتابة حركةٌ لولبية نحو الأفق، وليست جلوساً طويلًا على كرسيّ العيادة النفسية

الكتابة فعلُ إنصاتٍ أكثر منها فعل بوح، وفي منطقةٍ ما.. وسيطة، يتخلق النّص، وكلما نأيت بنفسك عن نفسك، ويمّمت شطر العالم الذي يوجدُ في داخلك، كلما صرتَ شاعراً.

الكتابة ليست انكفاءً،

وليست انبساطاً.

إنها رقصة البين بين.

أنا سيئة في البوح،

ولكنني أكتبُ الشعر.

إنني أرقص.

رسالة:

اللهم لا اعتراض.

وماذا بوسعي أن أفعل بكِ أصلًا، وأنت تستعصين على طول الخط؟

تفرضين قوانينكِ، تقطّرين وجودكِ في فمي نقطاً نقطاً كالدواء..

اكتبي شعركِ، شعركِ الفادح.

أسدليهِ هكذا، على كتفيكِ، على قلبكِ

ادلقيهِ بعناية،

أطلقيه..

.مثل جدولٍ تمرد عن النهر، ومضى يمجد فضيلة الانحراف

.اكتبي شعركِ، رقصتكِ، أنوثتك، وجعكِ، نحيبك وأغنيتك

..اكتبي يا فاطمة، ولكن

.بوحي لي أحياناً

.سوف أجلس هنا وأنتظر

:بالمناسبة

.كانت رقصة فاتنة

:رد

يخيّل إليّ أحياناً بأنني أرى العالم يعضّ على طرف ثوبهِ ويركض حافياً. على الرمل، يركض حافياً.

وعندما أراه يركضُ هكذا أتساءل: أين نعله يا ترى؟ أين أضاعها؟ أين نسيها؟ ثم أفهمُ حقيقة الأمر، حقيقة العالم: العالم ألقى نعلهُ وهرب.

.أنا نعل

:رسالة

أنا عالقٌ بكِ

.أنتِ عَلقةٌ في القلب

،إنني أنتظرُ، كل يوم، مع كل رسالة وكل كلمة وكل حرف

أن تتفتحي، وأين يحين ظهوركِ الكاملُ في حياتي، مثل وردة ريلكه التي تستريح داخل ذاتها، .(تويجا فوق تويج(6

اليوم تحدثتُ عنكِ مع أمي، قلتُ لها بأنني التقيتُ فتاةً هي في الحقيقة قصيدة، وبأننا نتراسل. قلت لها بأنك الشيء الوحيد القادر على ترميمِ نقصي، وبأن عليها أن تكفّ عن تدوين أسماء البنات في دفترها الأسود الذي تأخذه معها إلى كل حفلات الزفاف مثل مبعوثة جنائز، .وأن عليها أن تكتب اسمكِ فقط: فاطمة

سألتني أمي أشياء كثيرة. هل هي من بنات النادي أم الكلية؟ ماذا تدرس؟ هل هي محجبة أم سافرة؟ طويلة أم قصيرة؟ بدوية أم حضرية؟ شيعية أم سنية؟ من هو أبوها ومن هي أمها وما اسم جارهم السابع؟ وعندما أخبرتها بأنني بصددِ اكتشاف ذلك في السنوات الثلاث القادمة، نظراً للبطءِ الذي لا يغتفر في قدرتي على اكتشافكِ، قامت من الطاولة وهي تعتقدُ بأنني أسخرُ .منها

أمي تُحبّ أن تضع الأشياء كلها على الطاولة من البداية، وأن تلعبَ مع العالم (عَ المكشوف) كما نقول، تبدأ برمي هذا وإلقاء ذاك وتحافظ على بعض الأشياء.. إنها براغماتية جداً، عملية .بشكل لا يحتمل، والتشخيص الوحيد لديّ لهذا المرض هو أنها لا تقرأ الشعر

لا يمكن للإنسان أن يقرأ الشعر وأن يبقى عملياً هكذا، باحثاً عن المنفعة المباشرة، وعليهِ فإن اللوحة والقصيدة والأغنية كلها أشياء بلا معنى، لأنها «بلا فائدة». أعجبنا ذلك أم لا، من .الضروري أن نعترف بأننا نعيش في عالمٍ لا ينظر إلى الجمال كضرورة

تعتقدُ أمي بأنه ما لم يكن هناك ربح ماديّ حقيقي، أو شهرة من نوع ما - وهو ما لم أنجح في تحقيقه - فأنا لستُ جيّداً بما يكفي، وعليهِ فإنّ القرار الذي اتخذته بدراسة الأدب المقارن ليس .قراراً «منطقياً».. ركّزي على كلمة منطقي هنا. هل تبتسمين الآن؟ آملُ ذلك

نعودُ إذن إلى أمي. أمي تريدني أن أدرس المحاسبة لكي أفوز «بالكادر» الوظيفي لأن الحياة في غلاء مُستمر. ومن ممارساتها الإرهابية التي لا تعدّ، أنها تجبرني على حضور الأمسيات والأصبوحات الشعرية، وهي تقول: بقي أمامك خمسة «عروض» تقدمها للجمهور، إن لم تحصد استحساناً يكفي، سيكون من الغباء أن تمضي في الكتابة أكثر. أنا بهلوان في سيرك كبير اسمه الأدب! وبمناسبة الشعر، أمي تعترف بشاعرين اثنين فقط، ولا تتسع ذاكرتها إلا

لهما: المتنبي ونزار قباني. وهي تسمي ما أكتبه: "الشعر الخرابيطي". وقصيدة النثر هي محض هرطقة، وخروجٌ صريحٌ عن العقيدة الصحيحة، ونوع من الردة الأدبية والعياذ بالله. قبل يومين اتصلتْ بشويعرٍ يكتب ذلك النظم "التافه" وطلبت منه أن يقدم لي نصائح للكتابة "بالطريقة "الصحيحة..

هاه يا فاطمة، هل تبتسمين الآن كما أفعل؟

ومع ذلك، فأنا أكتب بطيب نفس وبكثير من الامتنان لحقيقة الكتابة، وآخذ الأشياء المجنونة التي أكتبها لها لكي تكون أول من يقرأها، ليس لأنها تحب ما أكتب، بل لأنها طريقتي في أن أقول لها أحبك يا أمي.

أنا وأمي نختلف في كل شيء، نتجادل طوال النهار، تأخذني إلى السوق وتطلب مني أن "أقيس" البنطلون، وأنا في غرفة القياس تنتظرني في الخارجِ وتردد: المهم، ماذا قررنا بشأن قصيدتك الأخيرة؟ هل أنت متأكد من العنوان الذي اخترته؟ نكوص؟ لن أقرأ أبداً قصيدة اسمها نكوص. اسمع يا ولد، لماذا لا تكتب قصيدة عن الوطن؟ هذه القصائد لها جمهورها كما تعلم!

إنها قاسية وظريفة في الوقتِ نفسه، وقسوتها حُنو، ولديها نهم للسيطرة على الأشياء، ومشكلتها في هذا العالم أن الشعر لا يقبل سيْطرة أحد، وأعتقد بأنك ستروقين إليها كثيراً يا فاطمة، لأنك تنطوين على نفسكِ مثل سِر، وستظنُّ الأمر استسلاماً منكِ وتقول: هذه الكنة ملائمة لي.

وبالمناسبة:

إياكِ أن تقولي عن نفسكِ شيئاً.. شيئاً شنيعاً كما في رسالتكِ الأخيرة.

الأشياء الجميلة وحدها تشبهك.

.أحبك أكثر مما يستطيع عقلك البائس أن يتصوّر

.أحبك يا غبية

.أحبك

.عصام

:رد

.عزيزي عصام

.أحببتُ كل سطرٍ كتبته عن أمّك، لقد جعلتني أبتسم عدة مرات

.وربما، إذا تمرنتَ أكثر، ستنجحُ في إضحاكي

خطرَ لي أن أخبرك عن أمي، أن أستلّ حضورها من الذاكرة، قبل أن تمسك بطرف غيمةٍ .وتصعد إلى السماء

أمي من المحرّق. أمي قطرة عسل في طرف الإصبع، وكل ما يفيضُ من أعماقها أزرق. تشبه .البحرين وحوريات البحر وآلهة دلمون

في طفولتي، في زياراتنا الكثيرة إلى البحرين كانت السماء تبدو سخية وقريبة وفي «متناول .الأيدي» كما يقول درويش، وكانت النوارس كثيرة واللقالق وأحلام الطيبين

لا يمضي يومٌ علي إلا وأنا أتساءل، ما الذي أفعله هنا، خارج وطن أمي؟ الزرقة شحيحة .والهواءُ جاف

لماذا تركتني خالتي في رعايةِ الأخ الكبير؟ لماذا قررت بأن هذا أفضل لي؟ أنا لا أفهم الأمر .جيداً يا عصام

يأخذني صقر لزيارة خالتي مرة في السنة. نبقى يوماً ثم نعود. في زيارتي الأخيرة أخبرتها بأنني أتمنى أن أبقى معها. قالت «تشيلك عيوني» ولكن كما ترين، المكان صغير والأولاد .كبروا وأنتِ بنت

دعك مني، لنعد إلى أمّي. أمّي جميلة جداً، وتعدّ حلوى «ترايفل» استثنائية، وتحرص على أن

تطعّم الجلي بالفواكه، وتحب الدانتيل واللؤلؤ، وقبل صعودها، كانت تعصمني من قبح العالم،
.وبعد أن مضت صرت أرى في وجه العالم دماملَ وحفرًا وفخاخًا

عندما كانت تريد أن توقظني من النوم، كانت تطقطقُ أصابع قدميّ ويدي، فأستيقظُ على
مَهلي. كانت تساعدني على تسمية الدُّمى، وتقرأ لي القصص، وبناء على طلبي، غطت جدران
.غرفتي بورق جدران مشجر وفيه وردٌ أرجوانيّ وبنفسجي، يُشبه ورق الهدايا

.لا أحب اللون الأبيض على جدراني الآن، بياضهُ عدمي

،لا أحب أنني مضطرة إلى نزول 14 درجة لكي أصل إلى المكان الذي يخصني

،مكان قرره العالم من أجلي ونيابةً عني

.مكانٌ دميم

ورغم كل ذلك، فإن جلّ ما أتمناه اليوم هو أن يصابَ أخي بخشونةٍ في الرّكبة، لكي يكف عن
.نزول تلك الدرجات

إنني أتضوّر إلى ملامسة العالم الخارجي. أنا رابونزل، وعوضاً عن البرج ذي النافذة، أعيش
في سرداب بلا نوافذ. شاشة الكمبيوتر هذه هي نافذتي. هل ستكون أميري؟

إذن، يا عصام، ماذا نستفيد من هذا الدرس؟

.أنا يتيمة الأبوين، وأخي جلاد، وأشتاق إلى البحرين كثيراً

.يبدو أنني تحسنتُ في البوح

.اكتب لي كثيراً، اكتب لي أكثر

فاطمة

:رسالة

منذ الأمس وأنا أترنّم بأبياتِ المثقب العبدي، فاطمته تعذبه على نحوٍ ممتاز. أريد أن أجلس معه على دكة الحوش وأغني: أفاطمُ قبل بينكِ متعيني..

رسالة:

فاطمة،

أريد أن أراكِ.

الفرا غُ كثيرُ وقلبي ينتحبُ

تعالي.

رد:

قلبي لم يعد لي منذك

أنا بعيدة وأنت قريب،

يبدو أننا لن نكتفي.

إن ما تطلبهُ هو قفزة. الحفرة عميقة وساقاي ضعيفتان،

لو أنني قلتُ لا، وبقيتُ هكذا.. في صندوق بريدك، أكتبك وتكتبي،

لضمنت أن تظل لي طوال عُمري،

ولكنك تريدُ أكثر

تريدُ أن تجازفَ بالكثير من أجل القليل

،لأن الكثير قليل

والقليل أكثر

.لن أخاطر بنا

.أنا جبانة وأنت متطلب

:رسالة

،لم يعد عندي ما أقوله يا فاطمة

.أنا ناضب

أضمّ الوسادة إلى صدري وأذهب إليك بأفكاري

أنا صدئ ومعلق ومكسور

مثل فانوسٍ قديم

لا شيء يضيئني إلا أنتِ

،هذه الكتابة باتت عذاباً

.كوني رحيمة

:رد

أقرأ رسائلك، ثم أكتبها بخط يدي على قصاصاتٍ ملوّنة،

أطوي القصاصات، وأصنع منها مربعاتٍ صغيرة، صغيرة جداً،

أخبئها في مرطبانٍ زجاجي،

أعتقدُ بأنه كان مرطبان مربى مشمش في ما مضى

وبأنه يفضل الشعر على المربى، وسعيدٌ بعملهِ الجديد.

ما تكتبه يعيدُ لي الحياة،

رغم أن وجعك يقتلني

حدثني عن الأشياء، عن الألوان، عن الروائح والمغازي

أريد أن أرى العالم بعينيك،

افتح الباب واخرج الآن، حدثني ماذا ترى.

قلبي مشرّع على المدى

كما لو نافذة

رسالة:

لقد خرجتُ من غرفتي اليوم، فعلتُها لأجلك. رغم أنّ روحي، بشكلٍ أو بآخر، مكثت بشكلٍ مريضٍ وسخيفٍ أمام شاشة الكمبيوتر.

هل تحسّين بي؟ إنني أتناول يدكِ برفق وكأنني أخاف أن تنكسر في قبضتي، وألفّها على ساعدي، ومثل سيّد أوربي أفتحُ لكِ الباب لأتمشى معكِ، هل ترين البحر يا فاطمة؟ سوف نمشي هناك، أنا وأنتِ، سوف نخلع أحذيتنا ونرمي جواربنا في الهواء، سوف تغوص أقدامنا في الرمل وتتمايل مشيتنا، ثم سننزلُ إلى الماء. هل تحسين بالماء يا فاطمة؟ البحر ينتشي وهو يلامس أصابعك، أنا أغار، أنتِ والبحر مغرمان ببعضكما وأنا.. أتحاملُ، أتصنع الابتسام، أفشل، أظنني سأحملك بين ذراعي حتى أغيظ البحر. طبعاً هذا لن يعجبك، لن يعجب البحر،

ولكن لا يهم. هذا العالم ليس مصمّمًا بالكاملِ لكي يلائم مزاجكِ. ولا مزاجَ السيّد البحر، اللعنة عليكما.

أنا لا أمزح يا فاطمة، لقد أمضيتُ اليوم بطوله وأنا أتمشى معكِ على الشاطئ، كنتُ وحدي وكنت معكِ أيضاً، وكنتِ محسوسة إلى الحدّ الذي جعلَ عضلاتي تتشنج وجِلدي يقشعرّ. وبين دقيقةٍ وأخرى كنتُ أتساءل متى ستصير هذه البائسة معي؟

أريد أن أراكِ.

حتى البحر يريد أن يراكِ..

غداً سوف أقف أمام بوابةِ الكلية،

عنيداً مثل صارية،

سوف أنظرُ إليكِ من بعيد،

سوف تلوّحين لي بيدكِ، فإن لم تستطيعي فبقلبك

وذلك أضعف الإيمان وأقلّ مما أستحق بكثير.

انتهى.

رد:

لنزعم - جدلا، دجلا - بأن هناك أملًا بالتقاءٍ ما

بضربِ الكفوفِ،

و تلامسٍ يوقظ في عُروقنا الكهرباء

لنفترض - هزلًا، أملًا - بأنّ لقاءً كهذا

ليسَ مستحيلًا

بأننا يمكنُ أن نتكئ على ناصيةِ الشارع

دون أن نملكَ ما نقول

وأنه يمكن أن يدسّ واحدنا أصابعه

في جيبِ الآخر

على سبيل التجربة

لنتخيّل بأننا يمكنُ أن نبتسمَ لبعضنا

دون أن تنتهك فينا حجبُ العاطفة

وأن ننجو - مع ذلك - من سياطِ العهرِ

وهي تحفر على ظهورنا خارطة الفضيلة

،لنتخيّل

للحظةٍ ربما

بأن هذا الشيء الذي

يشدّنا إليهِ

ليس حباً

بأن الحُب الذي يشدّنا

إليهِ

ليس ورطةً

.بأننا لم نكن

:رسالة

،لقد رأيتكِ اليوم

يا ملاكي

ناصعة مثل قصيدة

.ما أجملكِ

:رد

،جنّ قلبي برؤيتك أيها البعيد

إنني أرتجف

،أردتُ أن ألوّح لك

ولكنني شعرتُ بأنني أفعل ذلك دون أن أتحرك

أحس بك تحت جلدي. كيف فعلتها؟

3

4

5

رغيف وطاولة خشبية

في كل يومٍ قصيدة، القصيدة تورقُ قصائد، في كل قصيدةٍ مئة قصيدة، مئة عالم، مئة مكانٍ بديل، وزمن مخترع، وأوطان لا نهاية لها، وسماوات وشوارع وأرصفة ومقاهٍ، عصافير وملائكة ومجانين وصعاليك.

في الشعرِ كنتُ أشبك يدي بيده وأتمشى، وفي الشعرِ كان يتخلل بأصابعه شعري ويرتّب فوضويته، وفي الشعرِ كنا نلتقي وكان اليتمُ يتبدد، وكان القلبُ المستوحشُ يصيرُ أكثر طراوةً.

لا أعتقدُ بأنني كنتُ سعيدةً في حياتي إلا في تلك الأيام، أيام القصائد، أيام البريد النافرِ خارج قبضة الزنزانة، لقد كنتُ حُرّة وكنت أصنعُ عالماً يخصّني وأتصالح مع الأشياء وأتعلمُ.. على مهلٍ. أن أحِبّ، وأن أُحَب.

كان كلانا في العشرين عندما التقينا، وكان بوسعِ اللغة الرؤوم أن تمنحنا سكناً مشتركاً وسقفاً حصيناً، رغيفًا وطاولةً خشبية.

البياض العاري للعالمِ الخارجي بات أكثر نأياً، وصرتُ - داخل قصيدتي - أبني بيوتاً وأؤثثها، أملؤها باللوحاتِ والموسيقى. كنتُ أعششُّ في بطنِ الشعر، وأتساءل: هل أحببته لأجل الشعر؟ أم تراني أحببتُ الشعر من أجله؟ وهل يمكنُ لنا أن نكون خارج تخومِ اللغة؟ وهل نحنُ موجودانِ حقاً، على قيد اللحم والعظمِ وقطراتِ الدم، أم أن كلانا، بالنسبة للآخر، مصنوعٌ من ورق؟

ماذا يعرفُ عني؟

لا شيء إلا روحي.

هل تكفي؟

وهل يكون الحب كافياً قط؟

أتحسّس الشجرة في داخلي، تنمو خضراء. أتخلى شيئاً فشيئاً عن سماكةِ جلدي، والخطاطيفِ التي أعلقها على كتفيّ لكي لا أنسى تقلّبات الدنيا وحتمية الرّحيل.

الجرح الذي كان كل ما أنا عليهِ، كنتُ أتخلى عنه وأصنعني خارجه، كنتُ أولدُ من جديد، وفيمَ أنا أكابدُ في سبيل ولادتي الثانية، لأنني الوالدة والمولودة والمولود لها في آن. كنتُ أتحرّر.

مرّت ثلاثة أشهر.

آدم وحواء

،تعالي غداً إلى مكتبة الجامعة، في تمام العاشرة"

وجهزي أعذاراً قاهرة في حالِ تأخرك

.حتى لا أشعر بالإهمال

."انتهى

التقينا عدّة مرات، عصام وأنا، في مكتبة الجامعة، بين أرففِ كتب الشعر، وفي كبائن المناقشة. نتحسّس الجلد الثخين للأغلفة، نتنشق رائحة الغبار القديم والحكمة المختزلة والعبقرية الخالصة، تتلامس ركبنا، أصابعنا .أيضاً، نهلكُ وننجو بنا، نتعلق بالشعر

وأخيراً يا فاطمة؟ -

أبتسمُ وأنكفئ. يمعنُ في النظر إليّ، نظراته ترتشفُ وجهي. أرتبك، .يضحك بخفوت

هل أخيفكِ؟ -

.قليلًا -

..يدخل يده في جيبه ويخرجها

.أحضرتُ لكِ شيئاً -

يضع على الطاولة أمامي دُمية طفلة ترتدي فستاناً ليلكياً، مثبتاً على

ظهرها مغناطيس لاصق، ستبدو ظريفة وهي مثبتة على سطح الثلاجة، لو كان ذلك ممكناً، لو لم تكن العرائس الصغيرة طاردة للملائكة في .جمهورية الأخ الكبير

أحضرتَ لي لعبة؟ -

هل تعجبكِ؟ -

.إنها جَميلة -

.أنا أشتري لكِ أشياء كثيرة مؤخراً -

حقاً؟ مثل ماذا؟ -

.حبل نط -

هل تمزح؟ -

.لا -

وماذا بعد؟ -

.ألوان شمعية -

!أحب الألوان الشمعية -

..قلم فسفوري -

!الطيف -

..وأرانب محشوة -

وماذا أيضاً؟ -

- وعندما أذهب إلى المطعم أشتري لكِ طبقاً وأضعه أمام الكرسي المقابل لي وأدخل في حِوارات متخيلة معكِ، أتخيل بأنك تتذمّرين من كثرة الثوم.

- أنت مجنون.

- هذا صحيح.

- أين بقية ألعابي؟

- في السيارة. كان عليّ أن أتأكد من أن هذهِ تعجبكِ..

- إجراء احترازي يعني؟

- تقريباً.

- أنا أيضا أخيفك على ما يبدو.

- قليلًا.

وابتسمنا.

هكذا التقينا، مراراً التقينا، بحضور حياة أو بغيابها، بحضورِ الشعرِ أو بغيابهِ، وكنا نشعلُ جذوة الأسئلة، ننفخُ على جمرها كي لا تخبو، نحترقُ في أطراف أصابعنا وفي أكبادنا ونمضي في غياهبِ التجربة، منتشييْن بغيابِ الخارطة وانحسارِ الناموس وتراجع الأجوبة.. نمضي صوب السّديم الغامض ونكتشف العالم وكأنه يُخلق تواً، يخرج طازجاً وساخناً من الفرنِ، والأشياء لما تثقل بعد بالمعاني، ولم تتورّط بتاريخٍ طويل من الخيبة والهزيمة، كنا الرجل الأول والمرأة الأولى، وبيننا كتابٌ، الثمرة المحرمة لشجرة المعرفة. تفاحة الغواية.

- هل يمكن أن نتحدث بالموبايل؟

- لا.

- ولِمَ لا؟

- الإيميل آمن.

- مم أنتِ خائفة؟

- من هذا..

- ما هذا؟

- هذا الجنون.

- هذا عين العقل.

- إن ما نفعله ليس جريمة في نظر أخي فقط، إنه جريمة في نظر الجميع، حتى الرجل الجالس هناك، وأمينة المكتبة، والحارس المصري، والبعوضة..

- أنظري حولكِ يا فاطمة، لقد تغير الناس، إنهم يتخالطون بمنتهى البساطة. هل ترين؟ هناك؟ طلبة جامعيون من الجنسين يتحاورون ويشربون القهوة، الأمر طبيعي جداً.

عندما يعودُ العالم جديداً وبريئاً يصير كل شيءٍ ممكناً، حتى الخطأ يمكن أن يحدث بموجب البراءة وحدها.

هناك بين أرففِ المكتبة كان الأمر يبدو كما لو أننا ننسلخُ من حضور الزمن ووطأة المكان، وكنتُ أريح رأسي طويلًا على رفّ الكتب وأتابع عصام بعينيّ وهو يستخرج ديواناً شعرياً جديداً من بين الكتب، يفتحهُ في منتصفه ويقرأ واقفاً، يبذل عنايةً كبيرة في اختيار "القصيدة

الصحيحة" على حدّ تعبيره، لولا أن الحديث لا يدور أبداً حول الشعر، بقدر ما يتخلل الشعر بسحره كل شيء، الرموش والأصابع والأحلام عديمة الضمير.

- ماذا تكتبين مؤخراً؟

- الرسائل، الرسائل فقط.

- أحب رسائلك.

- وأنا أحب رسائلك.

ولوهلةٍ ربما.. لوهلةٍ قصيرة جداً، يجيئني خاطرٌ مضحكٌ: أ هكذا كان الأمر مع آدم وحواء، عندما كانت الحواس تخرُجُ من حيادها وتتذوّق العالم على مهلها، عندما كانت اللغة تتنزّلُ كالمنّ على الأشياء ليصير الحجر حجراً والشجر شجراً.. لتكتسي الأشياء بالثقلِ والمعنى وتدلفُ إلى الوجود من خلال اللغة؟ من خلال زوجين اثنين؟ هل كان الحُب يتفتّح هكذا، كما لو ورْدة، ليكتشفَ مثل أرضٍ عذراء غير مطروقة، بريئاً ونقياً وأخضرَ؟

أسألُ نفسي غير مصدّقة: هل هو حقيقي هذا الشاعر؟ هل هو حقيقي؟ إنه رَجل، رجلُ غريب. إنه لا يبدو ذئباً. هل يمكن أن يكون أخي على حق، وقلبي على خطأ؟ إن أصابعي ترتاح بين أصابعه، إنه يبدو راغباً بحمايتي، رؤوم مثل سقف، شاسع مثل سماء.

- هل تنشرين نصوصكِ؟

- في مدوّنة.

- حقاً؟ وتخفين الأمر عني؟

.إنني جامعة كراكيب، ما أكتبهُ أقل بكثيرٍ مما أريد له أن يكون -

ليس من حقك أن تقرّري ذلك نيابةً عني. ما اسم مدونتك؟ -

.سِر -

يبحث عن مدونة "سر" ولا يجدها. خطوط كثيرة تحاصر عينيه وتنفرط في جبينه، إنه يبدو أكبرَ منّي بخمس سنوات، رُغم أنه يكبرني بعامين فقط. ليس طويلًا، ولا مفتول العضلات، ولا يشبه الفارس الأسمر على الحصان الأبيض، وهذا الحب الذي يحاكُ بين أصابعنا على مهلِهِ.. لا يشبه توقعاتي ولا خيالي ولا قِصص سندريلا، إنه شيءٌ فائق.

..كنت أريد أن أسألكِ -

عمّ؟ -

هل تمانعين الانضمام إلى مجموعة قراءة؟ -

هل تمزح؟ -

.على الإطلاق -

.أنت تعرف بأن الأمر مستحيلٌ -

.يمكننا تدبّر الأمر -

كيف؟ -

هناك أندية صباحية، تحت رعاية الجامعة. سأعمل على ضبط مواعيدها - مع الفراغ بين محاضراتك. مرة واحدة في الأسبوع يا فاطمة، ما رأيك؟

.لا أدري -

- الأمر يعني لي الكثير يا فاطمة. أنا أحتاجك هناك، إن سخافة الطرح لا تطاق ومستوى النصوص.. قاتل!

ضحكتُ..

- إنني أعوّل كثيراً على انضمامك.

- لا شك وأنك تمزح.

- أنا جاد. حتى أنني فكرت في إلغاء النادي، ثم.. ثم فكرتُ، لو أنكِ معي هناك، سنأخذ النقاش إلى سماواتٍ أعلى. أنا وأنتِ فريق يا فاطمة!

- هذا مثير!

- أكثر من مثير!

بابٌ يُفضي إلى باب، نافذة تشرّع على نافذة. تتضاعف السماوات وتمتد أكثر وأكثر. تتخلخلُ الجدران وتتساقط القضبان، هناك فُرَجٌ ومساحاتٌ وهوامش أتحرك فيها. هناك فسحة للتلامس مع العالم وتجربته، الحياة ما زالت قادرة على المنحِ والإنجاب.

- إنني أخاطر كثيراً من أجلك مؤخراً.

- عادي. أنا أستاهل أصلًا.

إني أسبقُ الحتف مقبلًا

منذ متى أعرفك؟ -

.منذ تسعة أشهر -

بهذه السرعة؟ -

:فتح لي الباب، أومأ برأسهِ

.ادخلي هنا -

إنني أثق به بقدرِ شكّي بي. انصعتُ ودخلتُ، كنا في استراحةِ الطلبة حيثُ يفترض أن تعقد اجتماعات مجموعة القراءة التي يديرها. دخل .ورائي، يفركُ يده من فرطِ الحماسة

!لا أصدق. لقد انتظرتُ هذه اللحظة طويلًا. اللعنة عليكِ -

.يجب أن نفعل شيئاً بخصوص شتائمك -

.اجلسي -

وجلسنا. الأرائك زرقاء حديثة الطراز، طاولة منخفضة مربعة من زجاجٍ أبيض. مزهرية زجاجية زرقاء شفافة فيها أزهار اصطناعية صفراء عليها ملصق السعر من آيكيا. كتب متناثرة ورفوف، شاشة تلفزيون مثبتة على الأخبار، ماكينة قهوة "نستله" وسجادة صلاة مطوية بعناية في زاوية .المكان

هل أتينا باكراً؟ -

- سيصلون الآن.

وجلس على يميني، ثم أدار جذعه ناحيتي وأخذ ينظر. هكذا فقط، نظر إليّ وكأنني موضوع للنظر. وكأنني خلقت لينظر إليّ.

- ما بك؟

- أنظر إليكِ.

- ولِمَ؟

- «نظري إلى الوجه الجميل نعيمُ».

أنت مجنون.

- ما لذة العيش إلا للمجانين(7).

- أرى العيش كنزاً ناقصاً(8)..

- لا بأس. تعبٌ كلها الحياةُ (9)..

ضحكنا.

مؤخرا نحنُ نتحاورُ من خلال الشعر. رجل وامرأة والشعر ثالثهما. دقائق ووصل الآخرون. مجموعة صغيرة من ثلاثة شبابٍ وثلاث فتيات، يدخلون وهم يتناوشون ويتضاحكون. يتصرفون بعادية أدهشتني.

- مرحباً!

لا أحد يستنكرُ شيئاً مما يراه. لا أحد يفترضُ السوء.

- أنتِ فاطمة إذن؟

- وأخيراً التقيناكِ يا فاطمة!

- عصام ذبحنا فيك. غث أمٍ جابتنا.

- صدّع روسنا!

- فاطمة قالت، وفاطمة كتبت..

- وفاطمة عيّت تجي، وفاطمة وافقت تجي!

- وفاطمة this وفاطمة that..

- (أَفاطِمَ لَوْ أَنَّ النِّساءَ بِبَلْدَةٍ وأَنْتِ بأُخْرَى لاتَّبَعْتُكِ هائِما (10)

- (أفاطم مهلا بعض هذا التدلل(11)

- (أَفاطِمَ إِنّي أَسبِقُ الحَتفَ مُقبِلًا(12)

- (أفاطم أعرضي قبل المنايا(13)

- (أفاطم ما يدريك ما في جوانحي من الوجد والعين الكثير سجامها(14)

نهرهم عصام:

- (أنا أريبكم يا «بخور السوق»(15).

- لا، خوفتنا.

- قعدوا بس قعدوا، مو كافي متأخرين؟ فشلتوني جدام البنت.

ابتسمتُ غير مصدقة. إنهم مبتهجون جداً بالنسبة لكونهم شعراء. أحببتهمُ من فوري، والفرح المعشعش فيهم، بأرواحٍ وثابة. مثل صغار أرانب، مثل فقاقيع!

بدأ النقاش وتطايرت الكلماتُ في المكان. انتشروا مع أفكارهم. صوتٌ يعلو وصوت يتعالى عليهِ. احتدم النقاش بينهم وأنا صامتة أسمع، أرفرفُ في قلبي. هذه غرفة فيها سبعة أشخاص يتكلمون في الشعر، إنها تعريفي الشخصي للنعيم.

ما هو الشعر؟ ما هي الكلمة؟ هل هي طريقة للتفاهم أم أنها السبب وراء كل سوء تفاهم؟ هل هي انعكاسٌ لفظيٌ للأشياء، رمزٌ دالٌ على الكائنات الموجودة في العالم، أم أنها طريقة للنظر إلى العالم؟ هل هي مجرد وسيط إلى المعنى أم أنها المعنى ذاته؟ هل هي جزء من العالم أم أنها فائقة عليه؟ وماذا عن الكلمات التي تكتنزُ بالمعاني المتضاربة، المتناقضة، المشرعة على آفاق التأويل. كيف يمكن أن تتحول كائنات مشحونة ومكتنزة كهذه إلى وسيلة تواصل، وماذا عساه يفعل الشاعر بها؟ وكيف يصل الشعر إلينا إن لم يكن وسيلة تواصل؟ وهل الشعر غاية أم وسيلة؟

- أريد أن أسمع ما تقوله فاطمة.

قال عصام. صمتوا والتفتوا ناحيتي. سألته مرتبكة:

- عن أي شيء؟

- أريد أن أسمع منكِ. كيف تتصرفين مع الكلمة المحتشدة، المزدحمة بالمعنى، كيف تتعاملين معها داخل القصيدة؟ كيف تقومين بتطويعها.

- لا أفعل.

- وماذا تفعلين إذن؟

سحبتُ نفساً عميقاً، ثمّ تكلمتُ..

في البدء كانت الكلمة

عندما أتناول المفردة، أي مفردة، فأنا أحس بثقلها في يدي، في قلبي." وفي طرف لساني. إنني أتذوق طعمها المركّب ومزاجها الأشبه باللغز .وأحاولُ أن أفجر فيها عصارة المعنى

عندما أتناول الكلمة فإنني أحاولُ أن أفرحها وأشعل ممكناتها بوضعها .في مكانٍ تحبه، مكان يفاجئها ويبهج خاطرها

يخيل إليّ دائماً بأن الكلمة تشعرُ بالخمول وغياب الحيوية، إنها منهكة ومنتهكة من كثرة الاستخدام، وهي بحاجة لأن تشعر بأنها جديدة وطازجة، ومولودة لتوّها، وخارجة من سديم الهيولى إلى عالمِ المعنى.. في .مغامرةٍ ما، مثل حورية بحرٍ عاشقة

من الصعب أن تستحضر الكلمة في النص دون أن تتورط بتاريخها. هل يمكنك مثلًا أن تستخدم كلمة سماء، دون أن تجر وراءك طابوراً طويلًا من الكلمات؟ دون أن تستحضر قبيلة من الأقارب وشلة من الأصدقاء: (زرقة، .(..سمو، نقاء، طهر، جنة، ألوهة

إنك عندما تتناول كلمة مثل "سماء" فأنت تأخذ معها تاريخها الطويل من العلاقات، ولكن هل هذا هو ما تقولهُ الكلمة حقاً؟ هل هذا هو ما توحي به إليك؟ ماذا عن همسها الحميم في قلبك؟ وهل يعقل أن تقول الكلمة الشيء نفسه لنا جميعاً؟

أعتقدُ بأن ما تقوله الكلمة لي يختلفُ عما تقولهُ لك، وإذا كانت السماء عندك هي النقاء والزرقة وغيره.. فهي توحي لي بأمور أخرى تماماً، مثل النأي والاستحالة. التفكير في السماء يشعرني باليتم، وهذا الفراغ القائم

بين السماء والأرض يملؤني بالوحشة حتى أطرافي. ولكن دعكَ مني، لنعد إلى السماء.

إنك سترى بأنها باتت تستحضرُ نوعاً مختلفاً من الكلمات، أو قبيلة جديدة من الأقارب، وصناعة علاقاتٍ جديدة ينعشها ويجعلها أفصح وأكثر رشاقة في جسد القصيدة. وعندما تدركُ أنت ذلك، تشعر بأنك بتّ أكثر خفة وحرية في اللعب مع هذه الكلمة، كلمة سماء. صار بإمكانك أن تزجّ بها في قصيدتك دون أن تتورط بتاريخها القديم وأعرافها اللغوية، أليست هذه مهمتك كشاعر؟

لنأخذ كلمة أخرى. فكّر بكلمة "أبيض".. ماذا تفعلُ هذه الكلمة بالنّص، أو ماذا يفعلُ النص بها؟

ربما يكون الأبيض هو لون الحليب والحنان الأمومي والطهر والفضيلة، وهو اللون المفضل للأنبياء، وهو أيضاً لون المعرفةِ والجنون، لأننا نعرفُ بأن الأبيض هو أصل الألوانِ السبعة، وأن قوس قزح هو الأبيض المطعون بسبع مدياتٍ في الخاصرة. قد يكون الأبيض كل هذا ، ولكنه أكثر من ذلك. الأبيض هو الموت، الأبيض هو العدم.

أنت كشاعر، لا بدّ وأن يرعبك - أو يثيرك على الأقل - البياض الفاحش للورقة، لا بدّ وأنك تتحسس وجهه العدمي الصقيل بكلّ الرعب في قلبك، أنه يستفز وجوديتك.

والآن فكّر كيف تقفُ هذه الكلمات متوازية، الأبيض هو الجنون، والجنون هو الطهر. الأبيض هو المعرفة، والمعرفة هي العدم.. إنك تتعرف على علاقاتٍ جديدة وتفاعلات كيميائية لم تخطر ببالك أبداً وأنت تصبّ لنفسك كأس حليب في الصباح الباكر.

..إنك تعبرُ بالشعر إلى الفلسفة من حيث لا تدري

ما أحاولُ قوله، هو أن الكلمة - مثلنا - متعبة من ماضيها، وهـي - مثلنا - تتحرر منه بالشعر".

إذا حلّ عشقٌ بالفتى؟

مشيْنا على مهلنا في الممرّ. نتذوّق الظهيرة الربيعية بجلودنا الدافئة. كنتُ أشعر بخدرٍ في رأسي وبخفة في قدمي، كأنني أمشي على الهواء. كم بوسع الحياة أن تكون حلوةً فجأة! نظرتُ إليه بطرفِ عيني، كان مثلي، رأسهُ في القصيدة وقدمه على الأرض.

لم نكن بحاجةٍ للكلام. مشينا لدقائق كأنها الأيام، وطوال تلك الدقائق لم أكن قلقة بشأن أي شيء، وكأنني محصّنة ضد الفضائح. لم يزعجني أن يرانا الطلبة معاً، لم يزعجني أن كلانا كان يبتسمُ من خلال فم الآخر، لم يزعجني أن الكيمياء التي تشدّنا إلى بعضنا صارت تتضوّع وتنتشرُ وتشدّ إليها الكائنات. كنتُ أحس بأمانٍ غير مسبوق، وكأن الشعر يعصمني من الأذى، وكأن عصام هو الشعر.

- أبدعتِ اليوم.

ابتسمتُ بسرور. أنا أيضاً شعرتُ بأن ما قلتهُ كان جميلًا، ورأيتهم ينظرون إليّ بأعين واسعة، يهيمون في كلماتي. رأيتُ افتتانهم وانتشيتُ.

- أنا سعيدة.

- أعجبك اللقاء؟

- أحببت كل لحظة.

- لقد سحرتهم يا فاطمة.

- إنك تبالغ.

أبالغ؟ أنا كنت هناك ورأيتُ كل شيء. حتى أنني كنت على وشك أن - أصيح في وجوههم: ارجعوا ورا! امشوا بعيد! هذه الفتاة لي، أنا وجدتها قبلكم.

ضحكتُ من أعماقي. وشعرتُ بخطواته تثقل، كان ثملًا بالشعر. اتكأ على العمودِ إلى يساره ونظر إلي. مرة أخرى نظر إليّ.

أنت تعرفين بأنك جميلة بشكلٍ مزعج؟ -

كفّ عن هذا. -

بشكلٍ لا يغتفر؟ -

توقف. -

للحظةٍ تقلقلت الأشياء وفقدت طمأنينتها. صرتُ أنظر حولي، أخاف أن يسمعنا أحد. ضحك عصام، علق ساخراً:

الخارطة تنطوي على نفسها. -

لا تكن سخيفاً. -

خبريني فقط، يا آنسة خارطة: إذا حل عشقٌ بالفتى كيف يصنعُ؟ -

أردفتُ..

يداري هواه ثم يكتمُ سرّهُ، ويخشع في كل الأمور ويخضعُ. -

فكيف يداري والهوى قاتلُ الفتى، وفي كلّ يومٍ قلبه يتقطع؟ -

إذا لم يجد صبراً لكتمان سرّه، فليس له شيء سوى الموتِ أنفعُ! -

:اتسعت ابتسامته بشكلٍ حزين، وكمن يوشك على الموت أنشد لي

- (سمعنا أطعنا ثم متنا فبلغوا، سلامي لمن كان للوصل يمنعُ!)16

16

حوار حقيقي/عالمُ افتراضي

.لقد مرّ عام -

الأمر لا يصدّق. عامُ بهذه السرعة؟ -

!عامُ يا فاطمة! شمعة كاملة -

.يجدرُ بنا أن نحتفل -

.أريدُ هديّتي -

!يا سلام -

."أنا لا أمزح. أعتقدُ بأنني أستحقّ هدية. "بونص سنوي -

وماذا تريد؟ -

.المزيدُ منكِ -

!لقد كنتُ معك بالأمس، في النادي -

أريد شيئاً آخر. في الحقيقة.. لقد سبق وحصلتُ عليه، ولكنني أحتاج -
.أن توافقي على الأمر

ماذا تقول؟ -

.لقد سجّلتُ اسمك من أجل الأصبوحة الشعرية -

هل تمزح؟ -

- أبداً.

- هل تحاول قتلي؟

- عامٌ يا فاطمة، عامٌ كامل وأنتِ لا تثقين بي؟

- ماذا فعلت يا مجنون؟!

- لقد تكفّلتُ بكلّ شيء، كل ما عليكِ فعله هو الحضور. لن يظهر اسمك في الإعلان، ولا في البوسترات، ولا في الجريدة. لا صحافة، ولا كاميرات. لا شيء يرعبك. لن يكون عليكِ سوى أن تحضري، مثل كل مرة، وفي نفس الساعة. تجلسين إلى يميني وتقرأين شعركِ. عشر دقائق يا فاطمة، عشر دقائق فقط!

- متأكد؟

- الأمر لا يختلف عن النادي. أنتِ عضوة منذ ثلاثة أشهر، لم يحدث أي سوء. ثقي بي.

- كلمة "عضو" لا تقبل التأنيث.

- لقد أنّثتُها من أجلك.

- لا أعرف ماذا أقول.

- قولي نعم. بونصي السنوي.

- وإذا حدث شيء؟

- لن أسمح بحدوث شيء. لن أفرّط بكِ بهذه السهولة.

خطأ صغير

!ما الذي تقولينه؟ -

.صرخ عصام. نسرين مرتبكة، تغالبُ دموعها بالكاد

!لقد وعدتني بأن تتكفلي بالأمر شخصياً -

أدخلُ إلى القاعة. لا أفهمُ شيئاً مما يحدث. أنظر إليهما فاغرة الفم.
:نسرين تبرّر، يداها تلوحان في الهواء

.لقد وقع خطأ. خطأ في الأوراق -

هل تدركين ما فعلتِهِ؟ -

عصام يعض على أسنانه، يضرب الطاولة بقبضته. الطاولة ترتجف ويده تكادُ تنفجر. جرحٌ في يده. تحمر أذناه كثيراً. هكذا يغضب إذن؟ لم أتخيل .بأنه قادر على ذلك

ما الأمر؟ -

.ببلاهةٍ أسأل

لماذا تصرخ؟ -

نبرتي لائمة. متعاطفة مع نسرين. منحازة إلى خطئها قبل أن أعرفه. نظر إليّ بتلكما العينين. وبدأت عيناه تلمعان بإفراط. تدمعان؟

.كان عصام يبكيني

شهقتُ: ما بك؟

.أنا آسف يا فاطمة -

ما الأمر؟ -

.لقد وقع خطأ -

.غاض قلبي عميقاً في داخلي. تحفزت حواسي للكارثة

خطأ؟ -

.لقد ظهر اسمكِ في إعلان الأصبوحة -

شهقتُ. خارت ساقاي وجلستُ على طرف الكرسي أرتجف. لقد قامت قيامتي واقتربَ جحيمي. لقد انتهيتُ. وامتلأ دمي بشعور الأضحية أمام :السكّين. لقد حان دوري أخيراً. جفّ ريقي وارتعش صوتي وأنا أسأل

كيف؟ -

.اختلطت الأوراق في المطبعة. طبعوا النسخة القديمة -

ماذا سأفعل الآن؟ -

.لا تقلقي يا فاطمة -

جلس على يميني. أمسك بيدي، ضغط على أصابعي بيده، ذابت :أصابعي في دفئه. رفعتُ عيني إليهِ، عاجزة. أقسم لي

.سنتدبر الأمر -

:همستُ ذاهلة

.سوف يقتلني -

.ستكونين بخير -

!الأخ الكبير -

.لن يعرف بالأمر -

!لا يمكن -

..دقائق ودخل بقية الشباب، بوجوهٍ مستبشرة، متعبة، أنهكها اللهاث -

!كل شيء على ما يرام يا جماعة -

ماذا فعلتم؟ -

أزلنا كل البوسترات والإعلانات من الجدران. لا داعي للقلق. الأمر تحت -
.السيطرة

..ابتسموا

أحقاً؟ -

.كل شيء على ما يرام -

أزلتم كل الإعلانات؟ -

!عن بكرة أبيها! مزقناها تمزيقاً. ضاري أعجبه الوضع -

وكيف سيعلم الناس بالأصبوحة؟ -

.سنعلن عن طريق الموبايل. لا تقلقي -

.لا أحد سيحضر أصلًا -

.لا أحد يهتم بنا -

كل شيء يتحول مع هؤلاء الفتية إلى حكاية للتندر، إلى مشروع ضحك. نظرتُ إليهم غير مصدقة. بكل الامتنان الممكن، زفرتُ، مسحتُ دمعتي .وأنا أنظر إلى أصدقائي، حبهم يفيضُ من عيني

.شكراً لكم -

.بقيت هناك مشكلة واحدة. مشكلة صغيرة -

استدرك عصام. عيناه تحفران عميقاً في عيني، وجهه يبدو جاداً كما لم .يكن قط. أنظر إلى وجهه وأرى حباً

ما هي؟ -

إعلان الجريدة. عدد الغد. الصفحة 16، سيكون عليكِ أن تتخلصي منه - .بنفسك

.لا توجد مشكلة -

،ابتسمنا

.كل شيء على ما يرام

.أو هكذا ظننا

:رسالة

صباحُ الخير يا عصام.

باقي على لقائنا أربع ساعات. الساعة الآن هي السادسة صباحاً، وأنا مستيقظة منذ الرابعة والنصف، أنتظرُ وصول الجريدة، لكي أمزّق إعلان الأصبوحة الشعرية، لكي أمزق اسمي.

قضيتُ ليلة الأمس وأنا أفكّر.

كم «فاطمة عبد الرحيم» توجد في الكويت يا ترى؟

مئات أم آلاف؟

شعرتُ بأنني أبالغ في الحذر. ما مدى إمكانية أن يتطابق اسمي مع اسم غيري؟ وما هي احتمالية أن يقرأ صقر الصفحة الثقافية من الجريدة؟ الصفحة التي لم يقرأها قط؟ لن يقرأها قط؟ صفحة الضالين والغاوين والمنحرفين فكرياً؟

ومع ذلك قلتُ لنفسي: الاحتياط واجب. عندي أشياء أخسرها إذا انحرفت الأمور.

وانتظرتُ، لساعةٍ ونصف الساعة، حتى وصلت الجريدة. التقطتها بأيدٍ ترتعش، بقلبٍ يرتعش. فتحتُها على الصفحة 16، بحثتُ عن اسمي، ووجدتهُ من فوري. قرأته عدة مراتٍ وانتشيتُ يا عصام، انتشيتُ وملأتُ رئتيّ بأنفاسِ الصباح وقلت: تعالي يمّه شوفي بنتك!

لقد ظهر اسمي في الجريدة يمه، بين أسماء الشعراء! وكنتُ أسقط يا عصام، في ذلك البئر الأزلي الذي حدثتك عنه، في الثقب السحيق ليتمي

وهو ما فتئ يولد ويبعث. يتوهّج مثل جُرح طازج. لماذا لا تتقادمُ الآلام يا عصام؟

لم يكن بوسعي أن أصدّ فجاجة خواطري، والغضب الذي صعد من (صدري إلى أذني، وجعلهما تتوهجان وتحمرّان (هل أنت منتبه؟.

لو كانت الأمورُ مختلفة، لكنا نقيمُ الآن حفلة، لكنتُ أرقصُ. ولكنني عوضاً عن ذلك أقلق، أتشقق، أمزق الورقة، ورقة انتصاري اليتيم. مزّقتها يا عصام، مزقتها ومضيتُ، وكأنني أمزق عاراً.

حزني عميمٌ هذا الصباح، في صباح أصبوحتي الشعرية الأولى. أشعر بأن حياتي مسروقة، بأن هذا العالم ليس لي، ولن يكون لي قط.

أرجو أن تكون قد احتفظت بالإعلان، الإعلان الذي يضم اسمي واسمك أيضاً. أرجو أن تكون قد أريته لأمك، وأن تكون قد احتفلت معها، وأن تكون قد حظيت بفطور استثنائي بهذه المناسبة، بان كيك مثلًا، وقهوة بالحليب على سبيل التغيير.

أما عني أنا، فسأقضي الساعات القليلة القادمة وأنا أقرأ: «ليلة القبض على فاطمة»، سأحاولُ أن أفهم مع سعاد الصباح، لماذا مزقتُ إعلان الجريدة الذي يضمّ اسمي؟ لماذا مزقته يا عصام؟ لماذا مزقته؟

هذي بلادُ تختن القصيدة الأنثى، وتشنقُ الشمس لدى طلوعها، حفظاً» (لأمن العائلة..»(17)

17

..أشياء ستبقى بيننا

مستعدة؟ -

أحياناً تكون له ابتسامةٌ أثيرية كهذه، تتطايرُ من وجهه من فرطِ الحب. وأقولُ لنفسي لا أحد يشبهه، لا أحد يشبهُ هذا الوجه الطاعن في عشقه، الذاهب في الحنان، الذاهل من فرطِ التيم، وجهٌ ينبثق من خارج الدنيا، كأنه قصيدة من لحمٍ وورق، من حبرٍ ودم. بغمازتين لطيفتين، .وابتسامةٍ ذاهبة حتى أقاصي جغرافيا الفرح، وكان الضوء، كل الضوء، في ليل عينيه

قلبي ينقضُّ عليّ، وكأنه ينبضُ في أذني. أسمعُ أصداءه وهي تجيئني من مكانٍ بعيد، من :أعمقِ مكانٍ في داخلي. ألتقطُ أنفاسي وأهمسُ

!مستعدة -

ماذا ستقرئين؟ -

.لم أقرّر بعد -

.لا ترعبيهم أرجوكِ. قوّة العدم وقيامة العالم وأشياء كهذه يجب أن تبقى بيننا -

!يا لك من متملّك -

..دخلنا القاعة. القاعة إياها

هل تذكرين؟ -

..أذكر -

المكان نفسه الذي التقينا فيه لأول مرة، قبل عامٍ مستحيلِ الجمال، وكأنه حلمٌ نافرٌ من واقعية المكان وفجاجة الزمن. باستثناء أنني أجلس اليوم على يمينه، على منصة خشبية طويلة، لأقرأ شعراً يخصني. قصائدي، كائناتي الصغيرة، سوف تتسربل بصوتي وتطيرُ في الهواء. سوف .تتحرر مني. إنني أعتقها اليوم، أفطمها، أهبها وجودها الممتد خارجي. اليوم عيد استقلالها

:فوجئت بعدد الحضور.. همستُ في أذنه

- عددهم يفوق الثلاثين!

- في العادة نحظى بـ 15 كحدٍ أقصى.

- عجيب!

- إنها بركات الإعلان. هل ترين السيدة هناك، بالقميص البني؟

- نعم.

- إنها أمّي. إنها تتفحصك الآن، كوني جميلة.

- هل تمزح؟

- أبداً. إنها أمي وقد جاءت من أجلك.

رفعت عيني وخفضتهما بسرعة. كانت تنظر إلينا وعلى ثغرها ابتسامة العارف. كان الذكاء يشع من وجهها. سيدة في نهاياتِ الأربعين، حليبية البشرة، بخطوطٍ تنفرطُ حول عينيها، فم دقيق ونظرات حادة. أربكتني.

- إنها جميلة.

- أفهم ما ترمين إليه. قوليها صراحة: لماذا لم ترث وسامة أمك يا عصام؟

- عصام..

كان لا بدّ وأن أقولها.

- هل شكرتك كفاية؟

- على ماذا؟

- على كل شيء.

- أنتِ سعيدة؟

- سعيدة جداً.

- إذن نعم، لقد شكرتني كفاية.

ما تزال القصيدة في فمي

.كل شيءٍ على ما يرام

.كل شيء تمام

.كل شيء إلا هذا القلب الذاهب إلى أوجِ ذعره

المنتفض أمام نبوءة السكّين

قلتُ لقلبي المجنون: كل شيء على ما يرام. سيجيء دوري وسينتهي كل شيء. ركلاتك السخيفة بلا داعٍ. إنك تبالغ.

.تعرقت يداي وجفَّ فمي

.أنا بحر، أنا صحراء

باطني يتقلص، أصابعي توجعني وجلدي يتهيّج. أحسّ بتدفق الدم تحت جلدي، وقلبي - هذا اللعين - يعربدُ في أطرافي، أنا رقصة مجنونة.

صوتٌ في داخلي يصيحُ: اهربي يا فاطمة! اهربي حالًا. أقولُ لقلبي: أنت غبي وقليل الفهم! تريد أن تفوّت عليّ هذه اللحظة لأنك مذعور وجبان! أقول لك كل شيء على ما يرام ولكنك لا تصدق. اللعنة على غبائك. يقولُ: اركضي يا فاطمة، اركضي قبل أن يفوت الأوان!

أكذب حدسي ونبوءاته. أقرر ألا أسمع العويل في داخلي. أضع الورقة أمامي، والقلم على يمينها، ألتقطُ أنفاسي من مكانٍ بعيد، وأتأهب للقراءة.

أزدردُ ريقي بمشقة، أنا جافة كصحراء، ممصوصة وناشفة. أقول لنفسي: ستصير الأمور على ما يرام عندما أضع القصيدة في فمي. القصيدة سوف ترويني.

فرغ عصام من نصه الأخير. إنهم يصفقون له، أمه تبتسم. لقد أبلى بلاءً حسناً. تصعد نسرين على المنصة، إنها على وشكِ أن تقدمني إلى الجمهور، أن تقرأ اسمي على الملأ، أن تعلن

ساعتي:

وجهٌ جديدٌ يطلّ على المشهد الشعري في الكويت، قصائد ذات خصوصية عالية، تنبعثُ من»
«..حميمية التجربة، وقدرتها على الاشتباك مع الوجود

أسمع صوت نسرين، وصوتٌ آخر. صوت خطواتٍ تقترب. خطواتٌ أعرفها، أعرفُ ثقلها،
.أسمعها كل يوم، أربع عشرة مرة، نزولًا إلى السرداب، وصعوداً إلى العالم

.قلبي حزينٌ عليكِ يا فاطمة

.يقول قلبي

أسمع احتكاكِ النعلِ بالسيراميك، صوتٌ تستنفرُ له جميع غرائزي، أنا ذبيحة تعرفُ التماعة السكّين في عين الجلاد. غاب الجميع وحضر السرداب، أنا أسقطُ والصوت يقترب، يقترب أكثر. الظلّ يمتدّ إلى الداخل، يطعنُ المكان، الوجه يطلّ من خلف الباب، الوجه/ الجحيم. الوجه/ المشنقة.

.الوجه رآني ورأيته

«..الشاعرة فاطمة عبد الرحيم»

.أنتصبُ واقفةً، مثل وترٍ مشدود، أنا القوسُ والسهمُ، وأنا الضحية والدّم

ألملم أوراقي، النشيجُ الأخرسُ يرتحلُ في صدري، كل شيء يفلتُ من يدي، يتواطأ ضدي. الأوراق تسقط ودموعي.. على القصائد، على الأرض، على خدي. العالم يغيبُ في قطرة ماء. .لقد انتهى كل شيء

أنظرُ إلى عصام، من غبش الماء الطالع من عيني. أريد أن أقول وداعاً. عصام يهمس مرتاباً: .ما بكِ يا فاطمة؟ لا أرد

أنظر إلى الوجه النابت من جحيمه المستعر، إلى وديان الحميم في الأعين، وشجرة الزقوم في الجبين. السوط والساطور والقضبان والوعيد في الحاجبين المعقودين. أشير إليه وأغمض على دموعي. أنا عصفورٌ في عرين الوحش، السماء أبعد من جناحي.

.اليد التي نزلت على وجهي، ثقيلة مثل قذيفة، فجّرت رأسي على الحائط، طرحتني أرضاً

!يا كلبة -

.كل شيءٍ يهتز

.العالم ينخلع عن بروازه الجميل

!يا قذرة -

،ولكني لم أقرأ شيئاً

!ما تزال القصيدة في فمي

!يا داعرة -

عصام يهرع. صقر يقذفه بالكرسي، الأصدقاء ينتفضون، يحاصرون عصام، أمه تلقي بنفسها عليه. الأصوات تنعجن.

ضوء أزرق في عيني، أنيُن أحمر في رأسي. لا أسمع إلا صوته.. صوت حبيبي يتنزل من سماءٍ ثامنة..

!ويناديك باسمك يا حيوانة -

.اسمي العورة. اسمي الفضيحة

..يده تقبض على رأسي، يده كماشة، الكماشة تسحبني

.إلى ذهولي الشاهق في الألم

!امشِ قدامي -

!ولكن القصيدة ما زالت في فمي

!سوّدتِ وجهي سوّد الله وجهك -

صفعةٌ ثانية تتنزل

،من علياءِ جبروتها

.تحطّ على وجهي

تسيل قصيدتي من فمي

.خيطاً أحمر

.

الحذاء

كأن السماء تمطرُ

أصابعَ، أصابعْ

كأن الأيادي تتكاثر

على خدّي

كأنها تطلع من وجهي

كأنها تهتكه

.أشياء كثيرة حدثت خلال ساعة

شدّني من حجاب رأسي بطول الممر الممتد من القاعة إلى السيارة، دفعني إلى المقعد الخلفي، داسني بنعله، تكوّرتُ على نفسي، أنا ذنبُ بأذيال. تفاصيل أخرى زائدة - شتمني بطول الطريق إلى البيت. عندما

كانت إشارة المرور تحمرّ كان يلتفت ويضربني بعقالهِ. أوقف السيارة، شدّني من ذراعي، ذبتُ بين يديه، بللتُ نفسي، تهاويتُ، رفعني من ذراعي، سحلني خارج قصيدتي، أعادني إلى قبضته. السرداب يفتحُ فمه.

دفعني إلى الدرجات، نزولا إلى الكابوس، ألقاني على السرير، صفعني بنعاله. شن غارةً على دفاتري وأقلامي، وضعها في كيس بلاستيكي أسود وصعد بها. أقام محرقة في الحوش، أحرق ماركيز ودوستوفيسكي ونجيب محفوظ، المتنبي والمعرّي، محمود درويش ومظفر النواب، حكم عليهم بالموت حرقاً بتهمة الهرطقة. شرّعت صدري لاحتضان دماري، أنا شظايا.

عاد يلهث، الرماد يلوث ثيابه، يده وجبينه وأرنبة أنفه. دار في المكان مرتين، ثم توجه إلى الكمبيوتر وانتزعه من مكانه. أخذ الجهاز، الشاشة، والأسلاك التي تشبه الشرايين.. ممتدة من قلبي، إلى قلبِه، أخذ قصة حبي الوحيدة ومضى. اقتلع الشجرة في داخلي. سمعتُ صوت سقوطها. كان مدوياً.

مرة ثانية عاد يلهثُ. رآني منكفئة بين الوسائد، ألتفُّ على بعضي. أنا دمعة.

شدني من شعري: وين الموبايل؟ أشرت إلى الحقيبة، فتحها، نثرها، نكش أعضاءها، أخذ هاتفي، ومفتاح السيارة، وبطاقتي المدنية ورخصة القيادة، أخذ حياتي ومضى، وقبل أن يصعد إلى فوق، وقد أنجز مهمته على أتم وجه، التفت لمرة أخيرة وقال:

- من يوم ورايح مافيه كلية. تنثبرين مكانك لين يجيك اللي يرضى ياخذك.

..باللي ما يحفظك انتِ ويّاه

* * *

كنتُ أعرفُ منذ البداية بأن الألم الذي أنا بصدده أسوأ من كل ألمٍ جابهته في حياتي. ليس ألم الصفعة، بل ألم ما بعد الصفعة - رعب السرداب السرمدي والفراغ الصحراوي المترامي، رعب الهدوء الذي يعقبُ العاصفة. الدمار شامل وليس أمامي إلا انتظارٌ أبدي لحدوث الأشياء التي لن تحدث أبداً. سوف أمكث في فقاعة الغيابِ طوال ثلاث سنوات، أتحلل في بطنِ التنين، وحيدةً وذاهلة وشبه مجنونة.

كما لو أن الأمر يحدثُ برمّته مرة أخرى: اليتم، السرداب! أفعى الألم تخلعُ جلدها القديم وتبعثُ حية، بجراحٍ أشدّ توهجاً. في تلك الليلة تكوّرتُ على نفسي، وهمستُ بالكلمة الوحيدة التي كنتُ أتمنى قولها قبل أن تنهال علي فجيعتي: وداعاً عصام. البكاء طريق طويل أقطعه حافية.

أمامي زنازين كثيرة. كل يومٍ زنزانة. كل زنزانة تفضي إلى أخرى. المستقبل؟ بدعة من بدع العقل البشري. من المكان الذي أتكوّر فيه على نفسي، مثل صوصٍ نافق، أعرفُ بأن المستقبل مجرد «حذاء يدوس على وجهك إلى الأبد»(18).

في البداية قاومتُ، تسللتُ خارج السرداب واختبأت في غرفة وضحة. بأصابع مرتجفة ضغطت على أزرار الهاتف وانتظرتُ. انفجر صوت: يبه! إلحق! فاطمة تتصل بحبيبها! صوت خالتي يخرجُ من السماعة: ألو؟ صقر ينقضّ علي. ألو؟ يشدّني من شعري، ألو؟ يسحبني إلى تحت، دائماً تحت. ألو؟ أنزل أربع عشرة درجة تحت خط الوعي. أمكثُ هناك. ألو؟

بعد تلك المحاولة صار يقفلُ الباب. يفتحُون لي عندما تحين مواعيد

الوجبات. استمرّ يقفل الباب لأشهر. بعد أن ارتخت قبضته لاحقاً بدواعي الكسل لم أخرج. لم أجرِ تلك المكالمة قط.

الأقارب؟ أجالسهم مثل تمثال رخامي. أنتزع من سردابي كما يقتلع النباتُ من الأرض، لا أحد ينظر إليّ. أنا فراغ.

أرى أكثر مما أطيق، وبما يتجاوزُ المعقول. أرى المسمار الناتئ من قدمِ الطاولة، مزروعاً في خاصرتي. أرى تصدّعات الجدار في صدري، وبياضه في عينيّ، أرى جلدي يتقشّر كصبغِ الباب الخشبيّ. العالم يتفكك ويتقوّض. أين أنت يا عصام؟ أنا مريضة، صدري مكشوف وقلبي أعزل! تعال وهربني مثل الأشياء الممنوعة، كالخمر والحشيش والعشق. تعال وأنقذني.

* * *

يجب أن أموت. أن أطفئ حواسي النافرة من فرط الهلع، وأنا بلا نافذة وبلا هواء كافٍ. ليس ثمة معنى للمقاومة، كل نضال هو إطالة لجلسة التعذيب التي تسمى حياتي. في النهاية سأموت، فلمَ ليس الآن؟

بحثتُ عن مقص، سكين، قلم. أي شيءٍ أغرسه في معصمي لكي أسيل خارجي على مهلي. كل شيء بعيد. صقر ينزلُ إلى السرداب كل ساعتين أو ثلاث، يتابع تطورات فجيعتي، يراني أنشج وأدور في قفصي كالحيوان، يطمئن قلبه ويصعد. كيف أموت تحت المراقبة؟

أريد أن أقتل إحساسي بي، أن أدفن كل ما أنا عليه، أن أنسى، أن أكبر كثيراً.. وأن أنسى. أن أفرّغ الذاكرة من نفسها، أن أسلخني من حقيقتي، من الحب والكتابة وما بينهما، من كل شيءٍ يمكن أن يعيدني إلى هناك، حيثُ رأسي يرتطم بالجدار، والقصيدة تسيلُ حمراء من فمي.

أرى في منامي الحبّ والشعر، أرى عصام يضع أصابعه على وجهي، على جلدي المتقشر، يبحث عني تحت جلدي. وجههُ في كلّ مكان، يأكلني من الداخل. أسئلته تقصم روحي: هل تحمر أذناك عند الغضب؟ كم يسع شاعرا أن يحبك يا فاطمة؟

أغمضُ عيني، أستجلبُ وجهه، أراهُ ينكوي، يتلوّى من فرط الفقد، صوته يثقب رأسي، يناديني.. أفاطمُ قبل بينكِ، قبل موتكِ، قبل وأدكِ! قبّليني، اعشقيني، دمّريني! أجلسُ عند طرفِ سريرهِ، أتناول يده، أحسّ بالحمى الطالعة من جسده تنفذُ إلى جسدي، أبتسمُ له، أبتسمُ بشكلٍ حزين، أقول .وداعاً، وداعاً يا حبيبي، سوف أخونك كثيراً، سوف أنساك

* * *

صقر يسأل: أين فاطمة. في اليوم التاسع والنصف، على مائدة الطعام.. قالت بدرية فتحنا الباب ولم تصعد، ناديناها ولم ترد. نزل الدرجات لاهثاً وتطاير الرذاذ من فمه. سحب اللحاف عن جسدي وقرص زندي: تسوين نفسك نايمة بعد؟ يشدني من شعري إلى أعلى، الضوءُ الطليقُ يؤذي عيني. يجلسني قبالته. أراه يأكل وأسمعه يهذي: إنتي إللي تحدين !الواحد ع الشر

يطير رذاذٌ من شفتيهِ ويحط على وجهي: يعني ما تبينا ويا ذا الوجه؟ موب عاجبك مقعدنا؟ ولا درستي فرنسي وكتبتي كم قصيدة حسيتي نفسك غير العالم؟

يهز فخذ الدجاجة في وجهي، ويواصل: من يوم ورايح فيه قانون، الدنيا مهي بعلى كيفك! أبقيتُ ذراعيّ عاليتين. التصقتا بوجهي. فهمتي ولا لأ؟ أهز رأسي. ليه ما تاكلين؟ لا أريد أن آكل. أريد أن أموت من الجوع. يقبضُ على خدّي، بيده الملطخة بالدهن، ورائحة الزفر تخترقُ أنفي،

يضغط على وجهي حتى أفتح فمي، يقحمُ الأرز في داخلي ويصرخ:
!كلي لا بارك الله فيك! كلي

* * *

كنتُ أدور حول السرير ودستُ على قرطاس. الخشخشة تحت قدمي جعلت جسدي يقشعر. اشتقتُ إلى سماع صوت. أي صوت. صرتُ أطقطق بأصابعي، أقذفُ الأشياء، وفي تلك اللحظة اكتشفت بأنه بوسعي .أن أتكلم، أن أصدر صوتي الخاص وأتحدث إليّ

أتكلّمُ معي، أتشاجرُ معي، وأضحكُ معي، أنا ووجهي في المرآة، أنا الساحرة الشريرة وأنا آكلة التفاح. الأشياء من حولي تتكلم أيضاً. الصدع، الصرصور، ثقب الباب. أكثرهم ثرثرة كانت وحدة التكييف الميتسوبيشي، وأكثرهم وقاحة أيضاً. تتأملني وتقهقه. أسألها على ماذا تضحكين؟ على جنونكِ. تضحك أكثر، أرميها بعلبة الكلينكس. في المرة القادمة سأرميكِ بالحذاء يا ميتسوبيشي. سوسو لو سمحتِ. سوسو؟ نعم سوسو. هذا اسم رقّاصة في كاباريه. تضحك. أهدّد: من الآن فصاعداً ستكون هناك قوانين! صحيح؟ أنا أضع القوانين هنا! منذ متى؟ حذاءٌ آخر على خدّ سوسو. سوسو السيئة، سوسو أسنانها مسوّسة، سوسو بلاعة المسامير، سوسو النسيان. سوسو قليلة الأدب، لا أحد يحبها لأن .لعابها يسيل ويجعل الجدران تتصدع

يا لك من سيئة! سيئة وقبيحة! لا أحد يحبك! لا أحد يريد أن يراكِ! - سوف أحبسك في السرداب. سوف أضربك بالنعال! سوف أحرق دفاترك وأكسر ألعابك.. سوف لن تري الشارع أو السماء أو العصافير حتى يأتي «المضروب على رأسه» الذي يقبل بالزواجِ منكِ، باللي ما يحفظك إنتي ..وياه

* * *

تم عمل اللازم. محاولات التقويم آتت أُكلها، أنا فتاة مطيعة وطيّعة وقابلة للتطويع، أصعد الدرجات، أجلس على الكرسي، أفتحُ فمي، آكل لقمتين، أنحل، أختفي. أنا وهم.

أجالسهم في المساء، يتابعون التلفزيون، وأنا أحدق في فوهة العدم على الجدار، أنا جثة مثالية وأجيدُ موتي كرياضة. لم يعد هناك ما يستوجب تدخل أحد، أو تعليق أحد، أو اعتراض أحد. أنا عدم. لقد انتصر النظام.

عرفتُ أخيراً ما كان ينبغي عليّ فعله لكي أرضي الأخ الكبير. كان عليّ أن أفرّغ قلبي من قلبي. أن أقتل القصيدة في داخلي. أن أعود إلى الفرا غ الذي سبق الانفجار العظيم، إلى اللا شيء. اللا شيء هو أفضل ما يمكن أن يحدث لك. اللا شيء هو أقصر طريق إلى الجنة. حياة اللا شيء هي حياة بلا خطايا. غيابُ الخطأ صواب. غيابُ الحياة صواب. أنا كائن اللا شيء. أقوم بواجباتي على نحوٍ ممتاز. آكل، أصمت، أحدّق، أصمت، أصمت. ليس المهم ما تفعله عندما يتعلق الأمر بحياة «اللا شيء»، بل المهم هو ما لا تفعله، قائمة الثمار المحرمة التي تمتد إلى الأبد. المهم أن لا تفعل، لا أن تفعل. وأنا لم أعد أفعل، والأشياء التي أفعلها قليلة ولا تضر، مثل التنفس، وقشع البلاط المتقشر عن الباب، والجلوس في الكراسي، والمضغ، والبلع، وغسل الأيدي، والنظر إلى الجدران.

لا أنتظر الأوامر. لم يعد ثمة حاجة لجلدي. أنا كائن مثالي يقوم بدوره في هذه «اللا حياة» على أتمّ ما يمكن. أنا العصفور المولع بقفصه، المصاب بفوبيا السماء.

* * *

الخادمة لا تطلبني على الغداء, إنه لا يرغب بحضوري، الآن وقد صرتُ

كائنه المثالي، ربيبة التعاليم المقدسة وابنة الناموس العدمي. صعدت إلى غرفة الطعام ورأيتهم يهمّون بإنهاء طعامهم. لمحني بطرف عينه وارتبك. كان خائفاً. صقر خائف؟ مم يخافُ الأخ الكبير؟ شيءٌ ما في داخلي، شيءٌ شريرٌ ومجروح، جعلني أبتسم. انتفض من مكانهِ وصعد إلى غرفة نومه وكأنه.. يهرب؟ نفذ بجلده من مواجهة حقيقتي، حقيقتي التي هي حقيقته.

لقد تفاهمنا تماماً، وقرأ ابتسامتي الوقحة جيداً: أنت فرانكشتاين! أنت فرانكشتاين وأنا صنيعتك، ولكنك أجبن من أن تقتلني.

الخادمة تأتيني بغدائي. هكذا أخبروني بأنني لم أعد مضطرة لمغادرة السرداب. أو بالأحرى، أخبروني بأن لا أغادر السرداب. بعد أن ينجح النظام في تشكيلك سوف يلفظك. لقد تم عمل اللازم.

* * *

في درجي السفلي قلم حبر أزرق. كيف نجا هذا الصعلوك من المحرقة؟ بلبلتني رؤيته حتى أقفلت الدرج وقفزت إلى سريري.

ماذا سأفعل بي وفي درجي قلم، وعندي جدران كافية لأكتب؟ هل أكتب؟ وماذا أفعل بالألم لو عاد؟ وماذا أفعل بالكتابة وهي فعل تذكر؟ وماذا أفعل بالذاكرة وهي فعل حب؟ وماذا أفعل بالحب وعصام يستعصي؟ هذا القلمُ الصغير قادرٌ على تدمير كل شيء، إنه يقلقُ النظام الذي اصطنعناه - أنا وأخي الكبير - لكي نحافظ على موتي متماسكاً. هذا القلمُ خطرٌ عليّ.

فكرت لثوانٍ ثم عقدتُ العزم. فتحتُ الدرج، أخرجتُ القلم، كسرتهُ بيديّ وألقيتُ به في سلة القمامة. سوسو قهقهت: انظري إليكِ، ترتجفين من قلم! إذا كان القلم يرعبك إلى هذا الحد فماذا تفعلُ بك فتحات التكييف؟

- إنها تصيبني بالقرف.

قهقهت سوسو..

- كم أنت مدعية يا فاشلة، لا تجيدين سوى الكلام، في الواقع.. إن آخر أمر تريدينه هو أن أتركك وحدكِ.

- بل أفضل صحبة الأشباح على صحبتك!

لحظتها رفع القلم المكسورُ رأسهُ وسألني: إذاً لماذا قتلتني؟ وسال دمهُ على أصابعي، أزرق وبرجوازي جداً.

* * *

ستمر ستة أشهر ثم يفقد الزمن معناه وأكفّ عن العد. الوعي يتشكل من خلال الزمن. لا زمن، إذن لا وعي، ومن ثمَّ لا ألم.

كشكولُ قصائدي الذي أخفيهِ تحت السجادة، لم يكتشفه صقر ولم يحرقه. كان علي أن أتكفل بالأمر بنفسي. أن أنتزعُ أوراقه قصيدةً قصيدة. ديواني شجرةُ عارية، يدي خريف، كل شيء هو مشروع سقوط مدوٍ في اللا مكان. لقد برعتُ في تعذيبي، أكثر مما يتمنى الأخ الكبير أن يفعل. أقول له هاتِ السوط في يدك، سأتولى المهمة، سوف أنكل بقلبي حتى يلفظ كل شيءٍ من داخله: الحب والشعر وما بينهما.

يدي الصفراء ناتئة العظام تمتدّ في كل يومٍ إلى قصيدة، ودون أن أقرأها للمرة الأخيرة كنت أبدأ في طيّها عدة مرات، بآلية مفرطة تحوّلها أصابعي البارعة إلى زورقٍ ورقي. أملأ سطل الغسيل بالماء، وأضع الزورق على سطحه، وأتمدد على جنبي الأيمن وأنتظر- بكثيرٍ من الأناةِ - أن يصير الزورق أثقل، أن تشرب الورقة الماء ويتبدد الحبر ويغرق في قاعِ السطل، أن تنهي القصيدة موتها البطيء، الشاعري، الجميل، كي تغرق في شبرِ

من الدموع وينتهي أمرها تماماً. عذابها وغربتها وكل ما هي عليهِ من جمال.

قصائدي ماتت غرقاً. رأيتها تصطرخُ وتنادي ولم أنقذها، رأيتها تمدّ يدها وتبلعُ الماء وتتنفسه وتذوب فيه. قتلتُ قصائدي، وأنا ممددة على جنبي الأيمن، أتأمل عملية إغراقها كمن ينتظر أن تجف جواربه على حبل غسيل.

أقتل قصائدي وأمشي في جنازتها. أصلي عليها وأدعو لها بالتحول إلى كائناتٍ أجدى في ولاداتٍ قادمة. مسدس أو سكين تقطيع اللحم.

* * *

مرضت صاحبة السجن. صارت تنظرُ إليّ بانتصار وتخبرني بأنها ستموتُ، ستتركني وحيدة في السرداب وترحل إلى مكانٍ أفضل. بدأت تصدرُ طقطقة غريبة، ويسيلُ لعابها على الجدار أكثر من المعتاد، وعجزت عن إدارة وجهها في المكان، وصارت تنفخ في وجهي هواءً حاراً، رائحته قميئة.

غرق المكان في رطوبةٍ خانقة، وأنا.. تمددتُ على جنبي الأيمن وأنا أتابع احتضارها الأخير، العانس ميتسوبيشي المحترمة، أين تظنين نفسك ذاهبة؟ العالم مكان سيئ، ابقي هنا معي. سوف أنظفك أكثر، سوف أمسح عنك الغبار وأعتني بكِ، موافقة؟

في جولة تفقدية نزل صقر إلى السرداب، دار حول المكان وتوقف أمامها، تبادلا نظرات ذات معنى، سوسو وصقر. إنه يخبرها بأنه سوف يستبدلها بأخرى. هذه العجوز، عمرها خمسة عشر عاماً، من المدهش أنها استمرت إلى هذا الحد. كان هذا ما قاله. من النادر أن يمتدح صقر أحداً، لاشك

.وأن سوسو كانت فخورة بنفسها رغم احتضارها. لقد ماتت راضية

* * *

.صقر يعاني من الخشونة»، تقولُ الخادمة»

.لقد تأخرت الخشونة كثيراً

..«صقر بدأ بأخذ إبر السكّري»

.هذا خبرٌ آخر لا معنى له

* * *

رأيتُ عصام، يشدّني من قميصي إليه، يهزني حتى أستيقظ. فاطمة! فاطمة! أنا بدرية! بدرية؟ تهزني من كتفيّ. أدفعها. استيقظي يا فاطمة! هل كان حلماً؟

هل تنامين حتى العصر عادة؟ -

لا معنى للزمن عندما تحتجز في فقاعة اللا شيء، أنام صباحا وآكل فطوري ليلًا والنظام هو مجرد ادعاء. هل حصل شيء؟ أريد أن أتكلم معكِ في أمرٍ ما. لا يمكنني النظر إلى وجهها، لطخة ضوئية بيضاء .تمسحُ النصف الأيمن منه

هل مات أحد؟ -

.لا -

ما الأمر إذن؟ -

كيف حالك؟ -

- تمام.

إنسان بلا رغبة هو إنسان حُر، إنسان ميت، إنسان محصن ضد الخيبة والخيانة والألم. أنا تمام!

- ماذا تريدين؟

- أنا لا يد لي في الأمرِ يا فاطمة.

- أي أمر؟

- كله، معاملة صقر لكِ، حرمانك من الدراسة، لقد كنت أحاولُ إقناعه بالسماح لك بالعودة إلى الكلية، أريد أن تعلمي فقط بأنني غير راضية عما حدث لكِ، ولكن الموضوع يفلت من يدي عندما يتعلق الأمر بكِ، وأنت تعرفين صقر جيداً و..

- هل هذا هو ما أردتِ قوله؟

- لا.

ونهضت من مكانها، جالت في الغرفة، ثم التفتت صوبي وخاطرٌ يلمعُ في عينيها.

- أردت إخبارك بأن لدي طريقة لإخراجك من هنا.

- لا أريد غرفة الطابق الثاني.

- ليس هذا ما قصدته. قصدت الخروج من بيت أخيكِ نهائياً، أن يكون لكِ بيتكِ يا فاطمة. هل تريدين ذلك؟

الخروج من السرداب؟ كيف؟ ولماذا؟ وماذا يوجد في الخارج أصلا والعالم كله هنا؟ وكيف أتنازل عن موتي الذي تعبتُ كثيرا في سبيل

تحقيقه؟ كيف أخرج من السرداب وأنا أعضائي متطايرة في المكان، كيف أترك المسمار الناتئ من ساق المنضدة والدرج المخلوع وسوسو الأسنان المسوسة، من لها؟ كانت الأشياء كلها تهتزّ في عيني من فرط ذعرها، .تقول لا تتركيني

ما بكِ؟ ألا تريدين ذلك؟ -

- .لا أعرف

.همست سوسو: أنت لا تريدين شيئاً

هل أنتِ بخير يا فاطمة؟ -

- .أنا على ما يرام

هل سأحصل على جوابٍ منكِ؟ -

على ماذا؟ -

لقد جاءكِ عريسٌ يا فاطمة! هل تسمعين ما أقول؟ -

.

قطة شوارع

لا بد وأن هذا ما حدث

عاد فارس إلى البيت في تمام الرابعة، لأنه يفعل ذلك كل مساء. إذا لم يعد في الرابعة فهذا يعني أنه مدهوسٌ على الطريق أو ملقيٌ في سرير مستشفى. كل يوم يعود في الرابعة، كل يوم يصرُّ الباب في يديه، كل يوم يناديني. ولّما لا أرد عليهِ يفترض - بديهياً - بأنني في الحمام، مدفونة بين الفقاقيع.

الأكيد أنه فتح الباب ووجد الحمام خالياً، والجاكوزي جافاً. سيفكّر لحظتها بأنني في غرفةِ المكتب، لأنني مؤخراً، مؤخراً فقط.. بدأتُ أكتب. العادة السيئة التي يأمل أن أنجح في التخلّص منها. سيبحث عني في المكتب ولن يجدني. ثم سيبحث عني في المطبخ، سيقول ربما تقوم بخلط السلطة. ولن أكون هناك أيضاً.

سوف يعودُ إلى غرفةِ نومنا ويجلس على السرير مستغرباً. سوف يفشلُ مراراً في القبض على أفكاره المتطايرة في المكان، ولكن في تلك اللحظة، في تلك البقعة التي سيجلس عليها ، على السرير المزدوج ذي الغطاء الترابي والمزين بوسائد مصنوعة من جلد الماعز، الوسائد التي يحب وأكره، ثم سينتبه إلى تلك الورقة، ورقة لاصقة صفراء مثبتة على المرآة. سيتعرّف في تلك اللحظة على رسالة هروبي.

سيقرؤها ولن يفقه شيئاً، لأن الأمر لا يصدّق. سوف يخرج من جيبه الأيمن هاتفه الخلوي ويتصل بي، وعندما ستخبره شركة الاتصالات بأن الرقم مفصولٌ عن الخدمة، سوف يبدأ بالتصديق. سوف تنفرج شفتاه، رغم الجفاف وعطش الظهيرة، ويهمسُ لنفسه «المجنونة!».

فى تلك اللحظة، سوف تبدأ ذاكرته الفوتوغرافية فى اكتشاف الأشياء

التي اختفت: مشطي، قلم الكحل «الشانيل» وزجاجة دهن العود. في الحمام سوف ينتبه إلى اختفاء فرشة أسناني ومعجون الأسنان «كلوز آب». سوف ينتبه إلى أنني تركتُ له معجون «سيغنال 2» وسيصدق الأمر أكثر، لأنه يعرفُ بأنني أفاضل بين معاجين الأسنان بحسب مذاقها في فمي.

الأرجح أن الأفكار سوف تدبّ في رأسهِ دفعة واحدة. سوف يفكر بالفكرة، والفكرة التي تنقضها، في الوقتِ ذاته. سوف يفكر بالأضداد ولن يتأمل تضادّ الأشياء. ولأنه لا يملك أدنى فكرة عما يجب فعله، فالأرجح أنه سوف يتصل بصقر، سوف يضغط على رقمه ثم يغلق الهاتف قبل أن يرن.. سيقول: آخر شيء تريده فاطمة هو جلاد طفولتها. وسيكون على حق.

سوف يفكر بأن عليهِ أن يذهب إلى الشرطة ويقدم بلاغاً بالتغيّب - بعد أن ينتظر مرور 24 ساعة - وفي هذه الحالة سيكون عليهِ أن يخفي رسالة وداعي السخيفة الملتصقة بالمرآة.. ويتصرف كما لو كنتُ قد تم اختطافي من عصابة، وسيبدو الأمر سخيفاً كالأفلام، وسيبدأ رجال الشرطة في طرحِ أسئلة غير معقولة: هل لدى زوجتك حبيبٌ سري؟ سيكون الأمر محرجاً بالفعل. ولكن عليهِ أن يتصرّف.. فامرأته - مدمنة الأقراص والبكاء الطويل في الليل - قد هربت.

سيقرّر في البداية أن يذهب إلى الشرطة لتقديم البلاغ، ثم سينتبه إلى تفصيلٍ صغيرٍ وهامشيٍ وتافه، ولكنه سوف ينفذ إلى قلبهِ مثل رصاصة.. سوف يجدُ على طاولة الطعام جملة أطباقه المفضلة: «مجبوس» لحم مع فقع، سلطة جرجير بجبن الحلوم والطماطم المجففة والصنوبر المحمص، عصير برتقال طازج، وجلي الليمون. الوجبة التي يحلم فارس بالحصول عليها كل يوم في حياته وحتى نهاية العالم.

سوف تربكه البادرة، رغم الغضب والحيرة وأطنان اللا فهم، سوف تلمس شغافه. سيخرج، سيشغل محرك السيارة ويريح رأسه على المقود. هنا سيقرر - على الأرجح - أنه سينتظر. ماذا سوف ينتظر؟ لا يدري. سوف ينتظرُ وحسب. أن تتجاوز حياته هذه اللحظة إلى ما بعدها.

ولأنه لا يستطيع أن يبقى في البيتِ سوف يقضي ليلته في البحثِ في كل الأماكن الممكنة. سيبدأ بالمستشفيات، لكي يطمئن إلى أنني لست ملقاة في وحدة العناية المركزة، ثم سيذهب إلى المقاهي والمطاعم التي ارتدناها معاً، ثم إلى البحر. سيبحث في الكويت كلها ولن يجدني.

سيذهب إلى كل الفنادق التي يعرفها، التي يعرفها الجميع. لن ينتبه إلى هذا الفندق الرخيص ذي النجمات الثلاث، المتهالك والمُمعن في القدم. مبنى غير مرئي، سيمرّ أمامه ولن يراه.

ورقة صفراء لاصقة

عزيزي فارس.

أعتقد بأننا فعلنا ما بوسعنا، ولكن ذلك لم يكن كافياً. إنني مختلفة أكثر مما تحتمل. محبتك تؤلمني، ويؤذيك عجزي عن المواكبة. في الفترة الأخيرة كنت مُصابة بالتذكّر، وبدأت أتعرّف حجم دماري. إنني معطوبة وعاجزة عن منح العلاقات، ولا أستطيع أن أكون أي شيء لأي شخص، سامحني. وطلقني. إذا سألت قلبك بصدق، سيخبرك بأن رحيلي هو أفضل شيء حدث لك.

انتبه لنفسك
فاطمة.

لو كانت الورقة أكبر قليلًا لربما أضفتُ أشياء أخرى.

اعتذاراتٌ ومزيد من الاعتذارات، استحضار ملحٌّ ومزعجٌ لنوبات الهلع في الليالي وأعاصير غضبي غير المبررة، مضادات الاكتئاب والصداع النصفي وغيرها من مؤشرات تعاستي وعدم اتساقي. ربما كنت سأذكّره كم مرة وجدني متكورة على أرضية الحمام، وكم مرة اضطر إلى حملي إلى السرير، لأنني قررت أن أكف عن الوجود. سوف أذكّره بست جلساتٍ مع د. هبة رشدي وفشلها في انتشالي من سقوطي الأبدي في الصراخ. سوف أذكّره بتلك الأيام عندما صرتُ أترنح وأهذي وأنا أشير إليه بيدي وأردد عليه: «ما أوسخنا، ما أوسخنا! لا أستثني أحداً»(19). نشرات الأخبار، الجرائد، القانون، وحتى لمسةُ اليد ونظرةُ العين. كل شيءٍ يثير قرفي، كما لو أنني جرحٌ ملتهبٌ يشرّع فاه الأبدي على العالم.

قصائد مظفر التي تجتاحني، نشيجي الطويل. ذراعاه عندما تطوّقان جزعي وهو يطلب مني أن أتماسك وأنا.. لا أتماسك، أتفكك، أتساقط، ماذا تريدُ مني؟ أسأله، يقول أريدكِ. أقول له أنا أيضاً أريدني. طلقني لكي أحصل عليّ. يقول لا أطلق، أنا أحبّك، أسأله: ما الذي تعرفه أنت عن الحب؟ أرفع إصبعي في وجهه وأهمس: «الآن أعرّيكم». يُحوقِل، يُجفّفُ دموعي، يحملني إلى الفِراش، يتصل بالدكتورة. تقول خذها إلى المستشفى. حقنة أخرى، وأخرى، وأخرى. يقول ماذا تريدين؟ أقول له أريدني لي، أريد أن أكتب. يقول لا أستطيع! أقول له أنا أستطيع. فلماذا لا تستطيع أن تجعلني أستطيع؟ يقول أنتِ امرأتي. حقنة أخرى في وريدي. بانتظار النوبة التالية. والتي تليها، والتي بعدها..

ولو كانت الورقة أكبر لكنت ذكّرته بأشياء يعرفها، بأنني مُجدبة كأرضٍ بوار ولا أستطيع منحه البنين والبنات والمستقبل. بأنني سعيدة بعقمي وأرقص وأنا أردد «كوني عاقرَ! كوني عاقر!» بأنني أكادُ أفقد صوابي عندما أتخيّل ما سيحدث لو أنني أنجبتُ إلى هذا العالم أنثى. أنثى أخرى. كائن وظيفي لتبرير الانتهاك، كائن تحت الجرح والتعديل، مفعولٌ به منصوب، مصلوب، قربانٌ لاستقطاب العنفِ البشري، لتفريغ شهوة الدّم. كنتُ ألصقُ ساقيّ ببعضهما في السرير وأنا أصرخُ فيه كي لا يقربني. «سيكون خراباً سيكون خراباً!» لا أريد أن أتسبب في مجيء أحدٍ إلى هذا المكان المخيف، لا أريد أن أكون مسؤولة عن ألم أحد! احتضنتُ الشهادة الطبية التي تبرهن على عقمي بكثيرٍ من الراحة، احتضنتها ورقصتُ معها مثل انتصار.

ولو كانت الورقة أكبر لأخبرته بأن كل شيء يفعله ويبدرُ منه يجرحني ويؤلمني بطريقة لا يمكن أن يفهمها. كنت سأخبره بأنني منهكة ومنتهكة وأفسّر كل لمسةِ حنان بمنتهى سوء الظن. كنت سأذكره بأن حياتنا تحوّلت

إلى جحيم بعد عودتي إلى الكتابة. بأنني لا أستطيع أن لا أكتب لأنني حاولتُ أن لا أكتب، وأنني مذ بدأتُ أقاومُ الكتابة وأتنكر لنداءاتها حتى صارت اللغة تعضّ على أصابعي وتدميها، بأنني بتّ أعرجُ وأصطدم بالنوافذ، وأرى ساحراتٍ في المرايا وتفاحاً أحمرَ وغاباتٍ مليئة بالعفاريتِ وأن هذه الكائنات، هذه الكائنات الكثيرة التي تطاردني لن تتركني وشأني. كنت سأخبره بأنني قد التقيتُ بسوسو، رغم أنني كنتُ أمسح أرضية الباركيه في شقتي السوبر ديلوكس. ولكنني رأيتها هناك، على الجدار، وما زالت مسوّسة الأسنان وتضحك علي وتسميني فاشلة وأنني لا أستطيع.. لا أستطيع أن أكون مع سوسو في مكانٍ واحد. إما أنا أو هي.

ولو كانت الورقة أكبر لأخبرته عن تلك الليلة عندما حلمتُ بجميع القصائد التي أغرقتها في شبرٍ من الدموع. القصائد تستجمعُ ذاتها وتخرج - رغم عتبها ونقمتها - من أسطول القوارب الغارقة في قاعِ حزني، القصائد تعود وتملؤني بالذاكرة. في صباح ذلك اليوم قفزتُ من سريري وفتحتُ دفتري وكتبتُ، كتبتُ الذاكرة التي عادت، كتبتها بشعرٍ منكوش وبلا ملابس ودون أن أغسل وجهي. كتبتُ عودة اللغة. كتبتها حتى خارت قواي وعاد هو في الرابعة ليجدني شبه جثة بأعينٍ مشرعة على الرّعب القديم. لقد انقضت عليّ الذاكرة ونسفت تلال الوهم التي حاولتُ أن أركمها في داخلي من أجل إنجاح هذا الزواج، لقد وجه لي الماضي هجمة ضارية وأفشل كل شيء.

كنت سأخبره أشياء كثيرة لو كانت الورقة أكبر، لو كان ذهني صافياً كما هو الآن، وأنا ممددة في سريري المزدوج، المزدوج بصيغة المفرد والخاص بوحدتي وهربي ونوبات هلعي. ولكنني لم أفعل، كتبتُ مبرراتي الهزيلة على ورقة صفراء لاصقة وألصقتها على مرآة غرفةِ النوم، وهربتُ..

(مكالمة هاتفية (1

عندما تجاوزت الساعة الحادية عشرة صباحاً، خرجتُ إلى الشارع. أومأتُ لموظف الاستقبال فابتسم. الشتاء في بداياته، وبوسعي أن أكتفي بقميصي القطني والشال على كتفي. كانت الأرصفة قذرة وفارغة، وأمامي ساحة رمل وساحة مواقف للسيارات، مشيتُ بمحاذاة الفندق، وقطعت الزقاق الهزيل بين حائطه وجدار الكيربي للمبنى المقابل. واصلتُ المشي حتى وصلت إلى متجرٍ لبيع الأزهار. دخلتُ، حييتُ العاملة الفلبينية وأخبرتها بأنني فقدتُ هاتفي وأحتاج إجراء مكالمة خاصة. دفعت .جهاز الهاتف إلى الأمام وذهبت لمهامها. منذ الرنة الأولى جاءني صوته

ألو؟ -

-...

ألو؟ -

- ...

فاطمة؟ هذه أنتِ؟ -

.هذه أنا ..-

من أين تتصلين؟ -

.لا يهم -

!أنتِ في السالمية -

.نعم -

- أين كنتِ طوال الليل؟

- أنا على ما يرام.

- هل جننت لتغادري هكذا؟

- إنني..

- إنكِ ماذا؟

- إنني أفعل ما أشعر به.

- لا يمكنك أن تتصرفي هكذا، ليس من حقك أن تتصرفي هكذا.

- هل سنتشاجر؟

- وماذا كنتِ تتوقعين؟ أن أتوسّلكِ؟

- من حقي أن أتصرف كما أشعر، بل على العكس، من الجُرم أن لا أفعل.

- وماذا عن حقوق الآخرين؟ ماذا عن حقي أنا في أن تحترمني زوجتي وأن ترد على اتصالاتي وأن لا تهرب من بيتي فيم أنا أكدح كالحمار لتأمين عيشها؟

زفرتُ..

- طلّقني وترتاح.

- لن أفعل. الجميعُ قلقون عليكِ.

- من؟

- كلّنا.

- وصقر؟

- صقر قلقٌ أيضاً. إنه يبحث عنكِ في الشوارع.

- يا لك من كاذب.

- إلى أي حد تعتقدين بأنني يمكن أن أتستر على استهتارك؟

- وهل تعتقد بأنني ما زلت في الثالثة عشرة وأخاف من غضبته؟

- وماذا تنوين أن تفعلي؟

- أنا بصدد اكتشاف ذلك.

- ماذا حدث لرقمكِ القديم؟

- لقد تخلّصتُ منه. هل قرأت رسالتي؟

- قرأت رسالتك الغبية.

- أنا لن أعود.

- لا أستطيع مناقشة مشاكلنا هكذا، أخبريني أين أنتِ. يمكننا أن نجلس في مقهى وأن نتحدث في الموضوع. كل شيءٍ يمكن إصلاحه.

شهقتُ، هل كنتُ أبكي أم أضحك؟

- ما بكِ؟ هل تضحكين؟

- أنا لا يمكن إصلاحي.

- أين أنتِ؟ أنا في طريقي إلى السالمية. يجب أن نلتقي.

- هل نمتَ بالأمس؟

- أنا لم أعد إلى البيت منذ مساء الأمس.

- يجب أن تنام.

- يجب أن نلتقي.

- لا.

- لماذا اتصلتِ إذن؟

- لأقول طلّقني.

- لن أفعل.

- سوف أقفل الخط.

- إياكِ!

- سأتصل بك بعد أيام، بعد أن تفكر.

- لحظة! هل أخذتِ الدواء؟

- مع السلامة.

لأن قبوري كثيرة جداً

مشيتُ حتى شارع سالم المبارك، بمحاذاةِ مجمّع الفنار، والبستان، وليلى غاليري. انتبهتُ إلى فندق أمنية، يبدو أجمل من فندقي. ربما سأنتقل للعيش هنا لاحقاً، وسيكون علي أن أفعل شيئا بشأن المرآة المسدّدة إلى وجهي مثل إصبع اتهام.

مشيتُ حتى بلغتُ مجمع مريم، نزلتُ إلى السرداب وجلستُ على أحد أرائك المتجر، أنظر إلى ملابس الأطفال وأتصرف كما لو أن كل ما هو حولي موجودٌ من أجل منحي عزاءً ما. أنظر إلى التنانير المكشكشةِ مقاس السّنة والنصف، أمضي بعيدًا في الذاكرة، أغورُ. أعودُ إليّ وأنا في التاسعة عشرة من عُمري، محاولة هربي الأولى، يبدو أنني أتمّمُ الأمر وحسب.

منذ المرة الأولى وقبوري الصغيرة تملأ المكان، إنني أتفتت ويدفن بعضي بعضه، ولي أعضاء غير مرئية مطمورة في الحدائق العامة والشواطئ والأصص المهجورة. قبوري كثيرة جداً، أكثر من أعضائي وأيام عُمري، وأكثر بكثيرٍ من جسدي.

لقد تعرضتُ للوأدِ بشكلٍ منهجيّ، وعندما انتشلتُ نفسي من الحفرةِ وخرجتُ.. اكتشفتُ بأنني لم أعد قادرة على السعادة. لقد تم تفريغي من قدرتي على الحب، والمنحِ، والحياة. لقد جففوا أنوثتي. إنني لا شيء.

- بكم هذه؟

سألتُ الموظف المنشغل بطيّ بنطلونات الجينز الصغيرة.

- 70 ديناراً.

- سأشتريها.

رغم أن مواردي بالكادِ تكفيني. رغم أنها غالية، رغم أنني لستُ أماً لطفلة عمرها سنة ونصف، رغم أنني لا أعرف أحداً يمكن أن أهديهِ هذه التنورة الوردية المكشكشة. كنتُ أحتاج أن أشتريها، أن أسمح للأشياء الجميلة بأن تتواجد في حياتي.

قبضتُ على الكيس الصغير، وفيه التنورة التي كبرتُ عليها كثيراً، ويممتُ شطر البحر. هناك سأقضي ساعات يومي الباقية. امرأة حرّة وبلا علاقات تجرّب ذاتها، سوف أبتهل. سوف أصلّي صلاتي..

.يا قويّ، امنحني القوة

،قوة الفكرة، قوة الفطرة

.قوة الحقيقة، حقيقة السؤال

،قوة القاف

،مرونة الواو

خفة التاء رغم القيد

.والمعصمين المتصالبين فوق الرأس

!يا قوي، امنحني القوة

،قوة العشبة التي تجرح الجدار

،قوة القطرة التي تثقب الحجر

..قوة الصلاة التي تستجلبُ المطر

مكالمة هاتفية (2)

من كابينة الهاتف العمومي، من العاصمة، في المبنى الضخم لمجمّع الوزارات..

- ألو، فارس؟

- أأنتِ في الديرة!

- نعم.

- أين؟

- لا يهم.

- لقد انتظرتكِ طويلًا.

- أردتُ أن أمنحك وقتاً كي تفكّر.

- متى ستعبر نوبة جنونك هذه وتعودين؟

- أنا لن أعود.

- كوني عاقلة. لا تسببي لنا الفضائح.

- الفضائح لا تخيفني.

- وما الذي يخيفكِ؟

- العودة.

- كل مشاكلنا يمكن حلّها.

- ألن تطلّق؟

- أريد أن نلتقي.

- لا..

- في المكان الذي تريدين.

- لا..

- لن ألمسكِ. لن أجبرك على شيء. سنتكلم فقط.

- لا..

- لا أستطيع مناقشة مشاكلي الزوجية وأنتِ تتكلمين من متجر أزهار.

- لا أستطيع. لا يمكنني..

- أنا لن أطلّقكِ على الهاتف.

- هل هذا يعني أنك ستطلقني وجهاً لوجه؟

- إذا اقتنعت بأن الطلاق هو الحل.

- لا أريد أن أراك. لا أستطيع..

- اتصلي إذن، من رقم خاص. لا يمكننا مناقشة أي شيء بهذه الطريقة. إنني قلقٌ جداً، ولا أستطيع النوم، ولا العمل، ولا إخبار أي أحدٍ بما يحدث لي. إنك مدينةٌ لي بهذا على الأقل.

- طيب.

- سأنتظرك.

حياة

- عندما اتّصلتِ بي لم أصدّق..

قالت وهي تسحب كرسيّها إلى الأمام، وتحتضن كوب القهوة الورقيّ بيديها. تستدفئ بهِ دون أن تبدو راغبة بما فيه.

- بعد كل هذه السنوات!

وأنا لم أكن أستطيع الكلام بعد. كنتُ أحتاج إلى ساعاتٍ طويلة حتى أنظر إليها. إلى صديقة طفولتي التي لم أرها منذ أربع سنوات. اكتنز جسدها قليلًا. وبدت مرتاحة بقميصها القطني الأبيض والمعطف الأسودِ فوقه. شيءُ ما، في ذلك الوجه، يقول بأنها هي. شيءُ ما، شيءُ آخر، يقولُ بأنها أكثر من ذلك بكثير.

ساد صمت. لم أكن قادرة على الحراك، كنتُ أجبن من أن أنظر في عينيها. حاولتُ أن أعلق نظراتي على البحرِ الكثير في الخارج. يدي تخشبت. فنجاني برد.

- كثيراً ما تساءلتُ عما حدث لكِ.. بعد الأصبوحة.

آه، الأصبوحة. غيمةٌ في رأسي. غياهبُ غياب. قصيدةٌ تسيل من فمي. غبشٌ. مجابهة دمار العالم بقصيدةٍ في القلب ووردةٍ في اليد. عبثُ صريح. أكادُ أضحك! أحاول أن أشدّ الحوار من أعطافهِ خارج جغرافيا دماري. أحاول أن أحصل على أشياء أبسط وأقل، حوار سطحي وتافه عن جمال البحر وبرودة الجو. أحاولُ أن أبقي الكلام عادياً:

- كيف حالكِ؟

- بل كيف حالكِ أنتِ!

قالت وهي تضغط على أصابعي بيديها. يدها دافئة. تصرّ على أن تثقبني بعينيها وهي تسأل:

- ماذا فعلوا لكِ؟

- حبس انفرادي تقريباً.

- لأربع سنوات؟

- ثلاث..

- اتصلتُ عليكِ مراراً، كان رقمكِ القديم قد انقطع عن الخدمة. ثم تجاسرتُ واتصلت لكي أطلبكِ من البيت. اتصلتُ عدّة مرّات، وكانت ابنة أخيكِ تخبرُني بأنك بخير ولا تريدين الحديث معي. لم أصدّقها، ولم أدرِ ماذا أفعل. حاولتُ أن أزوركِ في البيت مرّة، أخبرتني الخادمة دون أن تفتح البوابة بأنك مُسافرة. صدقتها لأنني أردت ذلك، تخيلت أنك قد ذهبت إلى خالتك في البحرين..

- لقد كنتُ في السرداب وحسب.

- وكيف وصلتِ إلى هذا المكان؟

- ماذا تعنين؟

- كيف صرتِ الآن.. فجأة، قادرة على أن تلتقي بي في مقهى. متى صار ذلك ممكناً؟

- في الواقع، لقد كان بوسعي ذلك منذ مدة، أقصد من حيث الاستطاعة، لا من حيث القدرة.

- لماذا؟

- لا أدري، أعتقدُ بأنني كنتُ أشعر بالعار.

وضغطت على يدي أكثر وامتصتني بعينيها..

- العار من أي شيء؟

- من كل شيء. من القصيدة. من الصفعة. من الحبس. من الزواج.

- الزواج؟

- نعم.

- منذ متى؟

- منذ عام..

- مبروك!

- على ماذا؟

ألم تتحسن أمورك؟ -

..تحسنت قليلًا -

استبدلنا الجدران المتصدعة بورقِ جدران. عندي غرفة جلوس ذات أثاث عصري وألوان زاهية تتراوح بين درجات البيج والفستقي والزيتوني. تلفزيون بعرض 22 بوصة، ثلاثة أرفف لكتبي، أفلام. عندي غطاء سرير هندي الطراز، ألوانه كثيرة وخيوطه مذهبة. عندي مقبض بابٍ غير مخلوع. نوافذ. مزهرية مليئة بسيقان البامبو، جاكوزي بديع الشكل، نعم تحسنت الأمور..

.تحسنت الأمور قليلًا، ولكنني لستُ بخير -

ماذا تعنين؟ -

.أعتقد بأنني غير قادرة على العيش -

..واشتدت قبضة يدها على أصابعي وهي تقول

.أنا سعيدة لأنك اتصلتِ -

:حاولتُ أن أبتسم. عادت تسأل

وما الذي تفعلينه الآن؟ هل عدتِ للدراسة؟ هل تعملين في مكانٍ ما؟ -

.في الواقع لقد كنتُ.. كنتُ آمل أن تساعديني أنتِ في هذا الأمر -

أي أمر؟ -

.الحصول على عمل. إنني مفلسة تقريباً -

..وأشار بؤبؤ عينها يميناً

.سأرى ما يمكنني فعله، عندي بعض العلاقات -

.شكراً لكِ -

هل خطر لكِ أن تعودي لاستكمال دراستك؟ -

..ربما -

ألا ترغبين بذلك؟ -

.لستُ متأكدة مما أرغب به. لستُ متأكدة من رغبتي بالحياة أصلا -

هل هذا يعني أنك راغبة بالموت؟ -

أرغب بأن أنسى. تخيّلي، لو أنكِ أخذتِ ذاكرتك المأهولة بكل ذلك الدمار إلى حياتك الثانية. -
.لن يكون ذلك جميلًا

هل خطر لكِ أنك تحتاجين إلى مساعدة من متخصص؟ -

.سبق وفعلت، وعندي أدويتي -

أي أدوية؟ -

.ألبرازولام -

مضاد اكتئاب؟ -

.نعم -

هل تتعاطينه تحت إشراف طبيب؟ -

..في البداية نعم -

ثم؟ -

ثم تسبب في أعراضٍ جانبية أقلقت المعالجة، فبدأت أشتريها بشكلٍ غير قانوني من -
.الانترنت، من سمسار كوري يتاجر بالعقاقير

..ضحكتُ. حياة لم

..لا يجدر بكِ -

.ابتسمتُ

بعد كل هذه السنين ستحاولين حمايتي؟ -

لقد حاولتُ حمايتكِ طوال عمري. حتى أنني قسوتُ عليكِ أحياناً. في ذلك اليوم، عندما دخل -

..صقر إلى القاعة وضرب رأسك بالجدار، كنتُ أشعر بأن الأمر برمّته غلطتي. أنا حرّضتكِ

هل ضرب رأسي بالجدار حقاً؟ -

هل سامحتني يا فاطمة؟ -

.لا تكوني سخيفة -

رأيتُ دموعاً في عينيها. رأيتُ نصف ابتسامةٍ في فمي. رأيتُ وجعي القديم يعشش في أعماقها، رأيتُ الألم ينتشر وأنا أتفرّج، أتفرج بنصفِ ابتسامة. جففتْ دموعَها بطرفِ كمّها، ثم :سألت وهي تحاولُ أن تبتسم

هل ما زلتِ تكتبين؟ -

وشعرتُ في تلك اللحظة بأنها تهيّج باطني. شعرتُ بشفتيّ ترتجفان وأنا أحاولُ - بكل وجع !العالم - أن أكون صادقة بأبسطِ صورةٍ ممكنة: نعم

..وتنفست الصعداء بوجهٍ منبسط

.أنا سعيدة! سعيدة لأنك احتفظتِ بالشعر، إن مجرد كتابة الشعر في نظري بطولة -

..إنه الشيء الوحيد الذي يبقيني متماسكة الآن -

وامتدّ صمت. كيف أخبرها بأنني هربتُ لكي أكتب؟ وهل يمكن أن لأمر كهذا أن يكون مفهوماً؟

..اسمعي يا حياة -

.وازدردتُ ريقي بصعوبة

.لقد هربتُ من زوجي -

نعم؟ -

..لقد هربتُ -

(مكالمة هاتفية (3

ألو؟ -

!وأخيراً -

وأخيراً؟ -

اشتريتِ الرّقم الجديد؟ -

كيف حالك؟ -

لم يكن هناك داعٍ لتتخلّصي من رقمك القديم. بوسعكِ إقفال الجهاز والتحكم في ساعات - الاتصال. مثل صاحب البقالة وهو يعلق على الباب: مفتوح. مغلق. تنتهي المشكلة! كان يجدر بكِ استشارتي.

في تفاصيل هربي منك؟ -

..واضح أنك غير قادرة على حبكِ التفاصيل -

.إنني أتعلّم -

وبالمناسبة، هل أنا بذات السوءِ حقاً؟ أم أنك تشعرين بالحسرة والغضب لأنك لم تهربي من - صقر في تلك السنوات، فقررتِ أن تهربي مني؟ أن تنتصري لكِ مع الخصم الخطأ. مع زوجك!

.أنت لن تفهم الأمر أبداً -

لن أفهم ماذا؟ -

.إنني أحاول إنقاذ ما يمكن إنقاذه، ما تبقى مني. إنسان بحجم عقلة الإصبع -

إنسان بحجم عقلة الإصبع؟ أنت محقة يا "ثمبلينا" أنا لا أفهم شيئاً. لم أفهمك قط، - وبصراحة أنا لا أعتقد بأن الأمر غلطتي. افتقاركِ التام إلى المنطقية، مزاجك المستحيل ونكدك الأبدي وكلامك الذي لا يشبه كلام الناس، هل ستواجهين مشكلة لو أنك جربتِ أن تتكلمي - لمرة - مثل البشر الطبيعيين؟ أن تضعي إصبعك على المشكلة وتقولين تلك هي مشكلتي؟

- لقد تحررتَ من كل هذا الآن ويجدرُ بك أن تحتفل.

- أخبريني فقط ما الذي كان ينقصك معي؟ لأنني تعبتُ من لعبة التقصّي وكل ما أستطيع تذكّره هو أنني كنتُ أحاول إرضاءكِ طوال الوقت.

- إن كل ما أقوله يبدو كالطلاسم بالنسبة لك.

- جربيني.

- طيب! إذا وضعت الأثاث الجميل وورق الجدران وهداياك الصغيرة جانباً، فأنت في الحقيقة لا تختلف عن صقر.

- لا يمكن أن تكوني جادّة!

- فكّر بالأمر. تقولُ: لا أريد زوجة عاملة. لا أوافق أن تدرسي. كل ما تكتبينه يجب أن يبقى في الدرج. هذا ما تلبسينه، وهذا ما تفكّرين فيه. أعتقدُ بأن الحبل الملتفّ على رقبتي قد ارتخى قليلًا ولكنه ما زال هنا وأنا أشعر به ولا يمكنني أن أتسامح مع وجوده أكثر.

- كل ما فعلته هو أنني مارستُ حقّي الشرعي.

- معكَ حق. في النهاية لا أحد يلومك إذا تصرفت كإلهٍ صغير. أن تجد رجل القانون ورجل الدين في صفك، والمجتمع يضع ثقله كاملًا في سلطتك. إنني لا ألومك، فقد وجدت المسوغات الكافية لكي تصادر كل حقوقي! ولكنني لا أستطيع أن أقبل بذلك أيضاً. أنا غير مضطرة للتورط في علاقة من هذا النوع. ليس قبل مرور مئة سنة.

- لن تعيشي مئة سنة.

- لا أعتقدُ بأن الكثير يفوتني.. بصراحة.

- لماذا لم تقولي ذلك من قبل؟

- ماذا أقول؟ أقول لك اسمح لي بأن أدرس أرجوك، أقبل يدك وأتوسل حتى تتكرّم وتسمح لي بأن أحظى بجزء من حقي الطبيعي كإنسان وتسمي الأمر كرماً من لدنك؟

- لم أكن أتوقع بأن الأمر جاد إلى هذه الدرجة. مسألة الدراسة مثلًا..

- الدراسة مجرّد مثال.

- وما هي طلباتك؟

- لا طلبات. أريد الطلاق.

شريك في الجريمة

ليس سيئاً أبداً» هذا ما قالته حياة: ليس سيئاً بالنظر إلى شكلهِ من الخارج. إنه يبدو»
كخرابة، ولكن الغرفة ليست بذات السوء. كيف عثرتِ عليه؟ قالت ذلك وهي تخلع حذاءها وتتمدد
!على السرير وقد رفعت ساقيها إلى أعلى وأسندت كعبيها إلى الجدار. هذا الحذاء شنيع

بدت وكأنها قد نسيت وجودي، أو أنها تحتاجني - فقط - لكي تسمع صوت أفكارها. ثم التفتت
إلي وسألت بكثير من الفضول: كم سعر الليلة؟

- 25 ديناراً.

:وقامت بالحساب داخل رأسها ثم هتفت

- 750 ديناراً في الشهر!

.تحصلين على تخفيض إذا كانت إقامتكِ طويلة. دفعتُ 500 نظير شهر -

وأنتِ مفلسة الآن؟ -

.تقريباً -

.سوف نسترجع أموالك. يمكنك أن تقيمي في بيتي -

كنتُ أرغب بسؤالها: هل لكِ زوج وأطفال؟ ماذا تشتغلين؟ وماذا حدث لك طوال تلك السنوات؟
:ولكنها كانت قد سبقتني

لقد هربتِ إذن؟ -

ماذا تشربين؟ -

ماء. هل هو سيئ؟ -

من هو؟ -

.زوجكِ -

بأي معنى؟ -

.بالمعنى الذي ينطبق على صقر مثلًا -

لا، وهو ليس سيئاً بالمعنى العام. لا يسكر، لا يضرب، يقوم بواجباته، وهو فوق ذلك شخص -
.لطيف

إذن أين تكمن المشكلة؟ -

المشكلة ليست فيه. المشكلة فيّ. إنني لم أعد أستطيع اللعب بقوانين هذا العالم، لا أريد أن -
أضطر إلى ذلك. لا أريد أن أتحايل وأن أكيد وأن أتوسل وأتسول حقوقي. لا أريد أن أعمل في
.وظيفة لأن زوجي "يسمح" بذلك. أريد أن أعمل في وظيفة لأنني أريد ذلك. تفضلي الماء

اعتدلت جالسة، تربعت في منتصف السرير. نظرتُ إليها لوهلة وقلبي يبتسم. ما زالت هي.
.كأننا قبل أربع سنوات، حيويتها طبيعية

متى قررتِ الأمر؟ -

.بعد أن عاد الشعر -

وصمتت. كانت تلك لحظة فائقة. اللحظة التي تجلى فيها الشعر في حياتي ليس بصفته هواية،
أو موهبة، أو شغف. بل بصفته مخلصاً، فاعلًا في الأحداث، شريكاً في الجريمة! أن تهرب
!امرأة من زوجها - الذي يبدو تقريباً بلا عيوب - لكي تكتب الشعر. يا لها من حكاية

ولكن لماذا هربتِ يا فاطمة؟ لماذا لم تحصلي على الطلاق كما تفعل النساء؟ -

لأن الطلاق قراره في النهاية، وأنا أريد أن أكون شريكة في هذا القرار، أريد أن أعرب عن -
..موقفي، لقد كان عليّ، كان علي

.وازدردتُ ريقي وأنا أرتجف من الانفعال

!كان عليّ أن أنتصر لي! أن أهرب من السرداب -

(مكالمة هاتفية (4

أنت لا تفهم! لا تفهم أبداً! إنني أحاول المحافظة على حضوري الهش والتافه في هذا العالم. - من العبث أن نتحاور في شأن أية علاقة يكون إنسانها متآكلا إلى هذا الحد! إنكم تسمحون لنا بأن نصدأ ونفسد ونقتل ولكن العلاقة مع ذلك مقدسة ويجب احترامها! يجب احترام الزواج وإن تسبب في إيذاء إنسان. وكل ما يقع خارج نطاق الضرب والسب فهو ليس إيذاءً بأي شكل. كل حديث عن العلاقة هو محض تزييف وتسطيح طالما أن الإنسان عاجز عن أن يكون نفسه. الكتابة تنقذني من كل ذلك، عندما أكتب أكون أنا. لماذا تريد أن تأخذ ذلك مني؟

- ..أنا لم أمنعكِ

العقاقير، الحبوب المنومة، مضادات الاكتئاب، الصداع النصفي، الكوابيس.. يا له من ثمنٍ - .باهظ تجعلني أدفعه لكي أكف عن الكتابة

.لا مانع بأن تكتبي في إطار الضوابط التي وضعتها لكِ -

الضوابط بأن تبقى نصوصي في أدراجي ودفاتري وأن أداري الفضيحة التي اسمها أنا، - الفجيعة التي اسمها أنا! لا لن أفعل. أنا لن أكتب في السراديب، لا مزيد من السراديب! لا !مزيد

.نحن نعيش في بلد صغير، وأنتِ تعرفين كيف يتلقى الناس أمراً كهذا -

.لا أحد يتسامح مع الجمال -

ما هذا الهراء؟ -

تتسامحون مع القبح، مع ضرب الأطفال واغتصاب النساء، مع الشتم واللعن، مع العنف - المنزلي، مع العنصرية، تتسامحون مع إسرائيل، مع أمريكا، مع طائفيتكم، مع فساد الحكومة، مع زواج القاصرات، مع كل شيء! تتسامحون مع هراء العالم كله ولكنكم لا تتسامحون مع ..قصيدة

.يمكنك نشرها باسمٍ مستعار -

.لا -

- إنني أدنو خطوة باتجاهكِ ولكنك لا تحاولين، أنتِ مصرة على إفشال كل الحلول، إنك ترفضين المساومة!

- لا مساومة على المبدأ. إنني لا أجد فرقاً بين الوأد الذي تعرضت له في سرداب صقر وبين ما تفعله أنت عندما تقرأ قصائدي بأعين متفحصة وتحاكم سطورها وتستجوبني عما قصدته بهذه الكلمة وتلك العبارة.. ثم تحبس النص في درجك وتقرّر أن تسمح لي - لأنك طيب القلب - بأن أحتفظ به طالما أنني أكتب لنفسي. في حال أنك لم تلاحظ، أنا أجفّ كثيرا في وحدتي وأريد أن أحظى بحضوري كاملا. أريد أن أعمل، وأن أحصل على شهادة، وأن أكتب، وربما أتطوّع في جمعية حقوقية وأحمل لافتات تندد بالحكومات العربية.. أريد أن أحظى بحياةٍ كاملة فلماذا يجب أن يكون الأمر بهذه الاستحالة؟ لأنني امرأة؟

السكاكين الطائرة

،التفكير فيك يشبه التفكير في خنجرٍ مغروسٍ في الخاصرة

،يشبه التفكير بمضادات الاكتئاب التي لا تنفع أبداً

.يشبه التفكير بالعطش، لا الماء

.كما لو جلاد، رغم حنانك

.كما لو قاضٍ، رغم محبتك

..كما لو سجّان، رغم رقتك

رقتك.. وأنت تضعُ السّلاسل في يدي، تضع الصمتَ في فمي، تغرسُ الدبابيس في مِعصمي، وتقول: ششششش.. إذا هدأتِ سيصير الأمر أسهل لكلينا! تقول: ششش.. برفق، ويدك الدافئة، المتعرقة، التي تفوح منها رائحة الصدأ والحديد، مثل قناعٍ مستحيل، على وجهي. تعبيرات .وجهي عورة اجتماعية، لا أحد يريد اكتشاف تعاستي

اللحظة التي كنت تضمّني إليك وتربّت على شعري، فيم يدك الأخرى مشغولة بغرسِ حقنة، بحياكة مكيدة، بتسميم حُلم. أوجعتَني بمنتهى الحنان، وبين كثير من القبلات، في الصحراء الأبدية المترامية في صدرك حيث ركضت طويلا.. طريقتك الاستثنائية في منحي الألم والحب معاً، حتى لم أعد أعرف أين ينتهي الأول ومتى يبدأ الثاني، وإن كان يمكن الفصل بينهما .أصلًا

لم تكن فظاً، ولا غليظاً. كان صوتك دافئاً مثل مؤونة شتوية وكانت يدك بخفة بهلوان السيرك، فيم أنت تنتقل من أداة تعذيبٍ إلى أخرى، وتتوسل إلي أن أسمح للأمر بأن يمر، تعتذر، وأنت .تزرع الدّبابيس في قلبي، مثل ممرّضةٍ طيبة

لقد كنتُ دُميتك. كنتُ الضحية المثالية الملتبسة بين الوجع واللذة، بين الألم والحب. كان جسدي يرتعد تحت جناحك وأنا أجنح خارج منطق الأشياء. أين يبدأ حبك وأين ينتهي أذاك؟ أين تبدأ

كراهيتك وأين ينتهي حنانك؟

لقد عطلت فيّ القدرة على الحب، منحه وتلقّيه. لقد شلّت حواسي، أنوثتي، حدسي وذكائي وكل ما يمكن أن أكون عليه. لم أعد أستطيع أن أفهم الحبّ خارج صرخات ألمي. ألم وجودك وفرا غ غيابك. كل حب مشبوه، كل حنانٍ هو مكيدة، كل ساطور، كل سكين، كل سوط هو وجه من وجوه الحُب. ساديتك الملتبسة تجرحني من الداخل، مقابل كل جلدة حصلتُ عليها من عقال صقر كنتُ أمعنُ في التعرّف على القبح. معك كان القبحُ جميلًا، وكان الجميل قبيحاً. لقد قتلت قدرتي على النظر إلى الأشياء، العالم مجرد شبهة كبيرة، مسرح جريمة يدار بخيوطٍ حريرية وقفازات ناعمة، وأنا.. في وسط المشهد أتلقى الضربات والقبلات، الحب والألم، بكثير من اللا فهم.

في المرة الأولى التي أخبرتك فيها برغبتي في العودة إلى الدراسة، قلت ببساطة، ودون أن تقلّب الأمر في رأسك، بأنه ليس ثمة دا عٍ لذلك. هكذا قررتَ، وأنت تقلّب جريدة الصباح، ببزتك العسكرية، مستعداً للذهاب إلى عملك. بأن الدراسة ليست حقاً لي. اغرورقت عيناي بالدموعِ، ولكنك وعدتني بأن تأخذني إلى مطعمٍ للعشاء. لم أفهم.

بعد أشهر أخبرتك بأنني سئمتُ المكوث في البيت. وبأنه ليس عندي أشياء كثيرة أفعلها. أخبرتك بأنني أرغب بالعمل. هذه المرّة كنتُ أتوسد زندك على الأريكة الطويلة لغرفة الجلوس، وكنا نتفرج على فيلم. ديجافو لـ دينزل واشنطن. كنتُ أحصل على ديجافو تخصني بدوري. ببساطة زفرتَ: لا. ثم ضغطتني إلى صدرك أكثر. وبدأت تتكلم عن الغبار العالق في فتحات التكييف، وإنه إذا ما كنت أعاني من وقتِ الفرا غ فربما لأنني لم أنتبه للأمور الكثيرة التي يمكن أن تشغلني هنا. مثل الغبار في فتحات التكييف. مثل كعكة البرتقال التي لم أتقنها بعد. مثل تلميع الشمعدانات. مثل ملايين الأشياء الصغيرة التي تدور في فلكك.. مولاي. كل شيء يمكن أن تقع عينك عليه يجب أن يكون مثالياً، منذ تصفيفةِ شعري وحتى وردة الطماطم في منتصف إناء السلطة. لا بأس، لا مشكلة. يمكنني أن أصنع وردة طماطم وأن أعمل، أن أعمل أي شيء، أمينة مكتبة مثلًا! وفي الحقيقة أنا لست مهتمة بتحويل الطماطم إلى ورد! فالطماطم هو الطماطم والورد هو الورد ولا يمكنُ لوقاحتنا أن تذهب أكثر من ذلك في تمييع الكائنات وإخضاعها لمزاجنا. ولكن لا يهم.. إن كانت وردة الطماطم تهمّك إلى هذه الدرجة فسوف أصنعها لك، رغم أنك لن تأكلها وربما لن تنظر إليها أكثر من ثانيتين، ولكن إذا كانت هي الثمن الذي تتطلبه سعادتك فسوف أبذل جهدي وأصنع المزيد والمزيد من ورود الطماطم، ولكنني أريد أن أعمل! أريد أن أفعل شيئاً ينتمي لي وحدي. هل تسمح؟ لا يمكن، ممنوع. تقولها بصوتٍ هامس، مشبّع بالخدرِ والانتشاء. لا. ماذا أفعل إذن؟ أنهض من الأريكة وأضرب باب الغرفة في وجهك وأتمدد على السرير. ماذا تفعل أنت؟ تأخذ مشطاً وتمشط لي شعري حتى أنام. أتوسد قهري وحنان أصابعك ويصبح مستحيلًا علي أن أتبين متى تنتهي أصابعك

.ومتى يبتدئ جُرحي

قبل شهرين، اكتشفتَ بأنني أكتب. اكتشفتَ بأنني ولدتُ لأكتب، بأنني كتبتُ طوال حياتي، وأنني.. بطريقةٍ أو بأخرى، قد عدتُ للكتابة بعد أن جفف صقر ماءها في قلبي. لقد عادت إليّ بسخاء مدهش، وهي تتفجر من داخلي وتفيض. اللغة تتخلّقُ في أحشائي، كنتُ حُبلى بالشعرِ، وكتبتُ.. ولكن أنت، أنتَ وقفت ببزتك العسكرية، وقفتك المتعجلة، تفحصت الأوراق بيديك حتى ارتجفت الحروف وأنتَ تحكها بأصابعك. ما هذه؟ يا له من سؤال. منذُ متى وأنتِ تكتبين؟

..لقد كتبتُ دائماً -

.لم أركِ تكتبين من قبل -

.انقطعت لفترة، عدتُ مؤخراً -

عدتِ؟ -

.الكتابة عادت -

نعم، لقد حدث الأمر هكذا. مثل ضربة شمس، مثل رصاصة في الجبين، مثل كهرباء زائدة في الدما غ، مثل تعثرك في منتصف الشارع.. لقد كان حادثاً، حادثاً حقيقياً. كنتُ أحاول شراء نصف خروف نيوزلندي من اللحام وكنتُ.. على الأرضِ جداً عندما خطفتني السماء وطوحت بي بعيداً. قلتُ للحّام عن إذنك، سأرجع بعد قليل. لم أرجع إلا بعد ساعات. بحثتُ عن مكانٍ للاختباء. الكتابة يجب أن تكون في السرّ دائماً، هكذا علمتني صفعات صقر. دخلتُ إلى كابينة الحمام العمومي وأخرجتُ من حقيبة يدي قلماً، وبحثتُ عن ورقة، منديل، علبة كلينكس! .على ظهرِ فاتورةٍ قديمة كتبتُ اللغة التي عادت تجتاحني.. عادت الكتابة

..إن ما تكتبينه -

:ويبدو أنك تورّطت في البحث عن تتمةٍ ملائمة. تسعل، تحكّ جبينك، تحاول

.إنه جديدٌ تماماً -

جديد؟ -

..لم أقرأ شيئاً مثله. وهو غريبٌ أيضاً -

.شكراً -

هل يسعدك أن تكتبي أشياء غريبة؟ -

..(أرتاحُ في غريبِ الكلام(20 -

هل تمزحين؟ -

.أبداً -

أتعنين أنك سعيدة لأنك تكتبين عن "رأس الغزالة المثبت إلى الحائط بمسامير تئنّ من فرط العبء".. وهكذا أمور؟ -

.بالتأكيد -

..ولكن ليس هذا هو الجوهري في الأمر -

وما الجوهري في الأمر؟ -

.إنني أستطيع رؤيتك جيداً في النّص، وهذا يخيفني، في الحقيقة يزعجني -

ولماذا يزعجك أن تراني؟ -

.يزعجني أن يراك غيري.. هكذا، شفافة هكذا -

ماذا تقصد؟ -

..أقصد -

:وازدردت ريقك ثم قلت -

..إنني سعيد لأنك تجدين طريقة للتعبير عن نفسك، بهذه الأريحية، ولكن -

ولكن؟ -

..ولكن هذه النصوص ليست للنشر. إنها فاضحة -

كيف يمكن أن تكون هناك نصوص فاضحة؟ -

- ألمك، خوفك، رعبك.. هل تحتاجين فعلًا نشر كل هذا الغسيل الوسخ أمام الملأ؟

- قصائدي ليست غسيلا وسخاً.

- لا تجادليني.

- لا حياة لكلمة دون قارئ!

- إذن لا تكتبي..

- كيف يمكنك أن تقول شيئاً كهذا؟

- اكتبي إن شئتِ، ولكن لا تفكري بنشر هذه القصائد. إنني أمنعك.

الزوج المثالي. الذي لا يضرب ولا يصرخ ولا يسكر ولا يخون، يدخن أحياناً، يتفرج على الأفلام، لا يطلب الكثير من امرأته: فقط التخلي عن كل ما يمكن أن ينسب لها. الزوج المثالي، الذي يقصي ويمنع ويبتر بمنتهى الحنو.

لا يمكن للسيرك أن يستمرّ. لا يمكن أن أبقى هكذا مثبتة على الحائط بانتظار السكاكين الطائرة أن تحطّ - بقوة الرحمة والخطأ - على جبيني وتخلّصني مني. لا يمكن أن يستمرّ هذا الفعل الانتحاري إلى الأبد. هكذا قررتُ. هكذا هربتُ.

[20]

جوارب مطوية بعناية

.هيّا.. أنتِ ستأتيَن معي -

واقفةً على باب غرفتي، بعد يومٍ من لقائنا، بصندلها الجلديّ وبنطلونها الجينز الفاتح وأكمامها المطوية بعناية عند المرفقين، وفي فمها ضحك، وفي ضحكها عناد، وفي عنادها حُب. ستأتين !معي. قالت حياة. إلى أين؟ إلى بيتكِ يا فاطمة

قالتها بنبرةٍ رؤوم، مشوبة بعتبٍ لطيف، وهي تقتحمُ الغرفة، بخطواتٍ واسعة، متجهة إلى الدولاب. فتحت الخزانة وأخرجت كتلة متشابكة من الأكمام والسيقان والجوارب. وكأن الفوضى التي تجتاحُ غرفتي كالطوفانِ ليست مدعاة دهشةٍ أو استنكار، انغمست في انتزاع ساق البنطلون من كمّ الفستان، في فكّ عقدة الجوربين الخطأ، في البحث عن الزر المخلوع من ياقة .القميص الرماديّ.. تمنحُ محبّتها بسلطةٍ مطلقة، فيم هي تقومُ بطيّ الجوارب

تبعتها كالمأمورة. شرعتُ بدوري في لملمةِ التفاصيل المبعثرة في المكان، في البحث بين خرائب .قلبي بعد القنبلة. المرآة هي المرآة، وجهي هو وجهي. اختفت الساحرة، وبقي التفاح

.هذا الشيء سوف يبقى هنا -

قالت ذلك، وهي تمسكُ بعلبة ألبرازولام بيمناها، متجهة إلى اسطوانة القمامة، وقدمها تدوسُ على لسانها السفلي لينفتح الغطاء. اسطوانة القمامة تفتحُ فمها والريقُ يقطر من أنيابها ..بشراهة

.أحتاج دوائي -

هذا ليس دواءً. الدواء تحصلين عليه بوصفة. هل عندكِ وصفة؟ -

..لقد أخبرتكِ -

.لا تحتاجين إلى هذا السم -

.لا أستطيع أن أنام بدونه -

.إذن سنسهر معاً -

.وأسقطت العلبة من يدها، إلى بطن التنين. صمتت حياة، تقطّع قلبي

.حزمنا الحقائب، لملمنا جنون المكان، انتعلتُ حذائي وقلتُ لها: اسبقيني

كنتُ أفكر.. بالعلبة البيضاء التي تستلني من حقيقتي، دوائي الذي يعصمني من العالم، قاهر الصرع والاكتئاب والصديق الوحيد الذي حظيتُ به في أيام السوءِ والظلام، كيف أتركه هناك، وحيداً تمتصّه عصارات معدة التنين الحديديّ الأسطواني بين آلاف المناديل الورقية والقصائد الرديئة و..

.أنتِ لستِ بحاجته يا فاطمة -

..أنتِ لا تدركين حقيقة الأمر -

:وكان بودّي أن أضيف: نحن متحابّان ونفكّر بالزواج. ولكنها بادرتني

أتعلمين أين المشكلة؟ -

أين المشكلة؟ -

المشكلة هي أنك قويّة، ولكنك تعتقدين بأنك ضعيفة. لقد هربتِ، وعشتِ وحيدة في هذه الغرفة - طوال أسبوع، وحيدة مع قصائدك! يحتاج المرء.. بل تحتاج المرأة، إلى قوة خرافية لكي تستأجر غرفة تخصّ وحدتها وتملأها بالقصائد. أنتِ لا تحتاجين هذا المخدّر يا فاطمة، لقد خرجتِ من السرداب، وأي واحدة غيرك، ستكون سعيدة بالحصول على زوج يحبسها تحت طبقاتٍ كثيرة من السواد، وإنجاب درزينة أطفال وتمضية اليوم في تقشير الفقع(21)، ولكن أنتِ.. لقد عبرتِ بوابات الجحيم، وكتبتِ قصائد كثيرة، لم ينتزعوا منكِ شيئاً..

21

الموشح الأندلسي

استرجعنا بقية أموالي من الفندق ومضينا. في السيارة البيجو الزرقاء كنا نقطعُ شارع الخليجِ ونرى البحر يلتحمُ بالسماء في تواطؤٍ لونيّ، وكأن البحر نسي بأنه البحر، والسماء نسيت بأنها السماء، وصار كلاهما يهيمُ في الآخر.

سألتني حياة، وهي تدخلُ القرص المضغوط إلى جهاز المسجّل، تستحضرُ فيروز..

- وكيف حال فارس؟

- لم يعد يصرخ في الهاتف.

- هذه علامة جيّدة.

- لقد صرخ طوال خمسة أيام، ربما نفد صوته.

- يمكنه الآن أن يجرّب الإنصات.

- إنه يصمت ويصغي لي طوال ساعات، ويسألني عن قصائدي، وطفولتي، عن أمي وعن صقر وما حدث لي بالضبط في تلك الأيام. لم يسأل عن هذه الأمور من قبل..

- هذا رائع يا فاطمة.

- هل هو رائعٌ حقاً؟ إنني لا أجد معنى للأمر، ولكنه تحوّل إلى عادة. لماذا أخوض في كل هذه التفاصيل معه في الوقتِ الذي أعلن فيه نهاية علاقتي به؟

- لا يمكن للحوار أن يكون سيئاً أبداً. وإذا كان استئجار غرفة فندقية هو ما سيدفع الرجال إلى الإنصات إلينا فعلينا جميعاً أن نفعل مثلكِ..

- الغريب في الموضوع أنني في نقاشاتنا لا أشعر أبداً بأن الطرف الآخر هو رجلٌ تزوجته قبل سنة اسمه فارس، بل هو المجتمع كله، النظام، القانون، الاستمرارية القاتلة للموازين المعتلة.. إنني أحاورُ هذا العالم، الذي أعلنتُ مؤخراً اختلافي عنه وخلافي معه، أحاوره من خلال زوجي، مشروع طليقي.. أحاوره وكأنني أحاول أن أغير الأشياء! أن أحرّر الحرية وأحاصر الإيذاء. وفي غمرة النقاش أشعر أحياناً بأن روحي ترتفع عن المشهد وأراني من مكانٍ علويّ وأضحك على عبثية المحاولة، على الدونكيشوت الذي ينطح طواحين الهواء في داخلي. إنها

!ملهاة

..لا بدّ وأنك تستمتعين كثيراً -

هل تمزحين؟ إنني لم أشعر قط بهذه القوّة. وهي قوّة تنبع مني أنا، دونما أي حاجة إلى - فرض أي نوع من السيطرة! إنني قوية دونما عدوان، قوية لأنني أنا. وأغلق الهاتف، وأتصل عليهِ في الليلة التالية ليخبرني بأنه لم ينم من كثرة التفكير فيما قلت. إنني أتحوّل إلى إزعاجٍ حقيقي. ورغم ذلك أشعر أحياناً بأنها طريقتي الجديدة المبتكرة في تدمير ذاتي، الانخراط في محاورة الآخر إلى هذا الحد، السير حتى نهاية النفق رغم علمكِ بأن النفق مسدود في آخره.. ما الجدوى؟

صمتنا لدقائق. تركنا فيروز تنتشرُ في المكان. نسينا أنفسنا في الموشّح الأندلسيّ المنسوج من أبيات المتنبي: إن شئتَ تقتلني فأنت محكّمُ، من ذا يطالب سيداً في عبده؟ أفلتت من صدري آهة، عميقة، مسحوبة من مكانٍ سحيق. آهة على غير العادة، كأن عمرها أربع سنوات، كأنها ..تخرج من قلبٍ غير قلبي

..وبالمناسبة -

:قالت حياة

.عصام يسلم عليك -

حياةُ حياة

.حياة هي أنا في حياةٍ أخرى. حياة هـي أنا لو أنني حظيتُ بحياة

.ربما، لو أنني حظيت بحياة كحياة، لكنتُ هـي تماماً

الأمر يشبه أن تنظر إلى نسخة أجمل عنك. هذا ما كان ينبغي أن تكون عليهِ حياتي لولا الحادث واليتم والسرداب والحب والشعر والزواج وأشياء أخرى. بهذه البساطة، الناصعة والعارية: امرأة بشعر قصير، تجاعيد لطيفة حول الفم، تنفرطُ عندما يطلق وجهها ابتسامة، مثل لغةٍ سرية. قميصٌ أبيضٌ قطني بأزرار ذات كلابات، جينز شاحب الزرقة، يضيق عند الفخذين ويتسع عند بطة الساق، معطفٌ مربوط حول الخاصرة بكثير من اللا مبالاة، لونه بيج ببطانة من الساتان البنيّ الداكن. هذه هـي أنا، لو لم يتم اختطاف حياتي. أنظرُ إليّ في احتمالي الآخر، في حياةِ حياة، .ويعجبني ما أراه فيّ عندما لا أكون أنا

وفيم كانت حياة - التي هـي أنا لو كان بالإمكان تلافي الفاجعة - تشرّع لي أبواب غرف بيتها، وتكشف لي الأماكن السريّة للقهوة والسكّر والشوكولاتة الداكنة، وتقرّب لي صحناً مليئاً بالكرز، وتعرّفني على زوجها أحمد، وابنها مساعد، فيم كانت تفتح لي بوابات حياتها كاملة.. كان الشيء الوحيد الذي يملأ كياني ويهيمنُ على أحشائي من الداخل هو: .الألم

مثل هاويةٍ لا نهاية لها من الظلام وأشياء أخرى. الغيرة من حياة، من حياتها، من الزوج البشوش الذي يرسم لوحات الفلكلور ويأخذها إلى زالامسي كل صيف، والطفل الرائع المشغول بدراجته الحمراء الصقيلة فى حوش البيت، النشاط التطوعى والنضال السياسى وأشياء كثيرة،

..كثيرة، كان يمكن أن تكون لي، لولا أنني

هل تعجبكِ غرفتك؟ -

.قالتها، بعينين تخترقانِ حجب وجهي. ملامحي تفضحني

.إنها جميلة جداً -

وارتعشَ صوتي وبكيتُ، وجلستُ على طرفِ السرير، وكان الغطاء السماويّ القطني الناعم ينفذُ إلى روحي، وكانت الأرضية الباركيه تبتسمُ في وجهي، وكانت لوحة البحر المليء بالقوارب الشراعية تمدّ لي .الصواري. إنها غرفة زرقاء جداً وأنا أبكي من سواد قلبي

.لم يفت الأوان بعد يا فاطمة -

..اغفري لي -

أغفر لكِ ماذا؟ -

.النار في داخلي -

ابتسمت. سحبت كرسياً وجلست قبالتي وهي تمسكُ بمعصميّ بيدين ..صلبتين

.أنتِ لم تموتي بعد يا فاطمة -

.لقد سرقوا عُمري -

..أعرف -

.سرقوا كل شيء -

ولكن أنتِ هنا الآن، وبوسعك أن تحظي بحياتك كاملة، أن تكتبي، وأن -

تسافري، وأن تعشقي.. أما بالنسبة لما اختبرتِه، لما عشتِه.. الحقيقة التي تكشفت لك وحدكِ، الوجه المخيف للعالم الذي جابهتِهِ وحيدةً، هذه المعرفة التي توجد في داخلك، ولا توجد في داخل أيٍ منا، صدقيني.. يا صديقتي، كلنا نحسدكِ عليها.

(مكالمة هاتفية (5

- ..لقد مرّت عشرةُ أيام

- .هذا صحيح

- !عشرة أيامٍ يا فاطمة

- ..أعرف

- !أفتقدكِ! أفتقدكِ جداً

هل أخبرتكَ ما الذي فعلته بالأمس طوال ست ساعات؟ -

ما الذي فعلتِه؟ -

- .وضعتُ يدي في جيب معطفي ومشيت

هذا ما فعلتِه طوال ست ساعات؟ -

- ..نعم. وضعت يدي في جيبي ومشيت على طول شاطئ الشويخ

وهل من الضروري أن تقولي "وضعتُ يدي في جيبي" كما لو أن في الأمر مغزى؟ -

أحب هيئة الإنسان الذي يضع يده في جيبه. هيئة لا مبالية ومتحررة.. ثم، هذا يخبرك أيضاً - بأنني خرجتُ دون حقيبة يد. إنني أتخفف من كل شيء. وأشعرُ مؤخرا بأن كل شيء يوجد في .العالم على سبيل البداهة يزعجني ويسبب لي حكة في جلدي ويجعلني أهرش

إذن فقد مشيتِ لست ساعات. هذا كل شيء؟ -

ست ساعات يا فارس! ست ساعات! أتذكّرُ في إحدى المرات وكان الطقس شتوياً ورائقاً - وكنتُ أرغب بالذهاب إلى البقالة مشياً. أنتَ تصرّفت وكأنني على وشك اجتراح فضيحة. قلت أوصلك بسيارتي. لقد كنت عاجزة عن المشي لمدة عشر دقائق، وبالأمس.. بالأمس فقط، مشيتُ لست ساعات، وكان هناك البحر والأفق وناقلات نفط تصدر البترول للخارج لكي نعيد استيراده إلى الداخل. هذه نكتة حقيقية. ولكن المهم يا فارس أنني مشيتُ، طوال ست ساعات، وكأنني أحاولُ اللحاق بما فاتني، ثم تساءلتُ عما فعلته بي تلك الأيام العشرة من هربي. إنني

أتحول إلى قطة شوارع، أسبر الأرصفة وأحفر في الشطئانِ وأتصعلك في الليالي وأتذكرك، أتذكر عطرك "الدنهل" ومزيل عرقك الـ "أديداس" وحرارة يدك والخشونة في باطن قدمك عندما تفركها بساقي قبل أن تنام، أتذكر رائحة سجائرك وزرار قميصك نصف المخلوع نصف المرتبط مثل زواجنا بالضبط، وأحس لأول مرة منذ عشرة أيام بأنني أحبك.

- إذن؟ هل ستعودين؟

- لا. إنني أحبك على نحوٍ أفضل في غيابك، وقد قررتُ بالأمس أن أحتفظ بهذا الحب، إنه يعجبني. وأنا لا أقول ذلك لكي أقنعك بجدوى زواجنا، بل بصوابِ طلاقنا. وحده التفكير بالطلاق أتاح لي فرصة أن أراك هكذا، متخففة من علاقتي بك، وأن أحنو عليك بأفكاري.

- عدتِ تتكلمين كالمجانين!

- ليس من حقك أن تطلق عليّ النعوت. إن ما أقوله منطقي ولكنه لا يشبه كثيراً ما يقوله الآباء والأجداد الذين يحكمون قبضتهم على حياتك حتى آخر سنتمتر منها. إذا كان الطلاق سوف يجعلني قادرة على الحب والابتسام والمشي لست ساعاتٍ.. فهو أفضل شيء يمكن أن يحدث لي.

- وماذا عني أنا؟ هل تعتقدين بأنني سأتصلُ بك يوماً لكي أعدّد لكِ محاسن الطلاق وأتغزّل بخصاله وأخبرك بأنه أفضل حدثٍ في حياتي؟

- ولكنني لا أستطيع الاستمرار في زواجٍ لا أريده بدافع الشفقة.

- وأنا أعتقد بأن من واجبك تجاهي أن تعودي لكي نحل خلافاتنا الزوجية كما يفعل الأشخاص الناضجون.

- إنك تضيع وقتك معي. بوسعك أن تكون أكثر سعادة مع امرأة أخرى. أما بالنسبة لي أنا، فأنا سعيدة جداً بقدرتي على أن أتذكر زرار قميصك وأبتسم وهذا أقصى ما يمكن أن تحصل عليه من امرأة مثلي.

- أنا لا أريد امرأة أخرى. ليس الأمر بهذه السهولة أبداً. تتصرّفين وكأن الأمر يشبه استبدال قميص. لقد اعتدتكِ وأحببت وجودك في حياتي ولكن شاعرة مثلكِ على ما يبدو لا تستطيع تقدير هذه المشاعر.

- أنا أحاول إنصافك، وإنصاف نفسي قبل أي شيء، فأنا لا أستطيع منحك أي شيء، وأنت

..في المقابل تستطيع أن تسلبني كل شيء. أنا لا أريدك. لا أستطيع أن أكون امرأتك

.إنني أحاول الإتيان بحلول فيم تمعنين أنت في تدمير كل إمكانيات الإصلاح -

وماذا عن رغبتي بالطلاق؟ رغبتي بأي شيء؟ لماذا تجعلها خارج المعادلة وكأنها لا تعني لك - شيئاً؟ هل كانت رغباتي يوما تعني لك شيئاً؟ ماذا عن رغبتي باتخاذ القرارات التي تخصني بنفسي؟

.هذا الأمر "تقنياً" غير ممكن لأنني ولي أمرك الشرعي -

.إذا كان هذا هو الزواج فأنا لا أريده -

.ولكن هذا هو الزواج يا فاطمة ونحن لا نستطيع تغيير قوانين العالم -

أنا لا أريد تغيير قوانين العالم. أريد أن لا تسلب قوانين العالم ما تبقى مني. أما فيما يخصك - .أنت، فأنا متأكدة من أنك ستعثر على ألف امرأة ملائمة، أتمنى لك التوفيق

..لحظة -

.مع السلامة -

.صقر مريض يا فاطمة -

ماذا قلت؟ -

.لقد فقد بصره. إنه يريد أن تزوريه -

صقر فقد بصره؟ -

..إنه السكّري -

مقرر دنيا 101

هل أنتِ متأكدة؟ -

.نعم -

.يمكننا العودة الآن إن لم تكوني راغبة بالأمر -

.لا بأس. أريد أن أفعل ذلك -

ابتسم وجهها وانفرطت التجاعيد اللطيفة في زوايا فمها، وابتسمتُ أيضاً ابتسامتي المنقسمة على نفسها. فلننزل إذن. قال أحمد. سوف آتي معكما، تحسباً لحدوث شيء. وما الذي يمكن أن يحدث؟ أي شيءٍ يمكن أن يحدث لأي شخص. مقرر "دنيا 101". نزلنا من السيارة وعبرنا الممر الرخامي الطويل الممتد في أعماق المستشفى الأميري، ورائحة السجائر تنتشرُ في أعطافِ المكان. صعدنا إلى جناح الباطنية - رجال. التقيتُ بوضحة في الزقاق. هرعت للقائي. كيف أبوكِ؟ لقد فقد عينه اليمنى. متى حدث ذلك؟ منذ ثلاثة أيام، إنه يصرخ من آلام بطنِه. ثم أردفت وهي تغرس !نظراتها عميقاً في عيني: سأل عنك مرّتين

.تسأل عنه العافية -

لماذا يهتمّ صقر بالسؤال عني الآن؟ ألقت نظرة فاحصة على ثوبي الأزرق الصيفي، ولم تستطع ألا تعلق: زوجك يسمح لك بالخروج دون عباءة؟

.هذا ليس من شأنه -

وكيف يمكن ألا يكون هذا من شأنه؟ -

- هذا ليس من شأنك.

- لقد تزوجتِ ليبرالياً! كنت واثقة منذ رأيته للمرة الأولى.

- هل ستثرثرين كثيراً؟

- ومن هما؟ أين زوجك؟

قالتها وهي تشير بهزة من رأسها إلى حياة وأحمد الواقفين على مبعدة ثلاثة أمتار منا.

- صديقتي حياة وزوجها أحمد..

زمّت شفتيها بتحفظ: تشرّفنا. كانت تعني العكس. خرجت بدرية من الحجرة، احتضنتني وهي تزفر "الله جابك!"..

- شلونك بدرية؟

- أنا بخير. شهالزين؟ ولهنا عليك! شلونك؟

- بخير..

- صقر سأل عنك مرتين..

- سمعت..

- وده يشوفك، من راحت عينه وهو يسأل عنك..

هذا هو الأمر إذن. يريد أن يراني لمرة أخيرة قبل أن يفقد اليسرى أيضاً. يريد أن يرى أين انتهت بي حياتي. بصفتي صنيعته، مشروعه المسخ. يريد أن يرى ماذا حققت جهوده.

- ادخلي يا فاطمة..

نعم سأدخل، إلى وكر التنين للمرة الأخيرة.

"ما رأيتُ إلا جميلًا"

.خطوةٌ واحدة داخل المغارة

من؟ من هنا؟ -

.أنا -

رأيته. كتلة عظام اسمها الأخ الكبير. شاشٌ أبيض يغطي عينه اليمنى. أنابيبُ بيضاء في الأوردة، جفافُ أبيضُ في فمه، لحية بيضاء، فروة رأس بيضاء، غطاء سرير أبيض. بالكاد يتنفس. هل هذا هو التنين الذي كان يحرس سردابي؟

فاطمة؟ -

.نعم -

أتيتِ إذن؟ -

.نعم -

قررتِ أن تتذكري أخاك الكبير الذي رباك وتعب عليك؟

..وابتسمتُ

وكيف لي أن أنسى؟ -

لم تزورينا منذ زواجكِ! لم نركِ منذ عيد الأضحى الماضي.. متى - أصبحتِ قاطعة للرّحم هكذا؟ ألم تسمعي قول الحقّ: فهل عسيتم إن ..توليتم أن تفسدوا في الأرضِ وتقطّعوا أرحامكم

فابتسمتُ وأنا أكمل..

- أولئك الذين لعنهم الله فأصمّهم وأعمى أبصارهم.(22)

واكتسى صوتي بكثافة مفاجئة، وبدأ وجهه يختلج..

- هل جئتِ لتشمُتي بعماي؟

- لا.

- لطالما كنتِ فاسدة الفطرة وسيئة السريرة.

- إنك ترى انعكاس جوهرك فيّ.

- وما الذي ترينه أنتِ فيّ؟

- رجلٌ تكفيه عيُن واحدة.(23)

- تشمتين بأخيكِ الذي ربّاكِ..

- أبداً.

- لماذا أتيتِ؟

- لماذا طلبتني؟

- لماذا قبلتِ؟

- لكي أخبرك بعض الأمور.

- أي أمور؟

التقطتُ أنفاسي..

- أتيتُ لأخبرك بأنني أسامحك.

وارتجفَ خدّه..

- تسامحينني على ماذا؟

ازدردتُ ريقي.. هذه المرة خرج صوتي مرتعشاً، مرقعاً بنشيجٍ مكتوم. بعد كل هذه السنوات سوف ينكرُ ما فعله فيّ؟

- لقد آذيتني كثيراً وأنتَ تعرف ذلك.

- لقد قمتُ بدوري.

- دور الجلاد.

- دور ولي الأمر.

- ولي الأمر الذي يضربني بعقاله ويصفعني بنعاله.

- أنتِ أخطأتِ والمخطئ يعاقب.

- بالحبس لثلاث سنوات؟

- كان ذلك لحمايتك. كنتِ تنزلقين في طرقٍ غير مأمونة. أمسيات شعرية وزملاء رجال والله وحده يعلم ماذا أيضاً..

- وكنتُ أحب.

- وتجرئين على قولها في وجهي!

- لقد أحببتُ عصام!

- اللعنة عليكِ وعلى قلة أدبك!

وأشاح بوجهه عني. رأيتُ ضعفه.

- كان يمكن أن أتزوج رجلًا يحبني، ولكنك ما كنت لتسمح بذلك، ما كنت لتسمح بأي أمرٍ يسعدني، لا الحب ولا الشعر، وعندما كرهت وجودي في بيتك رميت بي إلى فارس..

- لقد تزوجتِ من فارس بكامل رغبتك.

اقتربتُ خطوة. جلستُ على الكرسي على يمينه وأنا أنظر في عينِهِ الواحدة.

- أخبرني.. ماذا ستفعل بعد أن تموت، إذا قابلت الله ووجدت نفسك متهماً بالإساءة إليه؟

- لستُ العاصي هنا.

- وكيف تعرف؟

- أقرأ الكتاب والسنة ولا آخذ عقيدتي من الشعراء!

- لقد وضعتَ آلاف الحواجز بين الله وبيني، احتكرت الله لنفسك ورددت عليّ طوال تلك السنوات بأنني آثمة وناقصة وفاسدة..

- كنتُ أحاول إيقاظك من غفلتك. فلا تلوميني على ضعف إيمانك..

- إنني في النهاية صنيعتك. ثمرة سبع سنوات من حياة السجون، ثلاثة منها في الانفرادي. جرائمك في حقي ارتكبتها باسم الله وحده. لا يمكنك أن تتنصل من مسؤوليتك إزائي بهذه السهولة، ولهذا السبب طلبتَ رؤيتي..

زفرتُ:

.لا تقلق، أنا أسامحك -

.أنا لم أخطئ حتى أستحق السماح -

أنت لا تستحق السماح ولكنني أمنحه لك لأنني أستحقه، أريد أن -
أعيش الباقي من حياتي دون أن أتساءل طوال الوقت: لماذا حدث ذلك
لي؟ لماذا آذيتني إلى هذا الحد؟ لماذا تكرهني؟

..أنا لم -

.(إنني أسامحك.. أسامحك يا صقر، صدّقني، ما رأيتُ إلا جميلًا(24 -

.لم أعد أريد الكلام. دعيني أرتاح -

لست مضطرا لقول شيء. يمكنك أن ترتاح الآن وأن تكفّ عن السؤال -
عني واستدعائي، يمكنك أيضاً أن تكفّ عن ترديدِ ذلك الهُراء عن قطع
الرحم. أنا لم أقطع الرحم، أنت دست الرحم بحذائك، لا داعي لأن تختبئ
..خلف لحيتك لأنني أراك جيداً من هنا

!اخرجي من غرفتي -

سوف أخرج. سوف أخرج بأذرع مفتوحة لأن حياتي سوف تبدأ بمجرد -
مغادرتي لك. سوف أتطلق من فارس، سوف أعمل صحفية، سوف أكتب
.الكثير من القصائد. لقد استعدتُ حياتي وأنتَ لم تنتصر

22

23

24

..شاعركِ هذا

لماذا تهربين؟ -

كنتُ في المطبخ، مع حياة، أصنع سلطة فاكهة. حياة تخفق البيض - لأن أحمد يشتهي "البلاليط" على العشاء. مساعد يلعب بسلاحف النينجا على السيراميك الأبيض - حياة طبيعية، حياة حلوة. أعيش في بيت حياة وكأنني في قلبِ العالم، مساعد يناديني "خالتي فاطمة".. أنا الخالة، .شقيقة حقيقية، جزء عضوي في هذا المكان، لقد صار عندي عائلة

كنتُ منهمكة في نتف حباتِ العنب من العنقود وقذفها في الوعاء، باغتتني :سؤالها

لماذا تهربين يا فاطمة؟ -

ماذا تقصدين؟ -

.أنتِ تعرفين تماماً عم أتكلم -

ونفذت نظراتها إلى أعماقي وقرأت دخيلتي إلى درجة أربكتني. أشحتُ :بعيني وأنا أبرطم

.لا أريد الخوض في الأمر -

.جبانة -

قالتها بتلك النبرة المتهكمة. لا زالت، بعد كل هذه السنوات، تمارس دورها في استفزازي. قذفتها بحبة عنب: اسكتي! التقطتها بيدها وألقتها في فمها وهي تضحك. أنا لم أضحك. أمسكت بالسكّين وغرستها في

التفاحة.. عملية قلب مفتوح. جسدي يلتهبُ بحرارة تحت القميص القطني.

- اسأليني عنه. أعرف بأنك تريدين معرفة أخباره.

زفرتُ..

- ما الجدوى؟

- ماذا تعنين؟

الهاجسُ إيّاه..

- لقد مرّت أربع سنوات. لم يعد أينا كما كان عليه.

- لا ضير أن تسألي.

- طيب!

أخرجتُ السكين من قلب التفاحة، ثم أعدتُ غرسها بعصبية، وأنا أسأل:

- هل تزوّج؟

- لا.

تزحزح الجبل عن صدري. تبدد الثقل، ابتسمتُ:

- لا؟

- لا.

ضحكت حياة.. ضحكت من التبدل السريع في ملامحي. وضعتُ السكين والتفاحة من يدي، رقّ صوتي:

- وماذا يعمل؟

- معلم لغة عربية.

- صحيح؟

- لا زال في الملتقى الأدبي.

- هل يكتب؟

- لم يكفّ.

- هل نشر شيئاً؟

- بعض القصائد. في القبس، في الراي، في الشرق الأوسط. لقد جمعتها كلها.

- ديوان؟

- ليس بعد.

- وماذا أيضاً؟

- يريد أن يراكِ.

ريقي يجفّ. جسدي يرتجف. أتجاسر وأسأل، سؤالي الرعب:

- هل يعرف بأنني تزوّجت؟

- لقد توقع حدوث الأمر.

- هل أخبرته؟

- الحكاية كلها.

- متى؟

- بعد لقائنا الأول. أنا وأنتِ. التقيتُ به وحدثته عنكِ.

- وماذا قال؟

- لم يقل شيئاً. نظر إلي فقط بتلك الطريقة.. وكأنه يريد انتزا ع كل كلمة من فمي.

- هذا كل شيء؟ لم يقل شيئاً أبداً؟

- قال متى أراها؟

وابتسمتُ، مرة أخرى، ولم تكن ابتسامة مبتورة من المنتصف. حياة ابتسمت. الوجود يتسع في ابتسامة. يتسع مثل ابتسامة. العالم فسيح ومقوّس..

- ما الذي تريدين قوله؟

- لقد اتصل 12 مرة منذ انتقالكِ إلى هنا، وهو يبعث 40 رسالة في الدقيقة الواحدة. إنه إزعاجٌ حقيقي، شاعركِ هذا..

دعوى طاعة

صدح جرسُ الباب. لقد وصلوا أخيراً. خرجنا لاستقبالِه. يبدو متوتراً، قبضته مشدودة، معه رجلٌ غريب. أهلًا أستاذ فارس، تفضل. عبس وجهه: ومن أنت؟ تدخلتُ: هذا أحمد زوج صديقتي حياة. تشرّفنا. لفظها عابساً. عبر العتبة بخطواتٍ مستعجلة. ابتسمتُ له، لم أسألهُ كيف حالك. بدا على وشك أن ينفجر في وجهي.

- تبتسمين بعد؟

- أنت بخير؟

- مثل الزفت. انتِ؟

وخجلتُ أن أقول: أنا بخير، فسكتُّ. قبض على بلوزتي بأصابعه وهمس بما يشبه الفحيح:

- وين عباتك؟

ضحكتُ.. حتى آخر لحظة يتمسك هذا الرجل بأوهامه في السيطرة. سألتُه:

- من الأخ؟

- الأستاذ أبو رياض. محامي.

- أحضرت محامياً؟

- وأنتِ أحضرتِ هؤلاء..

.إنهم أصدقاء -

.أصدقاء السوء -

تفضلوا يا جماعة الخير. قال أحمد وهو يفتحُ بوابة المنزل، ويسبق الرجلين إلى غرفةِ الجلوس. كانت حياة قد أعدّت بعض الشاي، وجلست ملاصقةً .لي، منحتني كل قوّتها

جلس فارس إلى جوار محاميه، نظر إليّ بعينيه العميقتين: ألن تقدمي لي الشاي؟ ابتسمتُ بطيبِ نفس. كل شيءٍ يفعله هذا الزوج - لكي يقنع نفسه بأنه صاحب السلطة المطلقة - يشعرني بقوّتي. نهضتُ من مكاني وقدّمت له الشاي، ولأبي رياض أيضاً.. ساد صمتٌ لدقيقتين. استأنف أحمد الحوار: شكراً لك على تلبية الدعوة أستاذ فارس. أتمنى أن نصل ..إلى حل الإشكال بشكلٍ نهائي، فاطمة هنا

لا تتكلم على لسان زوجتي، أنتَ لا صفة لك، وكان يفترض أن نلتقي في - ..بيتي أو بيت أهلها، ولكن عنادها هو الذي

ألتقي بك في بيتك حتى تقفل عليّ الباب وتنتهي المشكلة؟ -

اندلق سؤالي من فمي، مستفزاً وساخناً: أنت لا تستطيع إيذائي في بيت .أحمد

لعلمك، أنا لستُ صقر، يبدو أنك ما زلت مرتبكة بهذا الشأن، وربما - .تفوّتين مواعيد الدواء

:تدخلت حياة

فاطمة تعاطت ألبرازولام دون وصفة وأنت تشجعها على الاستمرار؟ -

.أولًا: فاطمة مريضة. ثانياً: هذا ليس من شأنك -

..تدخلتُ

.أنت تهين الجماعة في بيتهم -

!أنتِ التي بدأتِ في توجيه الإهانات، لولاكِ لما كنا هنا. في بيت الجماعة -

يا جماعة! قاطعنا أبو رياض: أقترح أن نترك المهاترات الجانبية وأن نناقش صلب المشكلة. أحمد يهز رأسه. أبو رياض يواصل:

ما عرفته من موكلي أن السيدة فاطمة زوجته متغيبة عن بيت الزوجية - منذ أسبوعين وترفض العودة.

..هذا صحيح. وافقتُ

ما أتينا لقولهِ للسيدة فاطمة اليوم هو أن موكلي سوف يرفع ضدها - دعوى طاعة، إذا لم ترجع معه إلى بيت الزوجية اليوم..

دعوى طاعة. لطيفة جداً هذه العبارة. هكذا فكرتُ.. أردف أحمد:

بحسب معرفتي القانونية القاصرة طبعاً يا أستاذ، يستطيع الأخ فارس - أن يرفع دعوى الطاعة وأن يثبت نشوز زوجته، ولكنه لا يستطيع تنفيذ الحكم. بالمختصر ليس من حق أحد أن يعيد فاطمة إلى بيت الزوجية كرهاً.

.هذا صحيح، ولكن هذا يعني أيضاً سقوط حقوقها الزوجية كلها -

فليحتفظ بأمواله. علقتُ وأنا أضع ساقاً فوق الأخرى. ثم وجهت أنظاري إلى فارس وأردفتُ:

كان بوسعي أن أرفع ضدك دعوى طلاق للضرر منذ البداية. أنا لم -

.أفعل. كنتُ آمل أن نصل إلى الطلاق برضا الطرفين

:أنا غير راضٍ! صاح فارس

..إنني لم أطالبك إلا بحقوقي عليكِ بصفتي زوجكِ. وأقل من ذلك بكثير -

ولكنني لا أريد أن أكون امرأتك، فلا تحدثني عن الحقوق المترتبة على - ذلك.

.لقد صرتِ امرأتي وانتهى الأمر -

.ببطاقة امسح واربح -

:وجّه سبابته إلى وجهي وصاح

بمكيدة! مكيدة دبرتها زوجة أخيك، قالت لأهلي بأنك الفتاة المثالية لي. - لا تدرس ولا تعمل ولا تريد إلا الستر. بعد أن نتزوج أفاجأ بأنها تريد أن !تدرس وأن تعمل، لا وطلعت شاعرة بعد! هذا اللي ناقص والله

.لقد كانت غلطة منذ البداية إذن. صحّحها وطلقني -

:وانفجر كالبارود

إنك تجلبين لي الفضائح. الكل يسألني عنكِ ولا أعرف بماذا أجيب. - مشغولة، سافرت، تسيح في مجمعات دبي، تزور أهلها في البحرين.. كل يوم أكذب حتى أتستر على استهتارك آملًا أن تعودي إلى رشدك، إلى بيتك! الجارات يسألن عن اختفاء سيارتك، أمي تعتب علي لأنني أزورها وحيداً! أخواتي أغرقنني بالأسئلة.. كل يوم يمر تكبر الفضيحة. أنا لا أستحق منكِ كل هذا، أنا رجلٌ طيب وزوجٌ صالح، صبرتُ عليك وعلى أمراضك وأقراص أدويتك وعقمك وجفاف عاطفتك. صبرتُ على كل شيء

..وأخلصتُ لكِ، فتخرجين من البيت هكذا، تهربين مثل الجبناء

- معك حق. أنا عاقر ومريضة ومجنونة وجافة وناشز. إن عندك كل الأسباب اللازمة لكي تطلقني دون أن تُلام على ذلك.

- ولا أفهم لماذا تتحدثين عن الطلاق كما تتحدثين عن الخبز؟

- أريده.

- وأنا لا أريده.

- تريد امرأة لا تريدك؟

- امرأتي لا تعرف ماذا تريد. إنها مضروبة في رأسها.

"ما فيها إلا العافية".. تدخلت حياة، بأمومتها المفرطة. لم تستطع كبح التعليق. أردفتُ..

- طلقني يا فارس. أنا طلقتك منذ 14 يوماً.

- المرأة لا تطلق، المرأة تخلع.

علّق أبو رياض. لمعت العبارة في مخيّلتي: خلع! كمن عثر على مخرج طوارئ.

- كم تريد؟

- لأي شيء؟

- لكي أخلع نفسي. كم تريد؟

- هل تمزحين؟

- لا.

- ومن أين لكِ النقود أصلًا؟

- سوف أقترض. عندي راتب وأستطيع أن أقترض. سوف أرد لك دنانيرك كلها. كل دينار دفعته إلى صقر لكي تؤول إليك ملكيتي، معتقداً أن من حقك أن تملي ما ينبغي أن تكون عليه حياتي. إذا لم تطلقني سوف أخلعك.

اختلجت ملامحه وتهدج وجهه:

- هل أنتِ جادة يا فاطمة؟

ولوهلةٍ أشفقتُ. شعرتُ برغبة في أن أربّت على كتفهِ وأن أهدهد خوفه. تنهدتُ بعمق..

- هل يمكن أن نحظى ببعض الوقت لوحدنا؟

بالتأكيد. قال أحمد. سأكون قريبة. همست حياة. تفضل أستاذ، لنأخذ جولة في الحديقة..

تلك الذكرى

..الاحمرار في عينيهِ يوجع قلبي. زفرتُ

- ..اسمعني يا فارس

..ولكنه لم يسمع. ذهب في الذهول

- تخلعينني؟

- .اسمعني أرجوك

- أنا سروال؟

- .محشوم يا فارس

- تخلعينني هكذا؟

تجرأتُ. نهضتُ من كرسيي وجلستُ على يمينه. احتضنتُ كفه وضغطتها بيديّ.

- الطلاق أفضل لك. إذا اعتزمت الزواج مرة أخرى لن تزعجك قضية الخلع. سيكون الأمر أسهل لك. لن يبدو الأمر كما لو أنك المعيب، أنت تعرف كلام الناس، وكيف يقيمون هذه الأمور..

- تفكرين بمصلحتي الآن؟

- .أنا لا أكرهك

- وهل تحبينني؟

:ابتسمتُ. ضغطتُ على كفهِ المرتاحة بين يدي

.ليس بدرجة كافية لكي أصير زوجتك -

وماذا تريدين أن نكون؟ -

أصدقاء؟ -

.هذا غير منطقي، عوضاً عن كونه خطأ -

:ابن المجتمع البار، إنه يجعلني أبتسم. أردفُ

..إذن لا شيء. نكون تلك الذكرى -

أية ذكرى؟ -

.التي تسترجعها وتبتسم دونما ندم. أريد أن أكون تلك الذكرى -

صمت وأطرق برأسه. لأوّل مرة أشعر بأن فكرة الطلاق قد نفذت إلى عقله. منذ أسبوعين وهي تحوم حوله مثل عثة. إنها الآن في أعماقه، تملؤه .بالذبذبات

.إذا وقع الطلاق بناء على رغبة الزوجة يسقط حقها في نفقة المتعة -

.نفقة المتعة. يا له من تعبير حقير -

.وابتسمتُ. فابتسم

.أتدرين؟ لقد أحببتكِ حقاً -

..ربتّ على كتفهِ

هل أحببتني حقاً؟ -

- عارٌ عليكِ أن تشكّي في الأمر.

- فكّر قليلًا. أنت أحببتَ ما ظننت أنني عليه. أحببتَ فاطمة التي صوّرتها لك بدرية. فتاة لا تريد إلا الستر. ربة بيت تعيش من أجل أن تحول حبة الطماطم إلى وردة. هذه ليست أنا، إنها ما تريد أن أكون عليه ولكنها ليست أنا..

- لقد أحببت أفكارك الغريبة أحياناً.

- حقاً؟

- أحياناً..

- ابتسمنا. كنا طافيين في تيارٍ جارفٍ يأخذنا صوب النهاية، باستثناء أنه لأول مرة - يسمح للأشياء بالحدوث، ولا يجدف ضد التيار. سحب نفساً عميقاً:

- أنتِ متأكدة من أن هذا ما تريدينه؟

- نعم.

سحب يده من قبضتي، انتصب واقفاً. نظرتُ إليه وأنا على الكرسيّ المقابل، بدا شاهقاً وأطول من المعتاد. نظر إليّ نظرة مودّع، وداعاً يا عزيزي. وداعاً. قلبي يخفق بجنون. أنتِ طالق.

وهنٌ يجتاح جسدي. الطلاق، مهما رغبنا به، يؤلم جداً. اشتهيتُ أن أبكي ولكنني لم..

- غداً أذهب إلى المحكمة وأثبّت الطلاق.

- شكراً لك.

..لقد انتهى الأمر. أدار لي ظهره، فتح الباب وهمّ بالخروج

- مع السلامة يا فاطمة.

- مع السلامة يا فارس.

الضيف

خلعتُ قميصي وتمدّدتُ على بطني، فوق الغطاءِ القطنيّ لسريرِ غُرفتي. هذه واحدة من العاداتِ التي استحدثتُها مذ بدأتُ العمل في الجريدة. كلّ يوم، في الثالثة مساءً، أحتضنُ سريري بجِلدي، وأقولُ له لقد عدتُ يا حبيبي، كم أنت باردٌ وجميل! أريحُ خدّي على صَدرهِ وأغمض.

خالتي فاطمة؟ -

..مساعد يطرقُ البابَ. أرتدي قميصي وأناديه

.ادخل يا مساعد -

.ماما تقول متى ستأتين؟ تقول ليسَ من صالِح الكون أن يجوع بابا أكثر -

:أضحك

.سأنزلُ من فوري وأنقذ الكون -

.ماما تقول بأن بابا يتحوّل إلى "الرجل الأخضر" عِندما يجوع -

.ماما خيالها واسع -

يمسكُ بيدي بيمناه، وبأسده المحشو بيسراه، معاً ننزلُ الدرج. معاً نفتحُ الباب، معاً ندخلُ غرفة الجلوس. وحدي أتعثّر وأخرج.

شهقة تريدُ ابتلاعي. أسندُ ظهري إلى المَمرّ وأمضي في الذهول. هل هو..؟

هذا الوجه، هذا النصف وجه، قطاع طولي لحكايةٍ طويلة، الأنفُ،

الحاجبُ، الجبين، اليدُ المرتاحة على الفم والسّاق الملتفّة على السّاق، لماذا لم يتغير طوال أربع سنوات؟

..حياة تقفز من كرسيّها، تهرعُ إليّ

ما بكِ؟ -

تسألين ما بي؟ -

.هذا هو سؤالي نعم -

هل هو..؟ -

.نعم هو -

ماذا يفعل هنا؟ -

.إنه مدعوّ -

هل تضعين لي المقالب الآن؟ -

.لا تضخّمي الأمر -

تشنّجت يدي، ارتجفتُ، جِذعي يهتزُّ مثل قصبة، اغرورقتْ عينايَ وأنا أسأل:

هل رآني؟ -

..أظن -

ماذا لو لم أحبّه بعد كل هذا الوقت؟ -

.لستِ مضطرة إلى ذلك -

- وماذا لو لم يحبني؟

- لا يهم.

خارت ركبتاي وغطّيت وجهي بكفي. خرجَ صوتي أشبه بالحشرجة:

- كيف تفعلين هذا بي؟

- أنتِ تريدين رؤيته ولكنك أجبن من أن تفعلي.

- صرتِ تقرّرين بالنيابة عني؟

أنظر إليها، تقفُ مقابلة لي. تبدو قوية ومنيعة. إنها لا تطاق، أصيحُ:

- أخبرتكِ بأنني لا أريد أن أراه!

- أنا لا أصدّق هذا الهراء.

- لا يحقّ لكِ..

- إنه مجرد لقاء يا فاطمة، مجرد لقاء مع صديق قديم. هذا كلّ شيء.

جلستْ على الأرضِ تقابلني وهي تقبضُ على ساعديّ المتصالبيْن على وجهي، نظرتْ عميقاً في عينيّ وقالت بنبرةٍ قاطعة: أعذارك منتهية الصلاحية كلها، لا صقر ولا فارس ولا سرداب. لم يعد عندكِ ما تختبئين وراءه..

- كيف تفعلين هذا بي!

- ستشكرينني لاحقاً.

- سنتشاجرُ لاحقاً.

صحتُ فيها ومضيتُ، تبعني صوتها: لا يمكنكِ أن تهربي من الحياةِ يا فاطمة!

بلى. أستطيع أن أهربَ الحياة، أستطيع أن أهربَ من كلّ شيء. أنا ضليعةٌ في الهربِ. حياة سوف ترى. سوف تندم!

خرجتُ إلى الشارع باتجاه سيارتي، ثم تذكّرتُ بأن مفتاحَ السيارة موجودٌ في غرفتي. شتمتُ ولعنتُ. يجبُ أن أهربَ من هنا. يجبُ أن..

استدرتُ عائدة.

كان ورائي.

منتصباً مثل علامة تعجب. مشدوداً مثل سؤال.

إنه هو، الشاعر.

..

- هل يجب أن يكون كل شيء صعبًا معكِ؟

يجيئني صوته القديم، ينتشرُ تحت جلدي، كان وَسيماً بقميصه الأبيض. ضرباتُ قلبي تتلاحقُ وفمي يجفّ. أشيحُ بوجهي.

يقتربُ خطوة أخرى، يرقّ صوته ويقسو سُؤاله:

- ألن تقولي شيئاً لطيفاً؟

اغرورقتْ عيناي.

استطرد:

- مساءُ الخير. كيفَ حالكِ. سعيدةٌ برؤيتك. أشياء من هذا النوع، هل

تستطيعين منحي كلاماً كهذا؟

.اللغة في داخلي مربوطة في قدميها

.فمي عُقدة مستعصية

.أنا دمعة

يمكنكِ أن تقولي أشياء لطيفة أخرى. قيامة العالم، قوة العدم القاهرة، - ..أشياء من هذا النوع

- ..أنا

- !اجعلي الأمر أسهل عليّ

كيف؟ كيف أجعله أسهل عليه؟ كيف أجعله أسهل عليّ؟ كيف يمكنُ تجاوز كلّ ذلك التاريخ؟ الأصبوحة. الصفعة. القصيدة المدفونة في حلقي، خيط ..الدّم، العار، الكرسي الذي طار

- هل تأذيت؟

- عفواً؟

- ..في ذلك اليوم. الكرسيّ الذي قذفه عليك

- أنتِ قلقة بشأن ذلك الكرسي؟

- .أريدُ أن أعرفَ وحسب

- .كدمة سخيفة في الذراع

- .جت سليمة

وللحظةٍ بدا وكأنّ ليس ثمة ما يقال. وفكرتُ بأنها اللحظة المثالية لهروبٍ ..جديد، ولكنني لم أفعل. لم أهرب

ألن تقولي شيئاً آخر؟

.لم أكن أريد رُؤيتك -

أنتِ غاضبة منّي؟ -

.لا -

.أنا غاضبٌ منّي. لم أسامح نفسي للحظة -

.لم تكن غلطتك -

.بلى، لقد تأذيتِ كثيراً بسببي -

لقد رغبتُ بالأمر. بالحبّ والشعرِ والتجربة، بالصّفعات أيضاً. أردتُ أن - .يصْفعَني حتى أكرهه

..كان يمكن أن تُقتلي -

.أعتقدُ بأن جُزءاً منّي كان راغباً بالموتِ أيضاً -

.أنا آسف يا فاطمة -

هل أتيتَ لهذا السّبب؟ لطلب السّماح؟ -

.جزءٌ مني أرادَ آخر -

والجزءُ الآخر؟ -

.أن أراكِ وحسب -

- لم أكن أريد رؤيتك.

- قلتِ لي ذلك مرّتين.

وشعرتُ بقلبهِ يغوصُ في الأسى. تصعيرةُ ألمٍ علتْ وجهَه، أدارَ ظهرَهُ وهمّ بالمضيّ.

فتحتُ فَمي، التقطتُ أطرافَ خيوطِ الكلامِ من مكانٍ قصيّ. سأقولُ له شيئاً لطيفاً. سوف أتفوّقُ على جُرحي وأقول لهذا الشاعرِ شيئاً لطيفاً:

- إنك تبدو بخيرِ حال.

استدارَ عائداً، بدا سعيداً بالخيطِ الرّفيع الذي أمدّه لكي يمتدّ الكلام. مَسَحَ على رأسهِ بيمينهِ وقال متلعثماً:

- لقد ازدادَ وزني واكتملت صَلعتي.

- صَحيح.

- وأنتِ جميلةٌ جداً.

انكمشَ جلدي..

- وتنطوين على نفسكِ..

- مثل خارطة؟

- أنا ملاح.

ابتسمنا.

لا زالت الذاكرة قادرة على المنحِ، إنها تجعلني أبتسم.

- يا جماعة!

حياة تنادي من نافذة غرفة الجلوس:

- أن ليس من صالح الكون ذبحنا الجوع!..

تبادلنا النظرَ وابتسمنا، أصبحَ الأمرُ أسهل. الكلامُ أسهل، الابتسامُ أسهل، النظرُ أيضاً.

أطعمي زوجكِ يا حياة، نحن سنبقى هنا. عندنا أشياء نقولها لبعضنا.

تحت السدرة العجوز. أجلس ويجلسُ، رجل وامرأة وثالثهما الشعر، الذاكرة تجيء والنسيانُ يبتعد. أبتسمُ له ويبتسمُ لي، كالأصدقاءِ ابتسمنا.

- أخبريني رجاءً..

قال وهو يعدلُ جلسته:

- هل ما زلتِ تكتبين؟

- أكتبُ كالمجنونة.

- هل هذا يعني أنك ستصدرين ديوانكِ الأول قريباً؟

- روايتي الأولى.

- رواية؟ هل صرتِ كاتبة روايات؟

- كاتبة رواية. رواية واحدة تكفي.

- وعن أي شيءٍ تدور؟

- الحكاية المعتادة.

الحكاية المعتادة: رجل وامرأة. كثيرٌ من الذاكرة وقليلٌ من النسيان. باستثناءِ أنّ البطل في الحكاية ليس الرجل ولا المرأة، ولا الذاكرة ولا النسيان.

إنّه الشعر.

تمت

الكويت،
يوليو 2012 - مايو 2013

هوامش الرواية

.(بدر شاكر السياب (بتصرّف (1)

.بعيداً إلى هنا» – رواية لإسماعيل فهد إسماعيل» (2)

.تميم بن مقبل (3)

.جورج أورويل، 1984 (4)

.الباخرزي (5)

إذا ما أدهشتنا عذوبتك كثيراً (6)

أيتها الوردة السعيدة

فلأنك تستريحين تويجاً فوق تويج

– في داخل ذاتك

..رايتر- ماريا ريلكه، ترجمة شاكر لعيبي، من كتاب: ريكله - الأعمال الشعرية الكاملة

.قيس بن الملوح (7)

.طرفة بن العبد (8)

.أبو العلاء المعرّي (9)

.المرقش الأصغر (10)

.امرؤ القيس (11)

.أبو خراش الهذلي (12)

.الأخطل (13)

.الفرزدق (14)

.تعبير كويتي عن الشخص الذي يفضح الأسرار ويفشي الأخبار (15)

.الأصمعي (16)

هذي بلادٌ تختن القصيدة الأنثى ((17

وتشنق الشمس لدى طلوعها

حفظاً لأمن العائلة

وتذبح المرأة إن تكلمت، أو فكرت، أو كتبت، أو عشقت

.غسلًا لعار العائلة

هذي بلادٌ لا تريد امرأة

..تمشي أمام القافلة

هذي بلادٌ أكلت نساءها واضطجعت سعيدةً

تحت سياط الشمس والهجير

هذي بلاد الواق واق

التي تصادر التفكير

وتذبح المرأة في فراش العرس كالبعير

وتمنع الأسماك أن تسبح

..والطيور أن تطير

،هذي بلادٌ تكره الوردة إن تفتحت

،وتكره العبير

ولا ترى في الحلم إلا الجنس، والسرير

.جورج أورويل 1984 (18)

.مظفر النواب (19)

.قاسم حداد – طرفة بن الوردة، بتصرّف (20)

.الكمأ (21)

.سورة محمد، الآية 22 و23 (22)

.غسان كنفاني – نصف العالم (23)

.زينب بنت علي بن أبي طالب (24)

بثينة وائل العيسى

مواليد 3 سبتمبر 1982

.حاصلة على شهادة الماجستير في إدارة الأعمال - تخصص تمويل

كلية العلوم الإدارية - جامعة الكويت 2010

: صدر لها

.ارتطامٌ .. لم يسمع له دوي (رواية) عن دار المدى - سوريا 2004، وعن دار آفاق للنشر – الكويت 2012 -1

سعار (رواية) عن المؤسسة العربية للدراسات و النشر - بيروت 2005 -2

عروس المطر (رواية) عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت 2006 ، وعن الدار العربية للعلوم – -3
.ناشرون (بيروت) 2012

تحت أقدام الأمهات – رواية، عن الدار العربية للعلوم 2009 -4

قيس وليلى والذئب – مجموعة نصوص، عن الدار العربية للعلوم 2011 -5

عائشة تنزل إلى العالم السفلي – رواية، عن الدار العربية للعلوم 2012 -6

كبرتُ ونسيتُ أن أنسى – رواية، عن الدار العربية للعلوم 2013 -7

:عضو في

رابطة الأدباء الكويتية

اتحاد الكتاب العرب

:الجوائز

.حائزة على جائزة الدولة التشجيعية عن روايتها « سعار « 2005/2006

حائزة على المركز الأول في مسابقة هيئة الشباب والرياضة
.فرع القصة القصيرة - 2003

.حائزة على المركز الثالث في مسابقة الشيخة باسمة الصباح - فرع القصة القصيرة

حائزة على المركز الثالث في مسابقة مجلة الصدى

للمبدعين 2006.

http://www.Bothayna.net